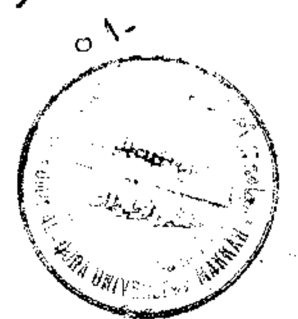
بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم القرى
كلية الشريعة
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع الكتاب والسنة

تحرير العقل وتثبيت التوحيد في ضوء الكتاب والسنة

لنيل شهادة الدكتوراه في الكتاب والسنة

مقدمة من الطالب
احمد فال ولد محمد الموريتاني



اشراف الدكتور
محمد عبد المنعم القيعي

١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه الكريم

مقدمة الرسالة :

الحمد لله الذى عمّ برحمته جميع العباد ، وخص أهل طاعته بالهداية الى سبيل الرشاد ، ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال ، نحمده سبحانه الذى بين لنا بمحض فضله شريعة الاسلام في كتابه العزيز ، وبيّن لنا ماخفي من معانيه الجمة بصحيح حديث خير الأنام ، فأظهر لنبينا ما أودع الله في كتابه من الودائع من خفايا الأسرار ، ومكامن الأنوار ، رضي بالاسلام دينا ، وفرض الاستسلام له ايمانا ويقينا ، ووفق من شاء من عباده لابراز الحق وابدائه والكشف عن مكنون عقود اللآلئ بعد خفائه ، نحمده حمدا يوافي ماتزايد من نعمه منور الأنوار ومظهر عجائب الأسرار ، وواهب السمع والبصر والفوءاد ، الذى أبدع بقدرته افلاكا دائرة ، وزينها بنجوم ثابتة وسائرة ، وجعل منها الشمس ضياء والقمر نورا وقدر كل شيء بحكمته تقديرا ، لاغنى الا في الافتقار اليه ، ولا هدى الا في الاستهداء بنوره ، ولا حياة الا في رضاه ، ولا نعيم الا في قربه ، ولا صلاح للقلب ولا فلاح له الا في الاخلاص له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له كلمة قامت بها الأرض والسموات ، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات ، وبها ارسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه ، ولأجلها نصبت الموازين ، ووضعت الدواوين ، وقام سوق الجنة والنار ، وبها انقسمت الخليقة الى الموءمنين والكافرين ، والأبرار والفجار فهي منشأ الحق والأمر ، والثواب والعقاب ، وعنها وعى

حقوقها السؤال والحساب ، وعليها يقع الثواب والعقاب ، وعليها نصبت القبلة وأسست الملة ، وجردت السيوف للجهاد ، وهي حق الله على جميع العباد ، فهي حكمة الاسلام ، ومفتاح دار السلام ، وعنها يسأل الأولون والآخرون ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه المبعوث بالدين القويم ، والمنهج المستقيم ارسله الله رحمة للعالمين ، واماما للمتقين ، وحجة على الخلائق أجمعين ، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به الى أقوم الطريق ، وأوضح السبيل ، وافترض على العباد طاعته ، وتعزيزه ، وتوقيره ، ومحبته ، وسدّ دون الجنة الطريق فلن تفتح لأحد الا من طريقه ، فشرح له صدره ، ورفع له ذكره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذّلة والهوان على من خالف أمره ، ففي المسند من حديث أبي منيب الجرشي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم " . وكما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره ، فالعزة لأهل طاعته ومتابعته ، قال تعالى : * ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين * وقال : * ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين * وقال جل ذكره : * فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الأعلون والله معكم * وقال أيضا : * يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين * الى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى لكثرتها في هذا المجال .

---

١ - سورة ال عمران الآية ١٣٩
٢ - سورة المنافقون ٨
٣ - سورة محمد ٣٥
٤ - [illegible] ٦٤

هذا وبعد أن منّ الله الحليم المنّان عليّ بالدخول في جامعة الملك عبد العزيز سابقا - جامعة أم القرى حاليا - وأنهيت المـــدة المنهجية ، وفترة رسالة " الماجستير " التي كانت بعنوان : " الزواج في ضوء الكتاب والسنة " وكانت باشراف : الدكتور / الحسين هاشم عبد المجيد ، جزاه الله عني كل خير ، بعد هذه البرهة التي لم تــزد على الوقت المحدد لها نظاميا بل قد تكون نقصت عنه لله الحمد ، بدأت أفكر في موضوع أجعله عنوان بحث الدكتوراة ، وقد منّ الله عليّ منـــة أخرى حيث صادف هذا الموقف لحسن الحظ وصول الدكتور الفاضـــل محمد عبد المنعم القيعي المتخصص في القرآن والسنة والوحدة الموضوعيـــة في القرآن ، وقد شاء الله لي أن يكون هو المشرف عليّ في هذه الرسالة لله الحمد ، فأعطاني اهتماما كبيرا ، وأطلعني على مجالات واسعـــة ، وكانت شيمته النصح والحث على التحصيل ، والمثابرة ، والتحقيـــق ، والتنقيح ، فدفعني الى الأمام وحثني على الدوام ، حتى أتم الله هـــذه الرسالة في ثوبها الجديد تحت أوامره وتوجيهاته ، فجزاه الله عنـــــي أحسن ماجوزي به عالم عن متعلم وأمين على ما أؤتمن عليه .

هذا وحيث ان مجال البحث ينبغي أن يتأثر بما يجرى فـــي العالم الاسلامي من عادات وأخلاق ، وحتى لا تغفل الرسالة عن مهمـــة المشاركة في التوجيه لا سيما في هذا الوقت بالذات الذى سيطرت فيـــــه العادات والتقاليد الواهية على أغلب العبادات ، وبعدت الناس عـــــن الأصلين العظيمين ، اللذين هما المصدر الأول والثاني للتشريـــع ، الكتاب والسنة ، في هذا الوقت أحببت أن تكون رسالتي هذه فيهـــــا

تلميحات واشارات توقظ العقل السليم المدرك الى ماهو سائد في الناس اليوم من الجمود على العادات والتقاليد الواهية التي لا أصل لهـــا سوى أنها متداولة بين العامة والخاصة ، قلد فيها الصغار الكبـــار فأصبحت كأنها نص محكم لا يجوز العدول عنه .

هذا ومعلوم أن المجتمع الاسلامي يدعوا الى ما يدعوا لـــه الاسلام ، حرية الفرد ، والمساواة بين الناس ، وهو في حقيقتــه وجوهره مجتمع حر غير طبقي وانعدام الطبقية فيه ليس على أساس نظريــة اقتصادية أو نظرية مادية ،وانما على أساس أشمل وأوسع ، أساس شريعــة الاخاء والمساواة بين الناس ورفض الاعتراف بامتياز أو فضل الا من خلال التقوى ، والعمل الصالح لخير الفرد والجماعة ، والامتثال لشريعة الله القائمة على مبادئ العدل وعدم الطبقية .

فالاسلام عقيدة وشريعة ، هو : دين وثقافة واسلوب حياة ، هو أمة ودولة لها شريعتها المتكاملة والمتطورة لتدبير شئون هذه الدنيــا والتجاوب مع حاجات الانسان لكي يحيا حياة انسانية كريمة خاضعة لسيادة الخالق وحده ، هذا ويعد أن عبد الناس قوى كثيرة ،اما عبادة أصلية ، وانما لاتخاذ عبادتها زلفى ، وتقربا الى تلك القوة العظمى القاهرة التي يدركونها بفطرتهم ، عبدوا الأشباح ، والأرواح ، والجمادات ، والحيوانات ، والنجوم ، الى غير هذا ، وماتوهموا ان فيه القوة أو أنه مثل لها أو مظهر من مظاهرها ، بل عبد بعض الناس بعضا ما تجلت فيه قوة غير طبيعية ، واذا نظرنا في تاريخ أديان البشر وجدنا الشرك فـي الغالب نتيجة لبدع احدثها الناس ، فعددوا الآلهة ونوعوها ، وأقـــام

المبتدعون والمفسدون أنفسهم قواما على الآلهة ، وسدنة وحراسا ، بل وكلاء ، ونوابا واتخذوا سلطان هذه الآلهة سلطانا لهم ، ثم تآمر ذوو الاغراض فتساندوا على تضليل العامة ، وانتهوا بوضعهم في أسر مجموعة من الخرافات ، فأول أثر يبدو للشرك في تاريخ البشر هو ان العبودية لله انقلبت الى العبودية للصنم ثم انقلبت الى عبودية للشخص أو الأشخاص القائمين على هذا الصنم ، ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال فان الشرك والاستبداد حليفان متلازمان ، اما التوحيد فيتبعه الانصاف ويلازمه ملازمة تامة ، والايمان الخالص من الشوائب الصادر من القلب تتبعه حتما جميع الفضائل المتعارف عليها ، والقرآن يفصل ذلك ويبينه أحسن تبيين ، والسنة توضحه وتقوم بمهمة التبليغ ، وقد شهد الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ، بالتبليغ فقال جل وعلا : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ [١] ، وقد أمرنا الرسول ان نبلغ عنه ماسمعناه فقال : " بلغوا عني ولو آية فرب مبلغ أوعى من سامع " وهنا تظهر مهمة العالم والمتعلم والباحث ، فان كل واحد عليه من المهمة بحسب مايحمله من علم مسؤول عن ايصاله الى القاصرين عن هذا المستوى ، ومن خلال ما أشرت اليه في هذه المقدمة مجتمعا ومفترقا من مضار العادة والعرف الخاطئين وقسوة سلطانهما اذا تحكما في تفكير الانسان وعقله رأيت من الصواب أن يكون موضوع رسالتي للدكتوراة هو بعنوان :

"" تحرير العقل وتثبيت التوحيد في ضوء الكتاب والسنة ""

لعل ما سنتعرض له يصادف قلبا خاليا من الشوائب فيتمكن أسلوب القرآن من اتماظ فطرة الله التي فطر الناس عليها ، قبل أن ينسيها

١ : سورة الذاريات الآية ٥٤

٢ : البخاري كتاب الانبياء ص ٦ : ٣٦١ والترمذي ج ٥ / ٤١

الشيطان ويبعدها الأمد عن المهمة التي خلقت من أجلها " وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون " وقد اتبعت في هذه الرسالة الخطة التالية :

جعلت الفصل الأول : " تحرير العقل وتثبيت التوحيد "

وبحثت النقاط الرئيسية التي عنت لتوها في هذا الفصل ، عرفت العقل وقلت : انه من النعم الكبار التي اعطى الله للعبد ، والدليل على ذلك ان العبد لا يخاطب بفروع ولا أصول الا اذا كان عاقلا ، وهذا محل اتفاق " فاذا أخذ ماوهب أسقط ما أوجب " ولفظ العقل ومشتقاته ورد في القرآن أكثر من اربعين مرة ، ولا خلاف بين المسلمين وغير المسلمين انه من المزايا العظام ، والقرآن الكريم لم يذكر العقل الا في مقام التعظيم ، والتنبيه الى وجوب العمل والرجوع اليه ، ولا تأتي الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة باللفظ والدلالة والتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم العقل ، أو يلام المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه ، وبعد هذه النبذة عن الموضوع الأول : " تحرير العقل " .

انتقلت الى الموضوع الثاني الذى هو : " التقليد " لكونه هو العائق الأول الذى يحول بين العاقل والتفكير وامعان النظر فيما يواجهه ، وقد عرفته لغة وشرعا ، وقلت انه اتباع القول من غير معرفة دليله ، وان من ظهر له الدليل ومشى معه يكون متبعا لا مقلدا ، وهذا هو الحق الذى لا ينبغي العدول عنه ، وان كل مسلم مطلوب منه تحكيم الكتاب والسنة والأئمة الاربعة أصحاب المذاهب المشهورة كل واحد منهم رضوان الله عليهم أوصى بان قوله اذا خالف الكتاب أو السنة لا يعتد به

ولا يلتفت اليه ولا يعمل به ، وقلت في هذا الموضوع : ان اسم المذهب لا يتناول مواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض وذلك أمر لا نزاع فيه لاجماع العلماء على أن المجتهد اذا قلم باجتهاده دليلا مخالفا لنص من كتاب أو سنة أو اجماع أن دليله باطل بلا خلاف ،وانه يرد بالقادح المسمى في الأصول بفساد الاعتبار ، وقد أوردت أدلة المقلدين وبينت حجج المانعين والمجيزين ، وذكرت أقسامه وان منه ماهو جائز وتتبعت الخلافات وبينت الراجح منها والذى يشهد له الدليل ،

وبعد توضيح هذا الموضوع خلصت الى موضوع آخر هو :

"" تأثير البيئة على العقل ""

لكونه له مساس بعدم تحكيم العقل ، والبيئة ومايحدث فيها تحدد اتجاه الانسان ، وقد يظل أسيرها ، وتأثير البيئة على الناس مشاهد في سلوك الناس ، وتحكم العادة وقوة سلطانها ، وقد برهنت على هذا الموضوع بقصة رجل بني اسرائيل الثابتة في الصحيحين والذى قتل مائة نفس وقلت أن العالم أرشده الى قرية أهلها صالحون ، ونصحه بمغادرة القرية التي كان يسكنها وتلبس فيها بهذه الجرائم ، لأنها قرية سوء ، ووجوب الهجرة في بدء الاسلام من هذا القبيل وان كان تكثير سواد المسلمين والفرار بالدين خوفا من الافتتان والاكراه على الكفر هما السببان الرئيسيان ، ولكن الجو الصالح والجليس الصالح لاشك في أن الله ينفع بهما ، والبيئة لها ما تفرضه من قوة على نظم المجتمع وخاصة شئون التشريع والعادات والتقاليد ، ونظم الاقتصاد والمستوى الحضارى والنزوع الى الحرب أو السلم ، ونسب الى البيئة الجغرافية الفضل في

تثبيت دعائم الحكم في المدن القديمة ، وقد احتل موضوع البيئـــة مكان الصدارة في المناقشات التي اثيرت حول العوامل المؤثرة في حيـاة المجتمعات ، وذكرت في هذا الموضوع ان من الناس من يذهب الـى أن التباين بين أمة وأخرى سواء في التفكير أم في شئون الاجتماع يرجع الـى ماخضعت له كل أمة من مؤثرات البيئة ، واتجهت بعد هذا الموضوع الـى موضوع آخر هو : "" الارهاب الفكرى "" .

وذكرت في هذا الموضوع عدة نقاط : منها أن مجـــال الدراسة الذى يعرف باسم التاريخ الفكرى ليس أمرا محدود الجوانـب ، فقد يندرج تحت هذا العنوان مدى فسيح من الموضوعات العملية من آثـار الفلاسفة المعنيين في التجديد الى التعبير عن الخرافات الشائعة مثـل التشاؤم الشديد من العدد ١٣ ، وقلت : أن مؤرخوا الفكر تعرضوا لأفكار الفلاسفة كما تعرضوا للآراء التي يعتنقها رجال الشارع ، ومهمتهم الأساسية محاولة " التعرف على العلاقات بين آراء الفلاسفة والمثقفـين ، والمفكرين ، وطريقة العيش الواقعية للملايين الذين يحملون على عواتقهم واجبات المدنية .

ومؤرخوا الفكر تهمه الأفكار أنى وجدها سواء كانت أفكـارا همجية أم معقولة تأملا دقيقا أم تحيزا عاما ، ولكنه يهتم بهذه الثمار مـن نشاط الانسان العقلي ، من حيث تأثيرها في وجود الانسان كلـه ، أو تأثيرها بهذا الوجود ، وقلت : ان قصة موسى عليه السلام تمثل الموضـوع خير تمثيل ، وهي : متناثرة في القرآن العظيم ، ووردت في كثير مـن

السور ، وقد بينت هذه السور وعينتها وذكرت موضوع كل سورة بما يكفي عن ذكره هنا ، وهكذا كفاني مافي هذه القصة من الارهاب المتمثل في فرعون وملائه ، والذى مارسه في بني اسرائيل ماهمني في هذا الموضوع .

وأتبعت هذا الموضوع بموضوع الآيات الأرضية : وبينت هنا شبهة منكرى البعث ، والحشر والنشر ورددت على هذه الشبه ، وتعرضت لتفسير بعض الآيات ، وما جر اليه البحث مما له علاقة من قريب أو بعيد بهذا الموضوع وتطرقت الى دوران الأرض وعدمه وأوردت آراء العلماء المعاصرين والذين تعرضوا لهذا الموضوع حين قامت زوبعته ،وختمت كلامي بأن كثيرا من الناس يرى ان دورانها يعتبر اليوم من الضروريات المعلومة التي لايجادل فيها الا قاصر قصورا مخلا ، بينما يرى البعض الآخر أن اعتقاد دورانها وثبوت الشمس كفر بواح مخالف للكتاب والسنة . وبعد هذا انتقلت الى فصل آخر هو : انكار الوحدانية وعبادة الأصنام واحلال التوحيد محل هذا ، وتعرضت في هذا الفصل لشروط قبول العمل وبينت أنها منحصرة في أن يراد به وجه الله وأن يكون خالصا له سبحانه ، وأن يوافق الشرع ، واتيت بما يشهد لهذا من الكتاب والسنة ومن ضمن الأدلة قوله صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملا ليس علية أمرنا فهو رد "" أى مردود عليه ذلك العمل لايقبل بسبب ما أحدث فيه ، فالطريق واضحة ومضاءة بالكتاب والسنة ، وكذلك جعلت من ضمن الأدلة حديث : " انا أغنى الأغنياء عن الشرك " وبينت في هذا المكان أقسام التوحيد الثلاثة الربوبية - الالوهية - والاسماء والصفات ،بطريقة موجزة ، ووجوب الطاعة لله وحده ، وشرحت آيات الواردة في هذا المجال

رد الشارح رحمه الله التحرفة بان اذا اجتهد الحاكم واخطأ خلاف الرسول صلى الله عليه وسلم فحكمه مردود ص ٤ م ٢٦٨ ط دار المعرفة بيروت

والأحاديث المتعلقة به ، وفي خلاصة هذا البحث ، قلت : ان الذين وقع بينهم بعض الخلافات سواء في أسماء الله أو صفاته أو أفعاله متفقون على تنزيهه سبحانه وان اختلفت الأفهام ، فالمقصد واحد وهو تنزيهه عن النقائص ، فمن أنكر بعض الأسماء أو الصفات فذلك فرارا من التشبيه ، ومن أثبتها فذلك فرارا من التعطيل ، وفي الفقرات التالية من هذه الرسالة تعرضت لبعض العادات التي كان أهل الجاهلية يتعاطونها وأبطلها الاسلام وأمر بنبذها وحذر منها ، ومن تلك العادات البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، ووأد البنات ، والجمع بين الأخوات ، والزواج بالأمهات ، كما أن الربا ، وشرب الخمر داخلان في هذه العادات ، وقد نهى الله عنهما كما نهى عن هذا كله في محكم كتابه وعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام الذى شهد له بالتبليغ في قوله : * فتول عنهم فما أنت بملوم * وقد نص القرآن على تحريم هذه الأشياء قال تعالى : * ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام * (١) وقال في شأن الوأد : * واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت * (٢) وقال في شأن الأخوات * وأن تجمعوا بين الأختين الا ماقد سلف * (٣) وقال أيضا في شأن الأمهات : * حرمت عليكم أمهاتكم * (٤) وأما الربا فانه كان متفشيا فيهم فليحذر الذين يهونون من شأنه ويتعاطونه : * يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة * (٥).

أما النقطة الأخيرة من هذه العادات فهي الخمر ويكفي في الزجر عنه قوله : * فهل أنتم منتهون * (٦) فمن لم ينته فانه سوف يقف بين

---

١ سورة المائدة الآية ١٠٢
٢ سورة التكوير الآية ٨ - ٩
٣ سورة النساء = ٢٣
٤ = =
٥ سورة آل عمران ١٣٠
٦ - سورة المائدة ٩١

يدي الله بدون حجة وعندئذ فسوف يكون الشراب طينة الخبال ، والندم كثير والوقت طويل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،

1- * وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون * .

وفي فقرات الرسالة الأخيرة تعرضت لموضوعات شتى :

الموضوع الأول : مانسب الى الامام ابي حنيفة من رد الأوقاف ومنع الأحباس استنتاجا من قوله * ماجعل الله من بحيرة * وقلت : ان لا مناص من نسبة هذا القول اليه حسبما رأيت .

الموضوع الثاني : النذر ، وقلت ان الوفاء به واجب اذا كان المنذور جائزا ، وان العلماء لا يحبون النذر لكونه " انما يستخرج به من البخيل " وبحثت الخلاف فيه ، ومايجب فيه الوفاء ومالا يجب استنتاجا من استفسار الرسول صلى الله عليه وسلم للذين نذروا ، وقلت أن العلماء لم يحرموا النذر لكون الله مدح الوافين به في قوله تعالى : * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا * . 2-

هذا وقد رجعت في هذا البحث الى كثير من أمهات الكتب المتداولة اليوم من كتب التفسير والحديث ، والأصول ، والفقه ، والتاريخ والسير ، وعلم الاجتماع ، وعلم الفلك ، وقد تركت كثيرا من الكتب التي رجعت اليها لم نثبتها في قائمة المراجع وذلك لسببين : الأول : ان الأقوال كثيرا ماتكون متحدة فنعتمد احدهما ونترك الباقي ، ثانيا : عدم

1- سورة الشعراء الآية 227

2- سورة الإنسان الآية 7

تكرار الرجوع اليها والأخذ منها ، وهكذا كان سيرى في هذه الرسالــة على النحو الذى بينت ، والله المستعان والهادى الى سبيل الرشاد .

هذا وبعد المقدمة التي بينت فيها سبب اختيارى لهـــذا الموضوع وطريقة بحثي له ، والنقاط التي تعرضت لها حان الوقت للرجوع الى أم الكتاب ، والالتحام مع صلب الرسالة بادئا بحمد الله والصـــلاة والسلام على نبيه الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الاول في تحرير الاسلام للعقل

تحرير العقل وخصائصه

العقل الحجر والنهي ضد الحمق ، والجمع : عقول ، وعقل يعقل عقالا - ومعقولا . وهو : مصدر ، وقال سيبويه وهو : صيغة ، وكان يقول : ان المصدر لا يأتي عن وزن مفعول البتة ويتأول المفعول فيقول : كأنه عقل له شيء أى : حبس عليه عقله وأيد وسدد ، وقال : ويستغني بهذا عن المفعل الذى يكون مصدرا ، وعقل فهو عاقل وعقول من قوم عقلاء ، قال ابن الانباري : رجل عاقل هو الجامع لأمره ورأيه مأخوذ من عقلت البعير اذا جمعت قوائمه ، وقيل : الذى يحبس نفسه ويردها عن هواها أخذ من قولهم : قد اعتقل لسانه اذا حبسه ومنع عن الكلام ، والمعقول ما تعقله بقلبك والمعقول القلب يقال ماله قلب : أى : عقل وهو أحد المصادر التي جاءت على مفعول كالميسور . والمعسور، وعاقله فعقله يعقله بالضم كان اعقل منه ،والعقل : التثبت في الأمور - وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أى يحبسه ، وقيل العقل : هو : التمييز الذى يتميز به الانسان عن سائر الحيوان - ويقال لفلان قلب عقول ولسان سؤول - وقلب عقول فهيم " وعقل الشيء يعقله عقلا : فهمه ، ويقال : اعتقلت فلانا ، أى الفيته عاقلا ، وعقلته صيرته عاقلا ، وتعقل تكلف العقل كما يقال : تحكم ، وتكيس - وتعاقل أظهر أنه عاقل -

(١) فهم وليس بذلك ، وفي حديث الزبرقان : احب صبياننا الينا الأبله العقول . وعقل الدواء بطنه يعقله ويعقله أمسكه وقيل امسكه بعد استطلاقه ، ومما سبق تبين من معان العقل في اللغة : الحجر كان أول خاصية من خصائص العقل . هي المنع والكف لا عن كل شيء بل عن بعض الاشياء فقط ويأتي هنا دور الشارع فيحدد مايجب على العقل أن يمتنع عنه ومايجب عليه أن يقوم به وما يخير في فعله أو تركه . .

(٢) فهو النهي كما قال سبحانه : ﴿ ان في ذلك لآيات لأولي النهي ﴾ وضد العقل الحمق ، وهو : التصرف من غير ضابط يضبط مايمتنع عنه وما يفعله ، والعقل قد يصاب بآفة فيختل ويضطرب كما هو :

(٣) الشأن فيمن أضلهم الله كما قال سبحانه : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون ﴾ أقول وبالله التوفيق : الانسان مسؤول عن تحكيم عقله في كل اموره العاجلة والآجلة والقرآن الكريم الذى هو الهداية الواضحة خاطب العقل وأمر اصحاب العقول بالتفكر والاعتبار - كما أن الدين الاسلامي يدعو في نصوص الكتاب والسنة أهل العقول السليمة الى الاعتبار والتفكر والتدبر - واختلفوا في العقل هل هو مصدر أو صفة ، فاذا لاحظنا المصدرية فهو مرجع للانسان فيما يملكه ، واذا لاحظنا الوصفية فعند زواله تسقط التبعة والمسؤولية

---

(١) لسان العرب : ٤٥٨/١١ .

(٢) سورة طه : آية "٥٤" .

(٣) سورة الأعراف : آية "١٧٩" .

فيمن زال عنه عقله ، وهذا موضع اتفاق ، فاذا أخذ ماوهب ،
اسقط ماوجب ، والعقل يتفاوت في أهله فمنهم العاقل ومنهم المعقول ، (١)
والزيادة المسرفة في جهة من العقل يأتي من النقص المتحيف التى
جهة أخرى وانه رب عقل كان تاما عبقريا في أمور الا أنه ضعيف أبله في
أمور أخرى ، والقدر الذى يتعلق به التكليف هو التمييز والقدرة على
التفريق بين الضار والنافع ، وقد قدمنا قول ابن الانبارى : ان الرجل
العاقل هو : الجامع لأمره ورأيه كان من خصائص العقل الجمع بين
المتماثلات والتفريق بين المختلفات ولا بد للعاقل من رأى مستقل يستخلصه
مما يجرى حوله ،والا كان صاحبه امعة يقول : أنا مع الناس ان
أحسنوا أحسنت وان أساؤا أسأت .

وقد أرشد الاسلام كل عاقل ان يوطن نفسه باستقلال الرأى
فان أحسن الناس أحسن وان اساوءا أجتنب اساءتهم ،وقد أخذ
هذا من قولهم : عقلت البعير اذا جمعت قوائمه كان الانسان بغير
عقله يشرد كما تشرد الابل وتجمع قوائمه بعقله متى عقل . وهذا يرجع
الى أن النفس تريد أن تكون مطلقة فيقيدها العقل - ولكل غريزة في
الانسان شعور لا سهنأ لها الا أن يكون هذا الشعور حرا حتى في
التوهم فكان العقل فاصل بين ماهو حقيقة وما هو خيال . فهو اذا يحبس
ماينبغي أن يحبس ويطلق ماينبغي أن يترك حرا طليقا ، ويخيل اليّ
أن اللغة فرقت بين العقل والقلب كالتفريق بين الفاعل والمفعول ،
فالعقل يقوم به التعقل والقلب معقول فان المعقول يطلق في اللغة
اما على نفس القلب أو مايعقله القلب ، وعلى هذا يكون القلب في اللغة

---

(١) صحاح الجوهرى : ١٣٤٧/٤ .

اداة من أدوات التعقل ويمكن أن يسعفنا القرآن في هذا المسلك كما قال سبحانه : * لهم قلوب لا يفقهون بها * وقوله * فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور * (١) وبهذه المعاني كلا مجتمعة ومفترقة يؤخذ من ضمنها ان العقل الانساني مدعو الى التفتح والنمو .، والتحرك حين يبتعد عن الخرافات والاباطيل ويتمكن من النظر في هذا الكون وما حوله فيدرك الحق ويتمتع بنور الله وهدايته وتتكشف له اسرار ذلك ، ان الانسان بفطرته السليمة محمول على اتخاذ عقائد لدينه يطمئن لها ويهتدى بنورها ، ولكن كثيرا من المتدينين انحرفوا عن الفطرة السليمة واتبعوا أهواءهم وما لوامع شهواتهم وقلدوا أباءهم وقادة أديانهم بدون نقد ولا تمحيص فضلوا وأضلوا حتى جاء الاسلام فأراد أن يرجع الفطرة الى أهلها فحرم على أهله هذا الضرب من العقائد الزائفة وشرط أن يكون أساسها العقل وسندها الدليل ، وحكم العقل مظهر من مظاهر السلوك الانساني ولأجل أن يرفع طريقة العقل الخاص على مايعترضه من العوائد الواهية أنحا باللائمة على مبدأ التقليد فنقضه وعلى أصل التقديس القديم فتهدمه ونص على الواقعين مع هاتين المقتين فقال جل ذكره : * واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون * (٢) وهذا الاتجاه في الاعتماد على العقل لا عهد للانسانية

---

(١) سورة الحج : آية " ٤٦ ".
(٢) سورة المائدة : آية " ١٠٤ ".

به الا في العلوم الكونية فليس على المسلم بموجب الأصل الاسلامي أن يتناول عقيدة بدون أن يحكم عقله فيها ويدلل عليها ، حتى ساغ لأصحاب الاصول من المسلمين أن يفرضوا ان ايمان المقلد لا يقبل منه ، لأن العقل من صفاته التمييز بين الحق والباطل ، والحسن والقبيح والخير والشر- كما أناطوا التكليف في جميع الفروع الشرعية بالعقل فاذا تعطل فلا تكليف . ولهذا وصف - الاسلام بأنه دين الفطرة اذ هو يتماشى مع النظام الذى أوجده الله في كل مخلوق كامل فهو يساير مقومات الانسان الجسمية والعقلية في آن واحد بل يعمل على تقويتها وبروزها حتى تقوم بواجبها الفطرى ، فلا يعطل غريزة ولا يقف سدا أمام طاقات الفطرة بل يقوى فيها نوازع الخير ويكشف عما في الحياة من نفع وضر وبذلك امتاز على غيره من الأديان لأنه دين العدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، فهو لا يأمر الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية وملذة جسدية مادام يتناولها عن طريقها المشروع وبحدها المعتدل حتى أن أكثر الآيات القرآنية التي تحض على نيل منزلة روحانية تحض في آن واحد على نيل مكانة مادية ، (١) يقول الله سبحانه ❋ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله اليك ❋ فان انحرفت النفوس عن الفطرة عمل هذا الدين بتشريعاته الجارية على وفق مايدركه العقل ويشهد به ليرجع تلك النفوس الضالة الى حظيرة الفطرة السليمة ويهدى

---

(١) سورة القصص : آية " ٧٧ " .

(١) الى اتباع الطريق المستقيم . قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(٢) والفطرة المرادة هي قوله تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾

(٣) هي كما قال ابن عاشور الحالة التي خلق الله عليها عقل النوع الانساني سالما من الاختلاط بالعادات الفاسدة ، والأوهام ، والاباطيل ، صالحا لصدور الفضائل عنه كما شهد به قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فالتقويم المراد في هذه الآية انما هو تقويم العقل الذى هو مصدر العقائد الحقة والاعمال الصالحة وان المراد بـرده أسفل سافلين ، انتقال الناس الى اكتساب الرذائل بالعقائد الباطلة والاعمال الذميمة ، واذا كان العقل السليم هو طريق الاهتداء الى المنهج الصحيح بادراك معنى الخير والشر والباطل ، ويتضح بوضوح ان العقل في مقدمة النعم الكبار التي أمتن الله على عباده بها لانه بـه يتم التكليف ولا يكون بدونه ، وبه يعرف البارى جل وعلا ويتوجه خطابه الينا بما فيه من الآيات والاوامر والنواهي ، وقد اعتبر القرآن الكريم العقل ونبه على ضرورة التفكر والتبصر ولفظ العقل ومشتقاته وردت في

---

(١) سورة الروم : آية " ٣٠ " .
(٢) سورة الروم : آية " ٩ " ٣٠
(٣) الفكر الاسلامي : ٢٨٩ .
ع - سورة التين الآية ٤

(١) القرآن أكثر من أربعين مرة ، يقول العقاد : لا خلاف بين المسلمين وغير المسلمين ان من المزايا العظام مزية العقل والتنويه عليه في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف مع كتب الأديان الكبرى اشارة صريحة أو مضمونة الى العقل او الى التمييز ، ولكنها تأتي عرضا غير مقصودة وقد يلمح

(٢) فيها القارئ بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والانكار ، ولكن القرآن الكريم لايذكر العقل الا في مقام التعظيم - والتنبيه الى وجوب العمل والرجوع اليه ولا تأتي الاشارة اليه عارضة - ولا مقتضبة في سياق الآية بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة والتكرر في كل معرض من معارض الأمر - والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم العقل أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه

(٣) ولا يأتي تكرار الاشارة الى العقل لمعنى واحد - من معانيه التي شرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف اعمالها وخصائصها وتعتمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع - ولا في العقل المدرك - ولا في العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل عم الخطاب في الآيات

---

(١) التفكير فريضة اسلامية : ص ٨١٧ .

(٢) الزراية : رزى عليه فعله : عابه وحقره صحاح الجوهرى ٦ / ٢٣٦٨

(٣) التفكير فريضة اسلامية : ص ٧ - ٨ . محمد العقاد

القرآنية كل مايتسع له الذهن الانساني من خاصة أو وظيفة وهي كثيرة لا موجب لتفصيلها في هذا المقام اذ هي جميعا مما يمكن ان يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك ـ والعقل المفكر الذى يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء .

أقول وبالله التوفيق : العقل ، نور جعله الله في القلب يميز العبد به بين النافع والضار ، والحسن والقبيح وهو زمام الانسان الوحيد الذى يمسكه عن اقتحام المهالك القولية والفعلية وقد تعرض العلماء لمكان العقل فبعضهم يقول انه في القلب كما قدمت بينما يرى البعض الآخر انه في الدماغ وكل واحد يؤيد قوله بما يرى من الأدلة المقوية لجانبه والذى أراه شخصيا مع الاعتراف بالقصور ان العقل : نور - جعله الله في القلب وله اشعة ممتدة الى الدماغ والانسان خلقه الله مترابط الاجزاء محكم الأعضاء . نجد من يصاب في عقله لا يحسن تصرفا ولا تؤكل اليه الأمور . بينما نجد من أصيب في دماغه في حالة عدم وعى تامة مع اننا نجد المكفوف يمشي في الشوارع والممرات الضيقة وحده بدون قائد ، وهذا يدلنا على ان النور الذى في القلب يسرى به صاحبه مالا يرى من أصيب في قلبه . فهذا المصاب في قلبه أو دماغه نجده يصطدم بالجدران ولا يستطيع الاهتداء الى شيء .

هذا بالاضافة الى ان بعض العلماء يقول ان القلب هو : العقل ،

(١) قال ابن جرير الطبرى في تفسيره لقول الله عز وجل : * ان في ذلك

(٢) لذكرى لمن كان له قلب او ألقي السمع وهو شهيد * حدثني يونس

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى : ٢٢/٩٩ ، ط / الميمنية .
(٢) سورة - ق - : الآية " ٣٧ " .

قال اخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله تعالى * لمن كان له قلب* قال : قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم ، والقلب في هذا الموضع : العقل وهو من قولهم مالالفلان قلب وماقلبه معه أي : ما عقله معه واين ذهب قلبك يعني : أين ذهب عقلك وقوله * او القي السمع وهو شهيد * يقول أو اصغي لأخبارنا اياه عن هذه القرون التي أهلكنا ها بسمعه فيسمع الخبر عنهم كيف فعلنا بهم حين كفروا بربهم وعصوا رسله - وهو * شهيد * يعني : متفهم لما يخبر عنهم شاهد له بقلبه . غير غافل عنه ولا ساه ، ثم قال ابن جرير : وبنحو الذي قلته في ذلك قال أهل التأويل وان اختلفت الفاظهم فيه والغرض عندي هو : بيان ان القلب يقال له العقل كما نص عليه ابن زيد في تفسير الآية التي ذكرنها آنفا واذا كنا لا نجزم بصحة هذا القول لكون السند فيه ليس بذاك ولم يكن مرفوعا فانه على الأقل يلتمس منه ارتباط القلب بالعقل وانه ان لم يكن القلب هو العقل فالعقل موجود في القلب كما اثبتت التجارب المرئية .

(١) ويقول القرطبي : هذه السوره تذكره وموعظه لمن كان له قلب أي : عقل يتدبر به فكني بالقلب عن العقل لأنه موضعه قال معناه مجاهد وغيره * وقيل لمن كان له قلب * لمن كان له حياة ونفس مميزه فعبر عن النفس الحية بالقلب لأنه وطنها ومعدن حياتها ، كما قال امرىء القيس الشاعر الجاهلي المعروف :

أغرك مني أن حبك قاتلي *** وأنك مهما تامري القلب يفعل .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٣ .

(١) قال يحيى بن معاذ في الكلام على تفسير قوله تعالى * لتنذر من كان حياً *
قال القلب قلبان قلب محتش باشغال الدنيا حتى اذا حضرا مر من الأمور
الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى اذا حضر
أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة ، وقوله تعالى
* أو ألقى السمع اى استمع القرآن تقول العرب ألق الى سمعك أى
استمع - وهو شهيد أي : شاهد القلب : قال الزجاج قلبه حاضر فيما
يسمع وقال سفيان :
(٢) لا يكون حاضرا وقلبه غائب وقال القرطبي في معنى قوله تعالى * لتنذر من كان
حيا * الآية .

(٣) قال حيى القلب . قاله قتادة . والضحاك قال عاقلا - وقال الفخر الرازى
(٤) في قوله تعالى * ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب * والقلب قد يجعل
كناية عن الخاطر والتذير وعند قوم أن محل التفكر هو الدماغ فالله
سبحانه وتعالى بين ان محل ذلك هو الصدر ، وتسآل الفخر فقال : هل
تدل الآية على ان العقل هو العلم ، وعلى ان محل العلم هو القلب
والجواب : نعم لأن المقصود من قوله تعالى * قلوب يعقلون بها * هي
العلم ، وقوله يعقلون بها كالدلالة على ان القلب آلة لهذا العقل
فوجب جعل القلب محلا للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لأن الجاهل لكونه
متحيرا يشبه الأعمى ، وفي سورة الأعراف عند قول الله عز وجل * لهم
قلوب لا يفقهون بها * .

---

(١) سورة يسن الآية : ٦ ، ٧
(٢) تفسير القرطبي جـ ١٥ ، : ٥٥ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ - ص : ١٦٦ .
(٤) سورة - ق - الآية : ٣٧ .

قال الفخر احتج العلماء بأن محل العلم هو القلب أقول وبالله التوفيق لا شك ان العقل أن لم يكن هو القلب فهو محله وعلاقته به كعلاقة الثمار بالأشجار ، وأن هناك نورا ساطعا متصلا بالدماغ وهذا هو الذى هو يدل عليه التفكير - والحزن - والغضب الشديد وجميع العوامل التى تمر بالأنسان ، فانا نجد الحزين مشغول القلب داركا للأشياء كلها كما نجد من يصاب في دماغه مشغول القلب زائغ البصر - وكذلك من يصاب في عقله لا يؤاخذ في تلك الحال بما يفعل لأنه لا يدرى عما يفعل وهذا من أقوى الأدلة على ان العقل في القلب أو هو هو لأن - الانسان ما دام سليم - القلب فهو سليم الأقوال والأفعال محسوبة عليه اقواله وافعاله .

(١) وقال أمام الحرمين في كتابه البرهان : تحت عنوان (تصدير الباب بكلام مقنع في العقل .) فانا سنسند حقائق العلوم الى مدارك العقل ، ولا بد من الاحاطة بحقيقته حسب ما يليق بهذا المختصر . والكلام لا يزال لأمام الحرمين . قال القاضى ابوبكر : العقل من العلوم اذ لا يتصف بالعقل خال من العلوم كلها ، وليس من العلوم النظرية فان النظر لا يقع ابتداءه الا مسبوقا بالعقل ، فانحصر في العلوم الضرورية ، وليس كلها فانه قد يخلو عن العلوم بالمحسوسات من اختلت حواسه ، وان كان على كمال من عقله ثم لم يزل يبحث حتى قال : العقل علوم ضروريه لا يخلو عنها المتصف بالعقل - ولا يتصف بها من لا يتصف بالعقل ثم سبر على ما زعم فاستبان ان العقل علوم ضروريه ، بجواز الجائزات .

---

(١) البرهان في اصول الفقه حـ ٢ ص ١١١ ط الأولى .

واستحالة المستحيلات - ولا يتصف بهذه الفنون الا العاقل كمالا يتصف بها من ليس بعاقل - اقول وبالله التوفيق - هذا الذى ذكره القاضي عن العقل فيه تعقيد وفيه نظر ايضا فانه بنى كلامه على ان العقل من العلوم وهذا غير معروف ولم تقف عليه عند عامة من تعرضوا لهذا الموضوع وهو لم يستدل عليه بنصوص من كتاب او سنة وفي هذه الحال يبقى بدون مرشح،

(١) قال امام الحرمين معلقا على كلام القاضي السابق عن حول العقل " وهذا يرد عليه انه لا يمتنع كون العقل مشروطا بعلوم وان لم يكن منها وهذا سبيل كل شرط ومشروط ، فان قيل : فما الذى يبطل ما ذكره القاضي رحمه الله في معنى العقل ؟ قلنا : نرى العاقل يذهل عن الفكر في جواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو : عاقل ، فان قيل : فما العقل " عندكم " قلنا : الكلام فيه ليس بالهين وما حوم عليه احد من علمائنا غير الحارث فانه قال : العقل غريزه يتأتى بها درك - العلوم وليست منها فالقدر الذى يحتمله هذا المجموع ان العقل صفه اذا ثبتت امكن للمتصف بها درك التوصل الى العلوم النظريه - ومقدماتها

---

(١) هو: ابو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه .
الطائي السبيسي شغل من الزمان تسعا وخمسون سنه من سني القرن الخامس الهجرى (٤١١ - ٤٧٨) مشهور بالعلم والزهد والتواضع حتى قيل انه ملأ المشرق والمغرب وكان امام عصره بنيسابور - وتفقه على ابى الطيب سهل بن محمد الصعلوكي وقدم مرو قصدا لأبي بكر بن عبد الله بن احمد القفال المروزى - فتفقه به مات بنيسابور سنة ٤٣٨ هـ معجم البلدان ١٨٢/٥ او سير النبلاء هـ ١٣٧/١١ .

من الضروريات التي هي : مستند النظريات - وقد قسم امام الحرمين العلوم الى مايدرك بالعقل وما يدرك بالسمع وما يدرك بهما فقال :

فأما ما يدرك بالعقل فقط فحقائق الأشياء ودرك استحالة المستحيلات وجواز الجائزات - ووجوب الواجبات العقليه ، لا التكليفيه : الضروريه منها والنظرية ، واما مالا يدرك الا بالسمع ، فوقوع الجائزات وانتقاؤها واما ما يشترك فيه السمع والعقل وبذكره ينضبط ما تقدم من القسمين : فنقول فيه : كل مدرك يتقدم على ثبوت كلام صدق فيستحيل دركه من سمع فان مستند السمعيات كلها " الكلام " الحق الصدق ، وبيان ذلك بالمثال ان وجود الباري سبحانه وتعالى وحياته وان له كلاما صدقا لايثبته سمع ، فاما من احاط بكلام صدق ، ونظر بعده في جوازا لرؤية وفي خلق الأفعال واحكام القدرة فما يقع من هذا الفن بعد ثبوت مستند السمعيات فلا يمتنع اشتراك السمع والعقل فيه - (١)

أقول وبالله التوفيق :

ينبغي بعد تعريف العقل وشهوته والمميز به فلابد من التفرقه بين السليم وموقفه والمريض وتبلده وقصوره لغرض عوائق تعوقه فالعقل السليم موقفه سليم في الاشياء كلها ينظرها من دائرة تحيط بها كلها - بينما العقل البليد أو بعبارة أخرى تبلد العقل فهو ما يقتضه طارىء من اعتلال أو اختلال ولا يكاد : ينكر ذلك العاقل من نفسه .

ثم يتصدى له طوران : أحدهما - ان يعلم قصوره - ويتمادى مضطرب العقل - والثاني : ان يتمارى انه - مضطرب العقل ام لا ؟ .

---

(١) البرهان في اصول الفقه لامام الحرمين ج ١ ص : ١٤٤ . الجويني

وبالجملة الا يحكم لمن هذا حاله يتوقف العقد كحكمنا للأول فيما تقدم - وقد صار معظم الأوائل الى ان درك خواص الأجسام " وحقائقها " من مواقف العقول فليس من الممكن ان يدرك بالعقل الخاصية الجاذبه لتحديد في المغناطيس - والله اعلم واحكم وهنا نترك الكلام في هذا المجال الذى سبق اليه .

(١) كما قال أمام الحزمين الحارث بن أسد وتكلم فيه وفي الحقيقه انه يكفي ماقال عن كثرة الخوض لاسيما في هذه المجالةونتبعها بالعائق الأول من المواائق التى تعيق العقل عن التفكير وهو

* ألتقليد *

(٢) وهو لغة : جعل القلادة في العنق - وتقليد الولاة هو : جعل الولايات في اعناقهم ومنه قول لقيط الأيادى .

وقلدوا أمركم لله دركم ***** حب الدراع بأمر الحرب مضطلعا .

واما التقليد في اصطلاح الفقهاء فهو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليله .

(٣) والمراد بالمذهب هو : ما يصح فيه الاجتهاد خاصة والمذهب لغة : الطريق ومكان الذهاب ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب اليه امام من الأئمه من الأحكام الأجتهاديه .

---

(١) الحارث بن اسد المحاسبي ابوعبد الله من اكابر الصوفيه اصولي واعظ من أوائل المتكلمين من اهل السنة توفي سنة ٢٤٣ هـ ، شذارات الذهب ٢ / ١٠٣ .

(٢) تفسير اضواء البيان في يضاح القرآن بالقرآن هـ ٧ ص ٤٨٦ ط المدني

(٣) مواهب الجليل لشرح مختصر خليل تاليف محمد عبد الرحمن الطرابلسى المغربي هـ ١ ص : ٢٤ .

ويطلق عند المتأخرين من أئمة المذاهب على ما به الفتوى من باب اطلاق الشيء على جزئه الأهم نحو قوله صلى الله عليه وسلم * الحج عرفة * لأن ذلك هو الأهم عند الفقيه المقلد والله اعلم.

(١) هذا ولا يصح الاجتهاد البتة في شيء يخالف نصا من كتاب الله أو سنة ثابتة سالما من المعارض ، لأن الكتاب والسنة حجة على كل أحد كائنا ما كان ، لا تسوغ مخالفتهما البتة لأحد كائنا من كان فيجب التقطن ، لأن المذهب الذى فيه التقليد يختص بالأمور الأجتهادية ولا يتناول ما جاء فيه نص صريح من الوحي سالم من المعارض - اقول وبالله التوفيق : تعريف المذهب الآنف الذكر يدل على ان اسم المذهب لم يتناول مواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض - وذلك امر لا خلاف فيه لأجماع العلماء على ان المجتهد المطلق اذا اقام باجتهاده دليلا مخالفا لنص من كتاب او سنة او اجماع ، ان دليله ذلك باطل بلا خلاف .

(٢) وانه يرد بالقادح المسمى في الأصول بفساد الأعتبار . وفساد الأعتبار الذى هو مخالفة الدليل لنص او اجماع من القوادح التي لا نزاع في ابطال الدليل بها واليه الاشارة بقول صاحب مراقي السعود في القوادح : والخلف للنص او اجماع دعاه * فساد الأعتبار كل من وعى ، قال الشيخ الأمين عليه رضوان الله بعد ايراده شهاد الأصول السابق في القوادح : وبما ذكرنا نعلم - انه لا اجتهاد اصلا ولا تقليد أصلا في شيء يخالف نصا من كتاب -

---

(١) أضواء البيان جـ ٧ ص: ٤٨٦ تأليف الشيخ / محمد الأمين رحمه الله .

(٢) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن جـ ٧ ص: ٤٨٧ .

(٣) سنن أبي داود جـ ٢ / ٤٨٦ ، واخرجه النسائي جـ ٥ / ٢٦٤ والدارمي جـ ٢ / ٥٩ والترمذي جـ ٤ / ١٢٧

أو سنة او اجماع - واذا عرفت ذلك فاعلم أن بعض الناس من المتأخرين اجاز التقليد ولو كان فيه مخالفة نصوص الوحي كما ذكرنا

اقول وبالله التوفيق الذى يشير اليه الشيخ هنا قد صرح فى غير هذا الموضوع انه : الصاوى واضرابه - وعلق أكثر المقلدين للمذهب في هذا الزمان وازمان قبله - وبعض العلماء منع التقليد مطلقا وممن ذهب الى ذلك ابن خويز منداد من المالكيه (١) - والشوكاني في القول المفيد في ادلة الاجتهاد والتقليد - والتحقيق ان التقليد منه ما هو جائز ومنه ماليس . بجائز ومنه ما خالف فيه المتأخرون

---

(١) ابن خويز هو : منداد . اسمه : محمد ابوبكر بن خويز - وهو محمد ابن أحمد ابن عبدالله قال ابن فرحون ورايت على كتبه بخطه محمد بن احمد بن على بن اسحاق كنيته ابو عبدالله - تفقه على الأبهرى وله كتاب كبير فى الخلاف - وكتاب في أصول الفقه ، وكتاب فى أحكام القرآن ، وعنده شواذ عن مالك وله أختيارات كقوله فى اصول الفقه ان العبيد لا يدخلون فى خطاب الأحرار وان خبر الواحد يوجب العلم ، وفي بعض مسائل الفقه حكاية عن مالك في التيمم انه يرفع الحدث ولم يكن بالجيد النظر ولا قوى الفقه ، وقد قال فيه الباجي أبو الوليد : لم اسمع له في علماء العراق ذكرا كان يجانب الكلام وينافر اهله حتى يؤدى ذلك الى مناقرة أهل السنة ويحكم على الكل منهم بأنهم من أهل الأهواء الذين قال مالك فيهم ما قال ، الديباج المذهب ص : ٢٦٨ .

المتقدمين من الصحابة وغيرهم من الثلاثة المفضلة -

الفصل الثاني محرر العقل

ذكر أدلة التقليد واقسامه ؟

---

(١) اما التقليد الجائز الذى لا يكاد يخالف فيه احد من المسلمين فهو تقليد العامي عالما اهلا للفتيا في نازلة زلت به ، وهذا النوع من التقليد كان شائعا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا خلاف فيه فقد كان العامي يسأل من شاء من الصحابة عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه ، واذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابي الذى أفتاه أو لا بل يسأل عنها من شاء من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم - ثم يعمل بفتياه ، قال صاحب نشر البنود شرح مراقي السعود : رجوعه لغيره في آخر - يجوز للأجماع عند الأكثر يعني : ان العامي يجوز له عند الأكثر الرجوع الى قول غير المجتهد الذى - استفتاه أولا في حكم آخر لأجماع الصحابة رضي الله عنهم على انه يسوغ للعامي السؤال لكل عالم ، ولأن لكل مسألة حكم نفسها فكلما لم يتعين الأول للأتباع في المسألة الأولى الا بعد سؤاله ، فكذلك في المسأله الأخرى .

(٢) قاله الحطاب شارح مختصر خليل ، قال القرافي : انعقد الأجماع

---

(١) اضواء البيان جـ ٧ ص : ٤٨٧ .

(٢) هو محمد بن محمد الحطاب المكى بأبي عبد الله ولد بمكة ونشأ بها واخذ عن والده ر د ابن عبد الغفار . وقاضي المدنية محمد بن أحمد السخاوى وكان حافظا محققا توفي بطرابلس الغرب سنة ٩٥٤ هـ وكانت ولادته سنة ٩٠٢ هـ الفتح المبين في طبقات الاصوليين ٧٥/٣ والاعلام ٢٨٦/٧ ط ٣ .

على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجـــر
واجمع الصحابة على ان من استفتى ابا بكر وعمر وقلدهما فله ان يستفتى
ابا هريرة ومعاذ ابن جبل وغيرهما - ويعمل بقولهما بغير نكير فمن
ادعــا رفع هذين الاجماعين فعليه الدليل . نشر البنود ٢ /٣٠٤٨

أقول وبالله التوفيق : وماذكره القرافـــي مـــن

(١) انعقاد الاجماع صحيح كما لا يخفي ، وقال ابن القيم : فـــي
تفصيل القول في التقليد وتقسيمه له الى ثلاثه اقسام فقال : وانقسامه
الى ماحرم .

(٢) القول فيه والأفتاء به . والى ما يجب المصير اليه ، والى ما يسوغ
من غير ايجاب ، وذكر ان النوع الأول ينقسم الى ثلاثه اقســـام
احدها الاعراض عما انزل الله وعدم الألتفات اليه أكتفاء بتقليـــد
الآباء ، والثاني : تقليد من لا يعلم المقلد انه أهل لأن يوخـــذ
بقوله ، الثالث التقليد بعد قيام الدليل وظهور الحجة على خـــلاف
قول المقلد ، والفرق بين هذا وبين النوع الأول ان الأول قلـــد
قبل تمكنه من العلم والحجة . وهذا قلد بعد ظهور الحجه له فهو
أولى بالذم ومعصيته الله ورسوله صلى الله عليه وسلم - وقد ذم اللـــه
سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد .

(٣) فى غير موضع كما في قوله تعالى * واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله
قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولوكان أباؤهم لا يعقلون شيئا ولا -
يهتدون * .

---

(١) اعلام الموقعين حـ ٢ ص * ١٦٨ .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) سورة البقرة الآية :- ١٧ .

وقال جل ذكره ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها ﴾ .

(١) انا وجدنا آباءنا على أُمة وانا على آثارهم مقتدون قل ولو جئتكم بأهدى

(٢) مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ وقال تعالى ﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ .
وهذا في القرآن كثير لا يكاد يحصر - يذم الله من اعرض عما انزله وقنع بتقليد الآباء وهنا تسأل المؤلف فقال : (لماذا ذم الله من قلد الكفار والآباء الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، ولم يذم

(٣) من قلد العلماء المهتدين بل قد امر بقوله ﴿ فسألوا أهل الذكر ، وهم أهل العلم وذلك تقليد لهم ، وهذا امر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم ،

(٤) ثم تولى ابن القيم الاجابة هنا على هذا السؤال فقال : انه سبحانه ذم من اعرض عما انزله الى تقليد الآباء وهذا القدر من التقليد هو مما اتفق السلف والائمة الاربعة على ذمه وتحريمه واما تقليد من بذل جهده في اتباع ما انزل وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو اعلم منه فهذا محمود غير مذموم ، ومأجور صاحبه غيرمأزور وقال تعالى ﴿

---

(١) سورة الزخرف الآية : ٢٢

(٢) سورة المائدة الآية : ١٠٤

(٣) سورة النحل الآية ٤٣

(٤) اعلام الموقعين جـ ٢ ص : ١٦٨ .

(١) * ولا تقف ماليس لك به علم * والتقليد ليس بعلم باتفاق اهـل العلم وقال جل ذكره :

(٢) * وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله

(٣) ما لا تعلمون * وقال ايضا * اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء * فامر باتباع المنزل خاصة ، والمقلد ليس لـه علم ان هذا هو المنزل وان كان قد تبينت له الدلالة في خلاف قول من قلده ، فقد علم ان تقليده في خلافه اتباع لغيـر

(٤) المنزل . وقال تعالى * فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله ورسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا * .

(٥) فمنعنا سبحانه من الرد الى غيره - قال القرطبي بعد صرد الآيات التقليد ليس طريقا للعلم وتحت هذا البحث قال فيه مسائل الأولى قوله * واذا قيل لهم * يعني : كفار العرب ، قال ابن عباس نزلت في اليهود وقال الطبرى : الضمير في " لهم " عائد الى الناس في قوله * يايها الناس كلوا * وقيل هو عائد الى مـن " في قوله * ومن الناس من يتخذ من دون الله * الآية وقولـه * اتبعوا ما انزل الله * يعني : بالقول والعمل - والفيناه وجدنـا

---

(١) سورة الاسراء الآيه : ٣٦ .
(٢) سورة الاعراف الآيه : ٣٣ .
(٣) سورة الاعراف الآيه : ٣ .
(٤) سورة النساء الآيه . ٥٩ .
(٥) تفسير القرطبي جـ ٢ ص : ٢١٠ .

قال الشاعر :

فألفيته غير مستعتب ***** ولا ذاكر الله الا قليـــلا ....

(١) الثانية قوله * أو لو كان آباؤهم * الألف للأستفهام وفتحــــت الواو لأنها واو العطف عطفت جملة كلام على جمله لأن غاية الفساد في الا التزام ان يقولوا : نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون " فقروا على التزامهم هذا - اذ هي : حال أبائهم ، قال القرطبي قال : علماؤنا : وقوة الفاظ هذه الآية تعطى ابطال التقليد - ونظيرها

(٢) قوله تعالى * واذا قيل لهم تعالوا الى ماانزل الله والى الرسول - قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا * وهذه الآية والتى قبلها مرتبطتان بما قبلهما وذلك ان الله سبحانه اخبر عن جهالة العرب فيمـــــا تحكمت فيه بأرائها السفيهه فى البحيره - والسائبه - والوصيلـــة - فاحتجوا بأنه أمر وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم في ذلك وتركوا مـــا انزل الله على رسوله وامر به في دينه . فالضمير في لهم عائـــد عليهم في الآيتين جميعا - ثالثا تعلق قوم بهذه الآية في ذم - التقليد لذم الله تعالى الكفار بأتباعهم لأبائهم فى الباطل واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية . وهذا في الباطل صحيح اما التقليد فى الحق فاصل من أصول الدين وعصمة من عصم المسلمين يلجأ اليهـــا الجاهل المقصر عن درك النظر - واختلف العلماء في جوازه -

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢ ص : ٢١٠ ط دار الكتــب المصريه ١٣٧٣ .

(٢) الفخر الرازى جـ ٢ ص : ٨ .

فى مسائل الأصول - واما جوازه فى مسائل الفروع فصحيح الرابعة
ألتقليد عند العلماء حقيقته - قبول قول بلا حجة وعلى هذا فمن
قبل قول النبي صلى الله عليه وسلم من غير نظر فى معجزته يكون
مقلدا واما من نظر فيها فلا يكون مقلدا ، وقال الفخر الرازى فى
قوله تعالى * ومثل الذين كفرو كمثل الذى ينعق بما لا يسمع
الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون * اعلم انه تعالى لما
حكى عن الكفار انهم عند الدعاء الى اتباع ما انزل الله تركوا
التفكر والتدبر وأخلدوا الى التقليد ، وقالوا : * بل نتبع
ما الفينا عليه آباءنا * ضرب لهم هذا المثل .

(١) تنبيها للسامعين لهم انهم انما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك
الأصغاء وقله الأهتمام بالدين فصيرهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام
ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار ويحقر الى
الكافر نفسه اذا سمع ذلك فيكون كسر القلبه . وتضيقا لصدره
حيث صيره كالبهيمة فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه
عن ان يسلك مثل طريقه في التقليد - وفيه مسائل أيضا : نعق
الراعي بالغنم اذا صاح بها ، واما نعق الغراب فالغين المعجمة
وللعلماء فى هذه الآية طريقان أحدهما تصحيح المعنى بالأضمار
في الآية - والثاني اجراء الآية على ظاهرها من غير اضمار ، اما
الذين اضمروا فذكروا وجوها الأول وهو قول الأخفش والزجاج وابن
قتيبة ، كانه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا الى الحق كمثل
الذين ينعق فصار الناعق الذى هو : " الراعي " بمنزله الداعي

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص : ٨ .

الى الحق وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر الدعاه الى الحق
وصار الكافر بمنزلة الغنم المنعوق بها ووجه التشبيه ان البهيمة
تسمع الصوت ولا تفهم المراد وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول
صلى الله عليه وسلم والفاظه - وما كانوا ينتفعون بها ومعانيها -
لا جرم حصل وجه التشبيه ، الوجه الثاني : مثل الذين كفروا في
دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناعق في دعائه ما لا يسمع كالغنم
وما جرى مجراه والبهائم لا تنتفع ، فشبه الأصنام في انها لا تنتفع
بهذه البهائم فاذا كان لا شك ان من دعا بهيمة عد جاهلا فمن
دعا حجرا أولى بالذم والجهل والفرق بين هذا القول وما قبله ان
ها هنا المحذوف هو : المدعو ، وفي القول الذى قبله المحذوف
هو الداعي القول الثالث قال ابن زيد : مثل الذين كفروا في -
دعائهم آلهتهم كمثل الناعق في دعائه عند الجبل فانه لا يسمع
الا صدى صوته فاذا قال : يازيد يسمع من الصدى يازيد .

فكذلك هؤلاء الكفار اذا دعو هؤلاء الأوثان لا يسمعون الا ماتلفظوا به (١)
من الدعاء والنداء أقول بالله التوفيق .. بعد بحث طويل للموضوع
خلص الفخر : الى تساؤلات تتعلق بالمقلد فقال : " يقال للمقلد
هل أنت تعترف بأن شرط جواز تقليد الانسان ان يعلم كونه محقا
ام لا ؟ فان اعترفت بذلك لم تعلم جواز تقليده الا بعد ان تعرف
كونه محقا فكيف عرفت انه محق وان عرفته بتقليد آخر لزم التسلسل
وان عرفته بالعقل فذلك كاف فلا حاجة الى التقليد ، وان -

---

(١) الفخر الرازى حـ ٥ ص : ٦ ط الأولى .

قلت ليس من شرط جواز تقليده ان يعلم كونه محقا فاذن قد جوزت تقليده . وان كان مبطلا فاذا انت على تقليدك لاتعلم أنك محق أو مبطل ، واغلظ قوله في أخر بحثه بأنه يجب طلب العلم بالدليل لا بالتقليد ، وقال : انما ذكر الله جل هذه الآية عقب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيها على انه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد وفيه اقوى دليل على وجوب النظر ، والاستدلال وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل أو على ما يقوله الغير من غير دليل ، وقوله في الآية الكريمة * لايعقلون شيئا * لفظ عام ومعناه الخصوص .

(١) وقال صاحب تفسير المنار في قوله تعالى * واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله . قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا * أي واذا قيل لمتبعي خطوات الشيطان الذين يقولون على الله بغير علم ولا برهان . * اتبعوا ما انزل الله اليهم ولا تتبعوا من دونه أولياء * قالوا : لا . نحن لا نعرف ما انزل الله ، بل نتبع ما الفينا . أي وجدنا عليه آباءنا " وهو : ماتقلدناه من سادتنا وكبرائنا وشيوخ علمائنا فلم يخاطب هؤلاء ببطلان ما هم عليه وتشنيعه خطابا لهم بل حكى عنهم حكاية يبين فساد مذهبهم فيها كأنه انزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب ولا يعقل الحجج والدلائل كما بين ذلك بالتمثيل ــ ولو كان للمقلدين قلوب يفهمون بها لكانت .

---

(١) تفسير المنار جـ ٢ ص : ٩١ ط الثالثة .

(١) هذه الحكاية بأسلوبها لتنفيرهم من التقليد كافيه فانهم في كل ملة وجيل يرغبون عن اتباع ما انزل الله أستئناسا بما الفوه مما ألفوا آباءهم عليه وحسبك بهذا شناعه اذ العاقل لا يوثر على ما أنزل الله تقليدا حد من الناس وان كبر عقله وحسن سيره اذ ما من عاقل الا وهو : عرضة للخطأ في فكره وما من مهتد الا ويحتمل ان يضل في بعض سيره ، فلا فقه في الدين الا بما أنزل الله ولا معصوم الا من عصم الله ، فكيف يرغب العاقل عما انزل الله الى اتباع الآباء مع دعواه الأيمان بالتنزيل على انه لو لم يكن موءمنا بالوحي لوجب ان ينفره عن التقليد بقوله * اولو كان آباوءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون * قال وقال البيضاوي أي : لو كان آباوءهم جهلة لا يفكرون في أمر الدين ولا يهتدون الى الحق لا يتبعوهم - وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر او الاجتهاد ، واما اتباع الغير في الدين اذا علم بدليل ما أنه محق كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام فهو في الحقيقة ليس بتقليد بل اتباع لما أنزل اليه .

ونقله عنه الألوسي بغير عزو ووصله بأيه * فأسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون * وفيه انه لم يفرق في التقليد بين القطعي المعلوم من الدين بالضرورة وهو : لا يجوز التقليد فيه البته بل ... فاحكام القضاء وسياسه الأمة هذا هو الذى يشترط فيه القدره على النظر والاستدلال ولم يفرق بين اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن الله تعالى لمن قامت عنده الحجه على ثبوته فهو لا يكون الا محقا وبين المجتهد الذى لا يمكن العلم بأنه محق الا بالوقوف ..

---

(١) تفسير المنار جـ ٢ ص : ٩١ ط الثالثه .

ح ٥ سورة النحل الاية ٤٣

على دليله وفهمه وقوله تعالى ﴿ فسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون ﴾

في طلب السؤال عن امر قطعي معلوم بالضرورة وهو كون الرسل رجالا يوحي اليهم - لا عن رأى اجتهادى وقال الجلال وغيره :

لا يعقلون شيئا من أمور الدين ، وتعقبه الاستاذ الإمام بقوله :

عقل الشيء معرفته بدلائله وفهمه بأسبابه ونتائجه . (١)

وقال ابن جرير الطبرى : لا يعقلون شيئا من دين الله وفرائضه وامره ونهيه ، فيتبعوا على ماسلكوا . (٢) من طريق ويؤتم بهم في أفعالهم ، ولا يهتدون لرشد ، فيهتدى بهم غيرهم ويقتدى بهم من طلب الدين واراد الحق والصواب ، ويقول تعالى لهؤلاء ﴿ فكيف ايها الناس تتبعون - ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمركم به ربكم وأباؤكم لا يعقلون من امر دين الله شيئا . ولا هم مصيبون حقا ، ولا مدركون ، رشدا ، وانما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشيء المستعمل له في نفسه فاما الجاهل فلا يتبعه فيما هو به جاهل الا من لا عقل له ولا تمييز .

اقول وبالله التوفيق :

المقلد اعمى يقاد وليس لديه سلاح للمقاومة وهكذا

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢ ص : ٧٩ ط البابى الحلبي وأولاده

(٢) نفس المرجع السابق .

(١) مفهوم من تعريف القرطبي للتقليد حيث قال وهو : في اللغـة مأخوذ من قلاده البعير فان العرب تقول : قلدت البعير اذا جعلت في عنقه حبلا يقاد به فكأن المقلد يجعل امره كله لمن يقوده حيث شاء وكذلك قال الشاعر :

فلدو امركم لله دركم ثبت الجبـان ... بامر الحرب مضطلما .

وقد تقدم هذا البيت في تعريفي للتقليد .... وقال القرطبـي في اثناء كلامه على التقليد انه ليس طريقا للعلم ولا موصـلا لـه لا في الأصول ولا في الفـروع : وهـو قـول

(٢) جمهور العقلاء والعلماء خلافا لما يحكى عن جهال الحشويـة والتعليمية من انه طريق الى معرفة الحق وان ذلك هو : الواجب وان النظر والبحث حرام والاحتجاج عليهم في كتب الأصول ، قال ابن عطيـة : اجمعت الأمة على ابطال التقليد في العقائد وذكر فيه غيره خلافا كالقاضي ابي بكر بن العربي .

(٣) قال بعض الناس يجوز التقليد في امر التوحيد

---

(١) تفسير القرطبي حـ ٢ ص ٢١٠ ط دار الكتب المصرية .

(٢) الحشوية : هم قوم تمسكوا بالظاهر فذهبوا الى التجسيم وغيره وهم من الفرق الضلاله ، البرهان حـ ١ / ١١٧ .

(٣) ابو بكر بن العربي هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي المعافرى الأندلسي الاشبيلي الحافظ كنيته أبو بكر ويلقب بالقاضي كان اماما من ائمة المالكيه أقرب الى الأجتهاد من التقليد فقيها محدثا اوصوليا مفسرا ، ولد باشبيلية ٤٦٨ متوفي في مراكش وحمل ميتا الى فاس ، سنة ٥٤٣ هـ ودفن بباب المحروق من فاس ، الفتح المبين فى طبقات الأصوليين حـ ٢ ص ٢١ ط ٢ .

(١) وهو خطأ لقوله تعالى : * انا وجدنا أباءنا على أمة * الآية فذمهم على تقليدهم آباءهم وتركهم اتباع الرسل ولأنه فرض على كل مسلم تعلم امر التوحيد والقطع به .

(٢) وذلك لا يحصل الا من جهة الكتاب والسنة بإنهم مقلدون وهذا قال ابن دبياس : وقد اكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة انهم مقلدون وهذا خطأ منهم بل هو بهم اليق وبمذاهبهم اخلق اذ قبلوا قول ساداتهم

(٣) فكانوا داخلين فيمن ذمهم الله بقوله * ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * وقوله * انا وجدنا آباءنا على أمه وانا على آثارهم مقتدون * ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم " فانتقمنا منهم " الآية فبين سبحانه أن الهدى فيما جاءت به رسله وليس قول أهل الأثر في عقائدهم : انا وجدنا أئمتنا وآباءنا واطعنا سادتنا وكبراءنا بسبيل لأن هولاء نسبوا ذلك الى التنزيل والى متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم واولئك نسبوا افكهم الى أهل الأباطيل فازدادوا بذلك في التضليل الا ترى إن الله سبحانه .

(٤) أثنى على يوسف في القرآن حيث قال * انى تركت ملة قوم لا يوءمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة ابائى ابراهيم واسحاق ، ويعقوب ما كان لنا . الى قوله لا يشكرون

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٢ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٧ .
(٣) ~~سورة يوسف الآية~~ ٣٠ . الزخرف الآية ٢٣
(٤) سورة يوسف .

(١) ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ فلما كان آباؤه عليه الصلاة والسلام أنبياء متبعين للوحي وهو : الدين الخالص الذى ارتضاه الله .

(٢) كان اتباعه آباءه من صفات المدح ، قال الفخر الرازى : ان الله امرهم ان يتبعوا ما انزل من الدلائل الباهرة فهم قالوا : لا نتبع ذلك وانما نتبع آباءنا وأسلافنا .

(٣) فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد . واجاب الله عنهم بقوله ﴿ اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ الواو في " اولو " واو العطف دخلت عليها همزة الأستفهام للتوبيخ لأنها تقتضى الأقرار بشيء يكون الأقرار به فضيحة .

(٤) كما يقتضى الأخبار عن المستفهم عنه ؛ قال الأمام الغزالي بعد ان عرف التقليد بمثل ما قدمنا حيث قال : حاصل تعريف العلماء للتقليد منحصر في انه قبول القول بلا دليل لأنه قبول القول اذا بين دليله ليس بتقليد بل هو عمل بالدليل . أقول بالله التوفيق . معنى هذا الكلام منحصر في نقطتين : سبق الكلام عليهما بدون تفصيل وتفصل ذلك هنا أولا ان التقليد ليس طريقا للعلم ثانيا انه أي : التقليد - هو قبول القول بدون بيان الحجة ولا يؤدي الى اصل العلم ولا الى فروعه . ولا يؤدي الى معرفه .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢ ص ١١٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٦ ط الأولى .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) المستصفى للامام الغزالي ص ٥١٦ .

الحق يقول الغزالي : وما عثرت على من خالف في هذا غير طائفة قليلة وقد بينت ان هذه الطائفة هي : الحشوية والتعليمية وخلافهما غير معتبر ولا يعتد به اقول وبالله التوفيق على أية حال البحث عن الدليل مطلوب ونحن مأمورون بأن لا نقولوا حلالا ولا حراما الا بنص من كتاب او سنة حرم ذلك واحل ذلك . ثم بدأ الغزالي يبين اوجه بطلان قول الحشوية والتعليمية . فقال : بطلان قول هذه الطائفة من اوجه الأول هو ان صدق المقلد لا يعلم ضرورة فلا بد من دليل يعلم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم - بمعجزته وصدق كلام الله بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن صدقه - وصدق أهل الأجتماع بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن عصمتهم ومن واقع التعريف تدرك انه حيث لم تقم حجة ولم يعلم الصدق بضرورة ولا بدليل فالاتباع فيه اعتماد على الجهل - الوجه الثاني بألزامهم بالحجة بطريق الأستفسار فيقول لهم : أنتم تحيلون (١) الخطأ على مقلدكم أم تجوزونه فأن جوزتموه فأنكم شاكون في صحة مذهبكم وان أحلتموه فيم عرفتم استحالته بضرورة أم بنظر وبهذا السؤال وامثاله التي ستأتي ان شاء الله يصبح المقلد امام أمرين احلاهما مر - والاحتجاج بأتباع السواد الأعظم لا دليل فيه لأنه قبول قول بدليل كذلك قولهم ان الناظر متورط في شبهات وقد كثر ضلال الناظرين فترك الحظر وطلب السلامة أولى وقد أجاب المانعون على هذه الشبهة فقالوا :

---

(١) المستصفي جـ ٢ ص ٣٨٧ ط شركة الطباعة الفنية المتحدة .

وقد كثر ضلال المتقلدين من اليهود والنصارى - فيم تفرقون بين تقليدكم وتقليد سائر الكفار حيث قالوا " * انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون *

ثم نقول اذا وجبت المعرفة كان التقليد جهلا وضلالا فكانكم حملتم هذا خوفا من الوقوع في الشبهة كمن قتل نفسه جوعا وعطشا خيفة ان يغص بلقمة او يشرق بشربة لو أكل وشرب . وكالمريض يترك العلاج راسا خوفا من ان يخطئ في العلاج وكمن يترك التجارة والحراثة خوفا من نزول صاعقة فيختار الفقر خوفا من الفقر .

~~الشبهة الثانية~~

المحاورة بين الحشوية والمدعين للتقليد

تمسكهم بقوله تعالى * ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا * وانه نهي عن الجدال في القدر والنظر يفتح باب الجدال ، واجاب المانعون بان النهي عن الجدال بالباطل كما قال تعالى * وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق * بدليل قوله تعالى * وجادلهم بالتى هي أحسن * فاما القدر فنهاهم عن الجدال فيه ، اما لأنه كان قد وقفهم على الحق بالنص فمنعهم عن المجاراة في النص ، او كان في بدء الأسلام فاحترز عن أن يسمعه المخالف فيقول هؤلاء بعد لم تستقر قدمهم في الدين أو لأنهم كانوا مدفوعين الى الجهاد الذى هو أهم عندهم ، (١) ويعارض المانعون هؤلاء بقوله تعالى * ولا تقف ماليس لك به علم *

---

(١) المستصفى حـ ٢ ص ١٨ ٥ ط شركة الطباعة الفنية المتحدة .

ح = سورة غافر الآية ٤

٢ = سورة الإسراء الآية ٣٦

أ ـ وقوله تعالى ﴿ وان تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ وقوله جل ذكره ﴿ وما شهدنا الا بما علمنا ﴾ وقوله ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ هذا كله ـ ٢ ب ـ
نهي عن التقليد وأمر بالعلم ولذلك عظم شأن العلماء وقال تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقد ورد في الحديث .

(١) " يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل الجاهلين ، ولا يحصل هذا بالتقليد بل بالعلم اقول وبالله التوفيق .

---

(١) الحديث رواه ابن الصلاح في رحلته بجعل هذا العلم على انه فعل لم يسم فاعله ويقول من كل خلف عدوله " وللمعنى ان الخلف هو : العدولة بمعنى انه عادل كما يقال : شكور بمعنى : شاكر ويكون الهاء للمبالغة والمعنى ان العلم يحمل عن كل خلف كامل في عدالته ، والحديث ضعيف ، لأنه لا يعرف الا من طريق معان بن رفاعة ولا يعرف الا به وهو اما معضل او مرسل ، وان كان مرسلا فمن طريق ابراهيم بن عبد الرحمن وهو لا يعرف في غير هذا
واشهر طرقه عن معان بل كلها دائرة عليه ومعان بن رفاعة السلمي هذا ضعفه ابن معين وابو حاتم الرازي - والجوزجاني وابن حبان - وابن عدي - ووثقه علي بن المديني - والحديث ضعيف بل ذهب بعضهم - الى القول بوضعه - والله اعلم .

---

١ ـ سورة البقرة الآية ١٦٩
٢ ـ سورة يوسف الآية ٨١
٣ ـ سورة الانبياء الآية ٢٤

هذا الموقف امام التقليد صحيح ولاكن لا يدخل فيه العامي فليس أمامه سوى التقليد ولا سبيل له سواه وفتيا المقلد هي : سبيله وهي : أيضا دليله ولا نزاع في هذا حسب مارايت من النصوص المتعلقة بالموضوع والله اعلم .. قال الفخر الرازى في قوله تعالى ﴿ صم بكم عمى ﴾ الآية اعلم أنه تعالى لما شبههم بالبهائم زاد في تبكيتهم فقال " صم بكم عمي " لأنهم صاروا بمنزلة الصم فى ان الذى سمعوه كانهم لم يسمعوه - وبمنزلة البكم في ان لا يستجيبوا لما دعو اليه - وبمنزلة العمي من حيث أنهم أعرضوا عن الدلائل فصاروا كأنهم لم يشاهدوها - قال النحويون : صم أى : هم صم رفع على الالزام - اما قوله " فهم لا يعقلون " فالمراد العقل الاكتسابي لأن العقل المطبوع كان حاصلا لهم . والعقل عقلان (١) مطبوع ومسموع ولما كان طريق اكتساب العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثلاثة : فلما اعرضوا عنها فقد العقل المكتسب - ولهذا قيل : من فقد حسافقد علما . اقول وبالله التوفيق .. الكفار ومن على شاكلتهم ممن ترك الوحي واخذ بالأقول بلا دليل لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون " يعني : الى كيفيه اكتسابه نسأل الله التوفيق والعافية. (٢)

فالذين منعهم الاقتداء بأبائهم من قبول الاهتداء ، (٣)

---

(١) الفخر الرازى حـ ٥ : ٦ ، ٧ ، ٨ ط الأولى .
(٢) تفسير الفخر الرازى حـ ٥ — ٦ ، ٧ ، ٨ ط الأولى .
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر حـ ١ ص ١٠٩ .

قالوا * انا بما ارسلتم به كافرون * وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل * ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * وقال * اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وراوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال عز وجل عائبا لأهل الكفر وذاما لهم * ماهذه التماثيل التى انتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدون *

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والروساء وقد احتج العلماء .

(١) بهذه الآية في ذم التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهه كفر احدهما وايمان الآخر وانما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد كما لو قلدوا رجلا فكفر وقلد وا آخر فاذنب - وقلد آخر فى المسألة ديناه فاخطأ وجهها كأن كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وان اختلفت الآثام فيه .

(٢) وقال الله تعالى * وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون * قال الشيخ الأمين رضي الله عنه بعد سرده لأدلة كثيرة وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في هذا الباب وفى ثبوته ابطال التقليد أيضا .

(٣) فاذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التى يجب التسليم لها وهي : الكتاب والسنة اوما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك .

---

(١) ضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ج ٧ ص ٤٩١ .
(٢) سورة التوبة الآية ١١٥
(٣) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ج ٧ ص : ٤٩١ .

١ = سورة الزخرف الآية ٢٤
٢ = سورة الانفال الآية ٢٢
٣ = سورة البقرة الآية ١٦٦

(١) ثم ساق ابن عبد البر سنده الى ان قال : حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن ابيه عن جده قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول * اني لأخاف على امتى من بعدى من اعمال ثلاثة قال - وما هي : يارسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : " أخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر ، ومن هوى متبع * وبهذا الاسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال * تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله * هذا لفظ ابي عمر في جامعه ، اقول وبالله التوفيق بعد هذه النبذة التي تقدمت .

(٢) نبين نوع التقليد الذى خالف فيه المتأخرون الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير - وهو : تقليد رجل واحد معين دون غيره من جميع العلماء - فان هذا النوع من التقليد لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة ولم يقل به احد من اصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو : مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره .

----

(١) كثير بن عبد الله المذكور في هذا الأسناد ضعيف وابوه عبد الله مقبول ولكن المتنين المرويين بالأسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل على ان أصله صحيح .. وكثير هذا قال فيه ابن حجر : منهم من نسبه الى الكذب التقريب جـ ٢ ص ١٣٢ / د ت ق . ابن حجر العسقلاني

(٢) جامع بيان العلم وفضـ . جـ ١ ص ١٠٩ . ابن عبد البر

من جميع علماء المسلمين ، فتقليد العالم المعين من بدع القـــرن الرابع ومن يدعي خلاف ذلك فعليه الدليل بأن يعين لنا رجـــلا واحدا من القرون الثلاثة الأولى التزم مذهب رجل واحد بعينـــه ولن يستطيع ذلك ابدا لأنه لم يحصل - البتـــة .

ذكر جمل من كلام العلماء في فساد هذا النوع من التقليـــــد اعني : تقليد رجل واحد بعينه والتزام مذهبه وحجج القائليـــن بذلك ومناقشتها - وبعد ايضاح ذلك نبين ما يشهد له الدليـــل ونرجحه ان شاء الله .

(١) قال ابن عبد البر في كتابه : جامع بيان العلم وفضله وما ينبغـــي في روايته وحملة مانصه : باب فساد التقليد ونفيه والفرق بيـــن التقليد والاتباع - قد ذم الله التقليد في غير موضع من كتابـــه فقال * اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله * وروى عـــن حذيفة وغيره قالوا " لم تعبدوهم من دون الله ولكنهم احلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم " وقال عدى ابن حاتم : اتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب فقال لي " ياعدى .

(٢) الق هذا الوثن من عنقك - فانتهيت اليه وهو يقرأ "براءة" من الله ورسوله - حتى اتى على هذه الآية * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله * قال : قلت : يارسول الله انا لم نتخذهم اربابـــا من دون الله - قال : بلـــي

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر حـ ٢ ص ١٠٩ .
(٢) سورة " التوبة " الآية ٣١ المعجم المفهرس لا الفاظ القـرآن ص : ١٨ .

(٣) سنن الترمذي حـ ٩ / ٢٤١ والبيهقي السنن الكبرى ١١٦/١٠ والحديث له الفاظ متعددة

اليس يحلون ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه ، فقلت : بلى فقال : تلك عبادتهم . وقال : اما انهم لو امروهم ان يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكن آمروهم ، فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله.

(١) فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية . وهؤلاء - الذين اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله حيث اطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعا لرؤسائهم ، مع علمهم أنهم خالفوا دين الله فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله ، شركا - وان لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه انه خلاف للدين ، وأعتقد ما قاله

(٢) ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركا مثل هؤلاء ، الثاني ان يكون

اعتقادهم وايمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتا لكنهم أطاعوهم فى معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التى يعتقد أنها معاص ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام ان كان مجتهد اقصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه ولكن من علم ان هذا أخطأ فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٨٦ .

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٨٧ .

ثم تبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول . فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله ، لا سيما ان اتبع فى ذلك هواه ونصره باليد واللسان مع علمه انه مخالف للرسول صلى الله عليه وسلم فهذا : شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه وهذا اتفق العلماء على انه اذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه ، وانما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال ، وأن كان عاجزا عن اظهار الحق الذى يعلمه فهذا يكون كمن عرف ان دين الاسلام حق وهو بين النصارى ، فاذا فعل ما يقدر عليه من الحق لم يواخذ بما عجز عنه . وهؤلاء كالنجاشي وغيره وقد أنزل الله .

(١) في هؤلاء الآيات من كتاب الله كقوله * وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم * وقوله تعالى * واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول .

(٢) ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق * الآية وقوله * ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون .

(٣) * واما ان كان المتبع للمجتهد عاجزا من معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يواخذ ان أخطأ كما في القبلة وأما من قلد شخصا دون نظيره بمجرد هواه ونصره بيده ولسانه من غير علم ان معه

---

(١) السورة ٣ الآية ١٩٩ آل عمران

(٢) السورة ٥ الآية ٨٣ المائدة ٨٣

(٣) السورة ٧ الآية ١٥٩ الاعراف

(١) الحق فهذا من اهل الجاهليه وان كان متبوعه مصيبا لم يكن عمله صالحا وان كان متبوعه مخطئا كان اثما كمن قال في القرآن برأيه فان أصاب فقد أخطأ وان أخطأ فليتوأ مقعده من النار وهوءلاء من جنس مانعي الزكاة الذى تقدم فيه الوعيد - ومن جنس عبدة الدينار والدراهم والقطيفة والخميصة الدين ورد ذمهم في النص - الصحيح فان ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبد اله وكذلك هوءلاء فيكون فيهم شرك أصغر ولهم من الوعيد بحسب ذلك -

(٢) قال ابن جرير في معنى قوله تعالى ﴿ وتجعلون له أندادا ﴾ أى وتجعلون لمن خلق ذلك أندادا وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معاص الله .

(٣) قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ... الآية ﴾ يذكر الله حال المشركين به في الدنيا ومالهم في الدار الأخره ، حيث جعلوالله اندادا ، اى : أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه : لا اله الا هو ، ولا ضد له ، ولا ند له ، ولا شريك معه ، وفي الصحيحين عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت :يارسول الله أى : الذنوب اعظم ؟ قال : ان تجعل لله ندا وهو خلقك

أقول بالله التوفيق فيما تقدم من النصوص رابنا من خلا لهما أى :

---

(١) تفسير كتاب التوحيد ص ٨٧ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص : ٩٢ .

سورة فصلت الآية ٩

انظر صحيح البخاري جـ ٢/ ١٥١ ط دار المعرفة بيروت

انظر البخاري مع فتح الباري جـ ١٢/ ٤٩١

الكتاب ، والسنة قوة ارتباط التقليد بالطاعة العمياء وكيف يجر ذلك الى العبادة والشرك وتعظيم المخلوقين وجعلهم في منزلة لا تصلح ولا تليق بهم ـ وهم يبرون من ضل بهم الى تلك المنزلة ﴿ اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأو العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ كما اثارابنا كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدى " اجعلتني لله ندا " وسبب ذلك القول هو : التعظيم بلا شك والله أعلم وهنا يدرك ان العبد لا يكون موءمنا حقا حتى يتبع ما انزل الله وقد قال تعالى ﴿ أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ (١) ولا وليجة أكبر من أن يجعل الانسان رجلا بعينه مختارا على كلام الله وكلام رسوله وكلام سائر الائمة يقدمه على ذلك كله ويعرض الكتاب الله وسنه رسوله واجماع الائمة على كلامة فما وافقة منها قبله لموافقته لقوله ﴿ وما خالفه منها تلطف في رده وتطلب له وجوه الحيل فان لم تكن هذه وليجة فلا ندرى ما الوليجة ؟ وقال تعالى ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا ﴾ وقالوا ربنا أنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا ﴾ (٢) وهذا نص في بطلان التقليد ـ قال ابو عمرو بن الصلاح : قطع ابو عبد الله (٣)

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٤ - ٦٧ .

(٣) اعلام الموقعين حـ ٤ ص : ٢٤٩ .

١- البقرة الآية ١٦٦

الحلمي امام الشافعين بما وراء النهر - والقاضي ابو المحاسن - الروياني صاحب بحر المذهب وغيرهما بانه لا يجوز للمقلد أن يفتي بما هو مقلد فيه ، وذكر الشيخ ابو محمد الجويني في شرحه لرسالة الشافعي عن شيخه ابي بكر القفال المروزي انه يجوز لمن حفظ كلام صاحب مذهب ونصوصه ان يفتي به وان لم يكن عارفا بغوامضه وحقائقه وخالفه الشيخ ابو محمد وقال : لا يجوز ان يفتي بمذهب غيره اذا لم يكن متبحرا فيه عالما بغوامضه وحقائقه كما لا يجوز للعامي الذى جمع فتاوى المفتين ان يفتي بها واذا كان متبحرا فيه جاز ان يفتي به - وقال ابو عمرو : من قال لا يجوز له ان يفتى بذلك

(١) معناه : لا يذكره في صورة ما يقوله من عند نفسه بل يضيفه الى غيره ويحكيه عن امامه الذي قلده ، فعلى هذا من عددناه في اصناف المفتين المقلدين ليسوا على الحقيقه من المفتين ولكنهم ، قاموا مقام المفتين قال ابن القيم ما ذكره ابو عمرو حسن الا أن - صاحب هذه المرتبة يحرم عليه ان يقول : مذهب الشافعي كذا لما لا يعلم نصه الذى أفتى به ، أو يكون شهرته بين أهل المذهب شهرة لا يحتاج معها الى الوقوف على نصه كشهرة مذهبه في الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر - ووجوب تبيت النية للصوم في الفرض من الليل ، ونحو ذلك فاما مجرد ما يجد في كتب من انتسب الى مذهبه من الفروع فلا يسعه ان يضيفها الى نصه ومذهبه بمجرد وجودها في كتبهم ، فكم فيها من مسألة اختلف

---

(١) إعلام الموقعين جـ ٤ ص : ٢٥٠ - ٢٥١ .

المنتسبون اليه في اضافتها الى مقتضي نصه ومذهبه . فهذا يضيف الى مذهبه اثباتها وهذا يضيف اليه نفيها - قال ابن عبد البـــر فلا ندرى كيف يسع المفتى عند الله ان يقول : هذا مذهب الشافعي وهذا مذهب مالك - وأحمد - وأبو حنيفه - واستبعد ابن القيم علي ابى عمرو قوله : " ان لهذا المفتي ان يقول : هذا مقتضي مذهب الشافعي مثلا - فلعمر الله لا يقبل ذلك من كل من نصب نفســه للفتيا ، حتى يكون عالما بمأخذ صاحب المذهب ومداركه وقواعده ، جمعا وفرعا ، ويعلم ان ذلك الحكم مطابق لأصوله وقواعده بعــد استفراغ وسعة في معرفة ذلك فيما اذا اخبر ان هذا مقتضي مذهبه كان له حكم أمثاله ممن قال بمبلغ علمه ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها وبالجملة . فالمفتي مخبر عن الحكم الشرعي وهو : اما مخبر عمـــا فهمه عن الله ورسوله ، واما مخبر عما فهمه من كتابه أو نصوص مــن قلدة دينه ، وهذا لون - وهذا لون . فكما لا يسع الأول ان ، يخبر عن الله ورسوله الا بما علمه ، فكذا لا يسع الثاني ان يخبـــر عن امامه الذى قلده دينه الا بما يعلمه وبالله التوفيق .

(١) حاصل جميع حجج المقلدين منحصر في قولهم . نحن معاشر المقلدين

(٢) ممتثلون قول الله ﴿ فسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ فامـــر سبحانه من لا علم له ان يسأل من هو اعلم منه ، وهذا نص قولنا وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم من لا يعلم الى سوءال من يعلم .

---

(١) أضواء البيان في ايضاح تفسير القرآن بالقرآن حـ ٧ ص ٥٠٠ .

(٢) سورة النحل الآية ٤٣ المعجم الفهرس لالفاظ القرآن الكريم ص ٦٣٥

فقال في حديث صاحب الشجة * الا سألوا اذا لم يعلموا انما شفاء العي السؤال * وقال أبو العسيف الذى زنى بامرأة مستأ جره " وانى سألت أهل العلم فاخبروني ان على ابني جلد مائه وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد اهل العلم *

وهذا عالم الأرض عمر بن الخطاب قد قلد أبا بكر ، فروى شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي ان أبا بكر قال في الكلالة . أقضي فيها فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله منه برئ : وهو مادون الولد والولاد ، فقال عمر بن الخطاب - انني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر وصح عنه انه قال : رأينا لرأيك تبع وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر ، وقال الشعبي عن مسروق كان ستة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يفتون الناس وهم : ابن مسعود - وعمر بن الخطاب - وعلي - وزيد بن ثابت - وأبي بن كعب - وابو موسى - وكان ثلاثه منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة كان عبد الله يدع قوله لقول عمر - وكان ابو موسى يدع قوله لقول علي - وكان زيد يدع قوله لقول ابي بن كعب وقد قال صلى الله عليه وسلم * ان معاذا قد سن لكم سنة فكذلك فافعلوا " في شأن الصلاة حيث اخرها فصلي ما فاته من الصلاة مع الأمام بعد الفراغ . وكانوا يصلون ما فاتهم اولا ثم يدخلون مع الامام - قال المقلدة : وقد امر الله بطاعته وطاعة

(١) رسوله صلى الله عليه وسلم واولى الأمر وهم العلماء أو العلماء والأمراء وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به فانه لولا ..

---

(١) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن جـ ٧ ص ٥٠٠ .

٣ - الحديث في البخاري جـ ٢/ ١١٨ ومسلم جـ ٥/ ١٢١

٤ - سنن ابي داود جـ ١/ ٩٣ باب في المجروح يتيمم

ا - اعلام الموقعين ٢/ ٢٨٨

(١) التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم وقال تعالى * والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه * وتقليدهم اتباع لهم ففاعله ممن رضي الله عنهم وقد قال عبد الله بن مسعود " من كان مستنا فليستن بمن قد مات فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة " اولئك أصحاب محمد ابر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوما أختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم واقامة دينه فأعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم - وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم

١ - انه قال * عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى

٢ - وقال * اقتدوا بالذين من بعدى أبي بكر وعمر * واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن ام عبد * .

(٢) وقد كتب عمر الى شريح القاضي أقض بما في كتاب الله فان لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما قضى به الصالحون وقد منع عمر من بيع أمهات الأولاد وتبعه الصحابة والزم بـ الطلاق الثلاث فتبعوه ايضا - واحتلم مرة فقال لعمرو بن العاص خذ ثوبا غير ثوبك .

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ١٠٠ المعجم لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٤١ .

(٢) شريح هو : ابن عبد الله النخعي الكوفي ، القاضي بواسط ثم الكوفة - ابو عبد الله صدوق يخطئ كثيرا تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة - وكان عادلا فاضلا عابدا - شديدا على أهل البدع - من الثامنة - مات سنة سبع أو ثمان وسبعين / خت م ع - التهذيب ج ١ ص ٣٥١ .

١ - مختصر المنذري للسنن ابي داود مع معالم السنن ج ٧ / ١١ وابو داود ج ٢ / ٢٦١

٢ - فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٢ / ٥٦ واخرجه ابن ماجه ج ١ / ٥٦

٣ - سنن الكبرى للبيهقي ج ١٠ / ١١٥

(١) فقال : لو فعلتها صارت سنة . وقال أبي بن كعب وغيره من الصحابة ما استبان لك فاعمل به وما اشتبه عليك فكله الى عالمه ، وقد كان الصحابة يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، وهذا تقليد لهم قطعا اذ قولهم لا يكون حجة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم - وقد قال تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ﴾ (٢) فاوجب عليهم قبول ما انذروهم به اذا رجعوا اليهم وهذا تقليد منهم للعلماء وصح عن ابن الزبير انه سئل عن الجد والأخوة فقال : أما الذى قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم - لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذته خليلا فانه أنزله ابد . وهذا ظاهر في تقليد له وجاءت الشريعة بقبول قول القائف والخارص والقاسم والمقوم للمتلفات وغيرها ... والحاكمون بالمثل في جزاء الصيد وذلك تقليد - محض واجمعت الأمة على قبول قول المترجم - والرسول - والمعدل - والمعرف وان اختلفوا في جواز الاكتفاء بواحد ، وذلك تقليد محض لهؤلاء واجمعوا على جواز شراء اللحم - والثياب - والطعام من غير سؤال عن اسباب حلها وتحريمها اكتفاء بتقليد اربابها ولو كلف الناس كلهم الأجتهاد وان يكونوا علماء فضلاء لضاعت مصالح العباد وتعطلت الصنائع والمتاجر وكان الناس كلهم مجتهدين - وهذا مما لا سبيل اليه شرعا والقدر قد منع من وقوعه وقد اجمع الناس على تقليد .

---

(١) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن حـ ٧ .

(٢) السورة التوبة الآية ١٢٢ .

٣ = اعلام الموقعين حـ ٢/ ٢٣١

٤ = نفس المصدر حـ ٢/ ٢٣٢

١ = الزوج للنساء اللاتي يهدين اليه زوجته وجواز وطئها تقليداً لهن
٢ = في كونها هي : زوجته - وأجمعوا على أن الأعمى يقلد في القبلة
وعلى تقليد الأئمة في الطهارة وقراءة الفاتحة وما يصح به الاقتداء
وعلى تقليد الزوجة .

(١) مسلمة كانت او ذمية ان حيضها قد انقطع فيباح للزوج وطؤها -
بالتقليد ويباح للولي تزويجها بالتقليد في انقضاء عدتها وعلى جواز
تقليد الناس للمؤذن في دخول الوقت ولا يجب عليهم الاجتهاد
ومعرفة ذلك بالدليل وقد قالت .

(٢) الأمة السوداء لعقبة بن الحارث ارضعتك وأرضعت امراتك فامره صلى الله
٤ = عليه وسلم بفراقها ، وتقليدها فيما اخبرت به من ذلك ، وقد صرح
الأئمة بجواز التقليد فقال حفص بن غياث :

(٣) سمعت سفيان يقول اذا ارايت الرجل يعمل العمل الذى

---

(١) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ج٧ ص ٥٠٤ .
(٢) عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف النوفلي المكي صحابي - من مسلمة الفتح - بقي الى بعد الخمسين / خ - د ، ت - س التقريب ج ٢ ص ٢٦ .
(٣) حفص بن غياث : بمعجمه مكسورة وياء و مثلثة - ابن طلق بن معاوية النخعي ابو عمر الكوفي القاضي - ثقة فقيه - تغير حفظه قليلا في الآخر - من الثامنة - مات سنة اربع ، أو خمس وتسعين وقد قارب الثمانين / ع - التقريب ج ١ ص : ١٨٩ .

١ = اعلام الموقعين ج ٢ / ٢٧٨
٢ = نفس المصدر السابق
٣ = المصدر ج ٢ / ٢٧٨

١ = قد أختلف فيه وانت ترى تحريمة فلا تنهه ، وقال محمد بن الحسين يجوز للعالم تقليد من هو اعلم منه ولا يجوز له تقليد من هو مثله

٢ = وقد صرح الشافعي بالتقليد . فقال : في الضبع : بعير قلته تقليد العمر - وقال في مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب : قلته تقليد العثمان - وقال في مسألة الجد مع الأخوة انه يقاسمهم ثم قال : وانما قلت بقول زيد وعنه قبلنا اكثر الفرائض : وقال في موضع آخر من كتابة الجديد : قلته تقليدا لعطاء - وهذا ابو حنيفة رحمه الله .

(١) قال في مسألة الآبار ليس معه فيها الا تقليد من تقدمه من التابعين وهذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة ويصرح في موطئه بأنه أدرك العمل على هذا وهو الذى عليه أهل العلم ببلدنا ويقول في غير موضع : مارأيت احدا اقتدى به يفعله . ولو جمعنا ذلك من كلامه لطال -

٣ = وقد قال الشافعي في الصحابة : رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا ، وقد جعل الله سبحانه في فطر العباد تقليد المتعلمين للأستاذين والمعلمين ولا تقوم مصلحة الخلق الا بهذا وذلك عام في كل علم وصناعة وقد فاوت الله سبحانه بين قوى الأبدان كما فاوت بين الأذهان فلا يحسن في حكمته وعدله ورحمته ان يفرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله ولو كان كذلك لتساوت أقدام الخلائق في كونهم علماء - بل جعل الله سبحانه وتعالى هذا عالما - وهذا متعلما ، وهذا متبعا للعام موئتما به بمنزلة

---

(١) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ﺟ ٧ ص ٥٠٩ .

١ = اعلام الموقعين ج ٢ / ٢٩

٢ = نفس المصدر السابق

٣ =

المأموم مع الإمام والتابع مع المتبوع ، وأين حرم الله سبحانه - على الجاهل أن يكون متبعا للعالم مؤتما به - مقلدا له يسير سيره وينزل بنزوله وقد علم الله سبحانه ان النوازل والحوادث كل وقت نازلة بالخلق فهل فرض على كل منهم فرض عين ان ياخذ - حكم نازلته من الأدلة الشرعية بشروطها ولوازمها ، وهل ذلك في امكان احد فضلا عن كونه مشروعا ؟ وهؤلاء اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فتحوا البلاد وكان الحديث العهد بالاسلام يسألهم فيفتونه ولا يقولون عليك ان تطلب الدليل ومعرفة الحق في هذه الفتوى ولا يعرف ذلك عن احد منهم البتة - وهل التقليد الا من لوازم التكليف ولوازم الوجود ؟ فهو من لوازم الشرع والقدر ، والمنكرون له ، مضطرون اليه ولا بد وذلك فيما تقدم بيانه من الأحكام وغيرها .

وتقول لمن يحتج على بطلانه : كل حجة أثرية ذكرتها فا أنت مقلد لحملتها ورواتها ...

(١) اذا لم يقم دليل قطعي على صدقهم فليس بيدك الا صدق الراوي وليس بيد الحاكم الا تقليد الشاهد وكذلك ليس بيد العامي الا تقليد العالم ، فما الذي سوغ لك تقليد الراوي والشاهد ومنعنا من تقليد العالم وهذا سمع بأذنه ما رواه . وهذا عقل بقلبه ما سمعه فادى هذا مسموعه ، وادى هذا معقوله ، وفرض على هذا تأديه ما سمعه وعلى هذا تأدية ما عقله وعلى من لم يبلغ منزلتهما القبول منهما ثم يقال للمانعين من التقليد انتم منعتموه خشية وقوع المقلد في الخطأ ، بأن يكون مقلده مخطأ في فتواه ، ثم اوجبتم عليه النظر والاستدلال -

---

(١) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن جـ ٧ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

في طلب الحق ، ولا ريب ان صوابه في تقليده للعالم أقرب ، من صوابه في اجتهاده هو لنفسه ، وهذا كمن اراد شراء سلعة لاخبرة له بها فانه اذا قلد عالما بتلك السلعة خبيرا بها أمينا ناصحا كان صوابه وحصول غرضه أقرب من اجتهاده لنفسه ، وهذا متفق عليه بين العقلاء هذا هو غاية ما يحتج به المقلدون . وقد ذكره ابن القيم رحمه الله في اعلام الموقعين وبين فساده من واحد وثمانين وجها اقول وبالله التوفيق قد بحثت الكثير من امر التقليد حين بدأت بتعريفه عند العلماء وارجو ان اكون - ذكرت عنه ما فيه الكفاية لطالب الحق غير المتعنت والآن نبين بعض النقط التى أثارها ابن القيم حين ..

(١) شرع في بيان ابطال حجج المقلدين فقال رحمه الله : عجبا لكم معاشر المقلدين الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله ولا معدودين في زمرة أهله كيف ابطلتم مذهبكم - بنفس دليلكم . فما للمقلد وما للأستدلال ؟ واين منصب المقلد من منصب المستدل ، وهل ما ذكرتم من الأدلة الا ثيابا - استعرتموها من صاحب الحجة ، فتجملتم بها ، بين الناس ، وكنتم في ذلك متشبعين بما لم تعطوه ...

(٢) ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم انكم لم تؤتوه ، وذلك ثوب زور لبستموه ، ومنصب لستم من أهله غصبتموه ، فأخبرونا هل صرتم الى التقليد لدليل قادكم اليه - وبرهان دلكم عليه فنزلتم به من ..

---

(١) اعلام الموقعين ٢٠٠/٨ ح١
(٢) نفس المرجع السابق جـ ٧ ص : ٥٠٨ .

الاستدلال أقرب منزل وكنتم به عن التقليد بمعزل ام سلكتم سبيله اتفاقا ، وتخمينا من غير دليل - وليس الى خروجكم عن احد هذين القسمين ، سبيل وايهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم والرجوع الى مذهب الحجة منه لازم ، ونحن ان خاطبناكم
بلسان الحجة ، قلتم لسنا من أهل هذه السبيل ، وان خاطبناكم بحكم التقليد . فلا معنى لما اقمتموه من دليل والعجب أن كل طائفة من الطوائف وكل امة من الأمم تدعى انها على حق حاشا فرقة التقليد ، فانهم لا يدعون ذلك ولو ادعوه لكانوا مبطلين فانهم شاهدون - على انفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الأقوال لدليل قادهم اليها وبرهان دلهم عليها وانما سبيلهم محض التقليد - والمقلد لا يعرف الحق من الباطل - واعجب من هذا ان أيمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم وقالوا : نحن على مذاهبهم وقد دانوا بخلافهم في أصل المذهب الذى بنوا عليه ، فانهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم اذا ظهر الدليل ان يتركوا أقوالهم ويتبعوه فخالفوهم في ذلك كله ، وقالوا : نحن من اتباعهم ، تلك أمانيهم وما أتباعهم الا من سلك سبيلهم واقتفى آثارهم في اصولهم وفروعهم ، واعجب من هذا انهم مصرحون في كتبهم ببطلان التقليد وتحريمه وانه لا يحل القول به في دين الله ولو اشترط الامام على الحاكم ان يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولا توليته ، ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط وكذلك المفتي يحرم عليه الافتاء بما لا يعلم صحته باتفاق - الناس والمقلد لاعلم له بصحة القول وفساده اذ طريق ذلك مسدودة عليه . ثم كل منهم يعلم انه مقلد لمتبوعه لا يفارق قوله ويترك له . .

(١) ما خالفه من كتاب أو سنة أو قول صاحب ، او قول من هو أعلم من متبوعه او نظيره وهذا من اعجب العجب ، وأيضا ما نا تعلم ، بالضرورة انه لم يكن في عصر الصحابه رجل واحدا اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع اقواله ، فلم يسقط منها شيئاً وأسقط اقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا ونعلم بالضروره ان هذا لم يكن في عصر التابعين ، ولا تابع التابعين فليكذبنا المقلدون برجل واحد ، سلك سبيلهم ـ الوخيمة ، في القرون الفضيله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه صلى الله عليه وسلم ، فالمقلدون لمتبوعيهم في جميع ما قالوه يبيحون به الفروج الدما ء والأموال ويحرمونها ـ ولا يدرون أذلك صواب ام خطأ على خطر عظيم ، ولهم بين يدي الله موقف شديد يعلم فيه من قال على الله مالم يعلم انه لم يكن على شيء ...

(٢) محل الغرض منه بلفظه ـ قال الشيخ الأمين : وعلى كل حال فانتم أيها المقلدون : تقلدون انه لا يجوز العمل بالوحي الا لخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الأستدلال على التقليد بآية ﴿ فسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون ﴾ وآية ﴿ فلولا نفر من كل فرقه منهم طائفة ﴾ الاية هل رجعتم عن قولكم بأن الأستدلال بالوحي لا يجوز لغير المجتهد أو ارتكبتم ما تعتقدون انه حرام من استدلالكم بالقرآن مع شدة بعدكم من رتبة الأجتهاد ، وفي هذا رد اجمالى لجميع ما أستدللتم به على التقليد الذي انتم عليه ثم يقال اليست هذه ..

---

(١) اعلام الموقعين ..

(٢) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن جـ ٧ ص ٥٠٩ ، ٥١٠

الآيات التى استدللتم بها في زعمكم من ظواهر الكتاب التى سن لكم الصاوى وأمثاله ان العمل بها من اصول الكفر فانه لم يستثن شيئا من ظواهر الكتاب يكون العمل به ليس من أصول الكفر فلم تجرأتـــم على شيء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم الاستدلال بالقرآن مع أنه لا يجوز عندكم الا للمجتهدين .

. . . .

رد استدلال المقلدين بايجاز

(١) اما استدلالهم بقوله تعالى ﴿ فسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ فهو استدلال في غير محله . فان الايه لاتدل على هذا النوع من التقليد الأعمى الذى هم عليه من التزام جميع اقوال رجل واحد وترك جميع ما سواها ، ولا شك ان المراد بأهل الذكر أهل الوحي الذين يعلمون ما جاء من عند الله كعلماء الكتاب والسنة ، فقد امروا ان يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذى هو الوحي ومن سأل عن الوحي وأعلم به وبين له كان عمله به اتباعا للوحي لا تقليدا واتباع الوحي لا نزاع في صحته . وان كانت الاية تدل على نوع تقليد في الجملة فهي لا تدل الا على التقليد الذى قدمنا انه لا خلاف فيه بين المسلمين ، وهو تقليد العامي الذى تنزل به النازلة عالما من العلماء وعمله بما أفتاه به من غير التزام منه لجميع ما يقوله ذلك العالم ولا تركه لجميع ما يقوله غيره ، واما استدلالهم بالحديث الوارد في الرجل الذى اصابته شجة في رأسه ثم أحتلم فسأل اصحابه :هل يعلمون له رخصة في التيمم ؟ فقالوا : ما نرى لك رخصة وأنت قادر على الماء فاغتسل فمات . فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال : ﴿ قتلوه قتلهم الله الا سألوا اذ لم يعلموا ؟ فانما شفاء العي السؤال ﴾ فهو استدلال أيضا في غير محله ، وهو حجة أيضا على المقلدين لا لهم ..

(٢) قال في اعلام الموقعين في بيان وجه ذلك ما نصه : ان النبي صلى الله

---

(١) المصدر السابق حـ ٧ ص ٥١١ .

(٢) اعلام الموقعين حـ ٢ ص ٢١٥ .

عليه وسلم انما ارشد المستفتين كصاحب الشجه بالسوءال عن حكمه وسنته فقال * قتلوه قتلهم الله ، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم . وفي هذا تحريم الأفتاء بالتقليد ـ فانه ليس علما باتفاق الناس ، فانما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاعله ، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم ـ فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم وكذلك سوءال أبى العسيف الذى زنى بأمراه مستاجره ، لأهل العلم ،

فانه لما أخبروه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في البكر الزاني أقره على ذلك ولم ينكره ، فلم يكن سوءالهم عن رأيهم ومذاهبهم ـ وأما استدلالهم بأن عمر قال في الكلاله : انى لأستحي من الله أن اخالف أبا بكر ، وان ذلك تقليد منه له فلا حجة لهم فيه أيضا ، وخلاف عمر لابى بكر رضي الله عنهما اشهر من ان يذكر. (١) كما خالفة في سبى أهل الردة فسباهم ابوبكر وخالفة عمر . وبلغ خلافة الى ان ردهن حرائر الى أهلهن الا لمن ولدت لسيدها منهن ونقض حكمه ومن جملتهن :

(٢) خولة الحنفيه ام محمد بن علي وخالفة في ارض العنوة فقسمها ابوبكر ووفقها عمر وخالفة في المفاضله في العطاء فرأى أبوبكر التسويه ورأى عمر المفاضلة وخالفة في الاستخلاف فاستخلف ابوبكر عمر على المسلمين ولم يستخلف عليهم عمر احداً ايثارا لفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فضل ابى بكر رضي الله عنه ، وخالفه في الجد والأخوة ، مع ان خلاف ابي بكر الذى استحي منه عمر هو خلافه في قوله * ان يكن صوابا فمن الله

---

(١) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن جـ٧ ص ص ٥١١ ، ٥١٢

(٢) اعلام الموقعين جـ ٢ ص ٢١٩ .

وان يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء ، هو : مادون - الولد والوالد فاستحيى عمر من مخالفة ابي بكر في اعترافه بجواز الخطأ عليه وأنه ليس كلامه كله صوابا مأمونا عليه الخطأ ويدل على ذلك ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقر عند موته انه لم يقض في الكلالة

(١) بشيء وقد اعترف انه لم يفهمها قاله في أعلام الموقعين ، ومن العجب أستدلال المقلدين على تقليدهم ، باستحياء : عمر من مخالفة ابي بكر مع انهم لم يستحيوا من مخالفة ابي بكر وعمر ، وجميع الصحابة ومخالفة الكتاب والسنة اذا كان ذلك لا يوافق مذهب امامهم كما هو معلوم من عادتهم ، وكما أوضحه الصاوي في الكلام الذي قدمناه على قوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ﴾ فقد قال الصاوي : ان من خرج من المذاهب

(٢) الأربعة فهو ضال مضل ولو وافق الصحابة والحديث الصحيح والآية

(٣) وربما اداه ذلك الى الكفر لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنه من أصول الكفر فمن هذا مذهبه ودينه وكيف يقول باستحياء عمر من مخالفة ابي بكر بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحي ، أو قول احد من : اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ان ابا بكر خليفة راشدا امر النبي صلى الله عليه وسلم بالاقتداء به في قوله ﴿ عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ﴾ الحديث - فليس الاقتداء بالخلفاء كالاقتداء بغيرهم اما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لابي بكر رضي الله

---

(١) اعلام الموقعين جـ ٢ ص ٢١٩ .
(٢) تفسير الصاوي جـ ٣ / ٨ / ١٥ -
(٣) نفس المصدر السابق جـ ٧ ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

١ - سورة الكهف ٢٣
٢ - انظر ص ٤٢ التعليق ١

عنهما : راينا لرأيك تبع .. فيكفي في رده ما قدمنا قريبا ، من مخالفة عمر لابى بكر ، مع أن القصة التى قال فيها : راينا لرايك تبع ، رد فيها على ابى بكر بعض ما قاله ، وايد الصحابه ماقاله عمر فى رده على ابى بكر رضى الله عنهما ، لأن الحديث المذكور في وقد بزاخه من أسد وغطفان حين قدموا على ابى بكر يسألونه الصلح فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية . فقالوا : هذه المجلية قد عرفناها . فما المخزية ؟ قال : تنزع عنكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا لكم وترد ون لنا ما أصبتم منا ،، وتد ون لنا قتلانا ، الى آخر كلامه وفيه فقام عمر بن الخطاب فقال : قد رأيت رأيا سنشير عليك ، أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزيه فنعم ما ذكرت .. وما ذكرت من ان تدون قتلانا وتكون قتلاكم في انار ، فان قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله ليس لها ديات ، فتتابع القوم على ماقال عمر رضي الله عنه ، فهذه القصة الثابته هي التى في بعض الفاظها : ورأينا لرايك تبع ، وانت ترى عمر رضي الله عنه لم يقلد فيها ابا بكر رضي الله عنه ، الا فيما يعتقد صوابه فانما ظهر له انه صواب قال له فيه : نعم ماذكرت ، وما ظهر له انه ليس بصواب رده على ابى بكر وهو قول ابى بكر بدفع ديات الشهداء ، لأن عمر يعتقد ان الشهيد في سبيل الله لا دية له لان الله يقول ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واقوالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حق في التوراه والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده (١)

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١ .

ذكرها ابن القيم في اعلام الموقعين ٢/ ٢٨٧

من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذ لك هو الفوز العظيم* وذ لك يوضح

(١) لك ان الصحابة رضي الله عنهم لا يعدلون عن الكتاب والسنة الى قول أحد واما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط ولووافق عمر في بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء لبعض لاتفاق رايهم لا لتقليد بعضهم لبعض ، وقد خالف ابن مسعود عمر في مسائل كثيرة جدا كمخالفته له في ام الولد ، لأن ابن مسعود يقول فيها انها تمتق من نصيب ولدها ومن ذلك ان ابن مسعود كان يطبق في ركوعه الى أن مات ، وعمر كان يضع يديه على ركبتيه ، وكان ابن مسعود يقول في الحرام هي يمين وعمر يقول : انه طلقة واحدة. وكان ابن مسعود يحرم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما ، وينكح احدهما الآخر ، وكان ابن مسعود يرى بيع الأمة طلاقها ، وعمر يرى عدم . .

(٢) ذلك وأمثال هذه كثيرة معلومة . مع أن ابن مسعود يقول انه اعلم الصحابة

---

(١) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن هـ ٧ ص ٥١٦ .

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ابو عبد الرحمن من السابقين الأولين ومن كبار العلماء من الصحابة مناقبه جمة - وامره عمر على الكوفة ومات سنة ٣٢ هـ او التي بعدها ، تقريب التهذيب هـ ١ ص ٤٥٠ ، وانظر سيرة ابن هشام هـ ١ / ٢٥٤ وطبقات خليفة خياط ١٦ / ٣٦ انساب الاشراف هـ١ ص ٢٠٤ الاستعاب هـ٢ / ٣١٦ وجوامع السيره لابن جزم ٤٧ وتاريخ بغداد ١ / ١٤٧ والاكمال لابن ماكولا د ٧ / ٤١٨ وصفوة الصفوة لابن الجوزي ٥٩٥ ؟ اسد الغابة ٣ / ٣٨٤ وتحفه الاشراف ٧ / ٣ وتاريخ الاسلام ٢ / ١٠٠ للذهبي وتذكره الحفا ١ / ١٣ معرفه القراء الكبار للذهبي ١ / ٣٢ البداية والنهاية ٧ / ١٦٢ الاصابة ٢ / ٣٦٨ تهذيب التهذيب ٦ / ٢٧ مجمع الزوائد ٩ / ٢٨٦ وسبل الهدى والرشاد ٢ / ٤١٣ - الفكر السامي ١ / ١٨٢ .

بكتاب الله وانه لو كان يعلم احدا أعلم منه به لرحل اليه ، ولم ينكر عليه احد من الصحابة . وقد قدمت عنه قوله : كن عالما او متعلما ولا تكن امعة . فليس ابن مسعود من أهل التقليد ، مع ان المقلدين المحتجين بتقليد ابن مسعود لعمر لا يقلدون ابن مسعود ولا عمر ولا غيرهما من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ياخذون بقول الله ولا رسوله وانما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة رحمهم الله .

(١) وأما استدلالهم على التقليد بأن عبد الله كان يدع قوله لقول عمر ،

(٢) وأبو موسى كان يدع قوله لقول علي ، زيد يدع قوله لقول ابي بن كعب فهو ظاهر السقوط ايضا ، لأن من المعلوم ان الصحابة المذكورين رضي الله عنهم لا يدعون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول أحد ، وهذا لا شك فيه ، وكان ابن عمر يدع قول عمر اذا ظهرت له السنة وكان

أ-ا ابن عباس يقول : يوشك ان تنزل عليكم حجارة من السماء ، اقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر ، واما استدلالهم على التقليد بأن معاذا رضي الله عنه صلى مسبوقا فصلى ما أدرك مع الامام أولا ، ثم قضي ما فاته بعد سلام الامام ، وكانوا قبل ذلك يصلون ما فاتهم اولا ثم يدخلون مع الامام في الباقي ..

وان النبي صلى الله عليه وسلم قال في ذلك :

(٣) « ان معاذا قد سن لكم سنة ، فكذلك فافعلوا » ..

---

(١) نفس المصدر السابق جـ ٧ ص ١٦ ، ٥١٧ .

(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار - بفتح المهملة وتشديد الضاد أبي موسى الأشعري صحابي جليل مات سنة ٥٠ هـ .

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن اوس الانصاري الخزرجي ابو عبد الرحمن من اعيان الصحابة شهد بدرا وما بعدها وكان اليه المنتهى في ==

أ-ا اعلام الموقعين جـ ٢/ ٢١٩

فهو ظاهر السقوط ايضا ، لأن ذلك لم يكن سنة الا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما لا يخفي - فلا حجة قطعا في قول احد كائنا من كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود . وانما العبرة بقوله : صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين واما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى ﴿ يايها الذين امنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ﴾ قائلين بأن أولي الأمر المراد بهم العلماء وان طاعتهم المراد بها في الآية هي : تقليدهم فهو ظاهر السقوط ايضا لأنه لا يجوز طاعة أولي الأمر اجماعا فيما

(١) خالف كتابا أو سنة ، ولا طاعة لهم الا في المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا نزاع بين المسلمين في

١ ـ انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . والتحقيق في معنى الآية الكريمة ـ ان المراد بأولي الأمر : ما يشمل الأمراء والعلماء ، لأن العلماء مبلغون عن الله ورسوله والأمراء منفذون ولا تجوز طاعة أحد منهم الا فيما اذن الله فيه ، لأن ما امر به اولو الأمر لا يخلو من امرين احدهما ان يكون طاعة لله ورسوله من غير نزاع ، وطاعة اولي الأمر في مثل هذا احسن طاعة لله ورسوله ، والثاني ان يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله اولا ؟ وفي هذه الحالة لا تجوز الطاعة العمياء لأولي الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح تعالى بذلك في نفس الآية . لأن الله تعالى لما قال :

(٢) ﴿ اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ ..

= العلم بالأحكام والقرآن - مات بالشام سنة ثمان عشرة مشهور / ع التقريب جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(١) اضواء البيان ايضاح القرآن بالقرآن جـ ٧ ص ٥١٧ ، ٥١٨ .

(٢) سورة النساء الآية ٥٩ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص ٤٣٠ .

١ = انظر التقليد ص ١٠ التخريج

اتبع ذلك بقوله * فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا * فالاية صريحه فـي رد كل تنازع الى الله ورسوله ، والرد الى الله هو الرد الى كتابه ، والرد الى رسوله صلى الله عليه وسلم هو الرد اليه في حياته ، والرد الى سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم أقول وبالله والتوفيق التحاكم لا يكون الا بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا شئ معلوم من الدين بالضرورة فليس فيه مجال للرأى لكونه مخصوصا في الكتاب ، والسنة المطهرة .

(١) قال تعالى * وأن أحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم * -

٢- وقال ايضا * ولا يعصينك في معروف * وكذلك الأحاديث كثيـره دالة على ان لا طاعة لمخلوق في معصيه الخالق كحديث ابن عمر :

١- * ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : السمع والطاعه على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصيه فان امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة *

(٢) وحديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

" في السرية الذين أمرهم أميرهم أن

(٣) يدخلوا في النار " لو دخلوها ما خرجوا منها ابدا انما الطاعة في المعروف * ولا يخفي ان طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها في الآية لا يتحقق وجودها الا بمعرفة امر الله ورسوله ونهى الله ورسوله والمقلدون

---

(١) سورة المائدة الاية ٤٩ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص٢١٣.

(٢) نفس المصدر السابق ج ٧ ص ١٠٩ .

(٣) اخرجة البخاري ج ١٣ ص ٢٠٣ فتح الباري ومسلم ج ٦ / ١٥ - وابو داود رقم ٢٦٢٥ والنسائي ج ٢ ص ١٨٧ والطيالسي ١٠٩ واحمد ج ١ ص ٩٤ عن علي رضي الله عنه .

٢- سورة الممتحنة الآية ١٢

١- البخاري ج ٤ ص ٢٢

مقرون على انفسهم بأنهم لا يعلمون امر الله ولا نهيه ولا أمر رسوله ولا نهيه وغاية ما يدعون علمه هو ان الأمام الذى قلدوه قال كذا ، معجزهم عن التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب بل اكثرهم لا يميزون بين قول الامام وبين ما الحقه اتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه ، ولا شك ان طاعة العلماء هي : اقتفاء ماكانوا عليه من النظر في كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتقديمهما على كل قول وعلى كل رأى كائنا ما كان . فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنه لأقوالهم فهو المخالف لهم المتباعد عن طاعتهم ، كما تقدم ، واما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى * والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه * قائلين : ان تقليدهم من جملة اتباعهم باحسان ، فمقلدهم ممن رضى الله عنه بنص الآية فهو ظاهر السقوط ايضا ، لأن الذين اتبعوهم بأحسان هم الذين ساروا على مثل ما كانوا عليه من العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فلم يكن احد منهم يقلد رجلا ويترك الكتاب والسنة لقوله فالمقلدون التقليد الأعمي ليسوا ممن اتبعهم البته ، بل هم اعظم الناس مخالفة لهم - وابعدهم عن اتباعهم ، فاتبع الناس لمالك مثلا - ابن وهب ونظراوءه ، ممن يعرضون أقواله على الكتاب والسنة فياخذون منها ما وافقهما دون غيره ، واتبع الناس لابى حنيفة ابو يوسف ، ومحمد بن الحسين مع كثرة مخالفتهما له ،لأجل الدليل (١)

---

(١) ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصارى الكوفي البغدادى صاحب الامام ابى حنيفة وتلميذه واول من نشر مذهبه كان فقيها علامة من حفاظ الحديث ولد بالكوفة سنة ١١٣ هـ وولى القضاء ببغداد ايام المهدى والهادى والرشيد ومات فى خلافته وهو على القضاء وهو أول من دعي بقاضي القضاة .

١ - سورة التوبة الآية ١٠٠

من كتاب أو سنة ، واتبع اصحاب أحمد بن حنبل له البخاري ومسلم وابو داود والأ شعتزم لتقديمهم الدليل على قوله وقول غيره وهكذا واما استدلالهم على تقليدهم : بحديث ﴿ اصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم ﴾ فهو ظاهر السقوط ايضا . اعلم اولا ان الحديث لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو حديث ضعيف لا يصح الأحتجاج به

(١) فجميع طرقه ليس فيها شيء قائم - قال في اعلام الموقعين : روى هذا الحديث من طريق الأعمش عن ابي سفيان عن جابر ، ومن حديث سعيد ابن المسيب عن ابن عمر ، ومن طريق حمزة الجرى عن نافع عن ابن عمر ولا يثبت شيء منها . قال ابن عبد البر : حدثنا محمد بن ابراهيم بن سعيد أن ابا عبد الله بن مضرح حدثهم ، حدثنا محمد بن أيوب الصموت قال : قال لنا البزار ، وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أصحابى كالنجوم بايهم اقتديتهم ، اهتديتم ﴾ فهذا الكلام لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وضعف الحديث المذكور معروف عند أهل العلم ، مع أن المقلدين المحتجين به ينفون تقليد الصحابة ويجرمون الأهتداء بتلك النجوم وهو : تناقض عجيب لأنهم تركوا نفس مادل عليه الحديث واستدلوا بالحديث على مالم يتعرض له الحديث ، وهو تقليدهم وتقديمهم على تقليد الصحابة وتقديمهم ، مع ان قياسهم على الصحابه لا يصلح لعظم الفارق وبهذا يعلم سقوط استدلالهم -بما ذكروا عن عبد الله بن مسعود ..

= الاعلام ٢٥٢/٩ - مفتاح السعادة ١٠٠/٢ اخبار القضاه لوكيع ٢٥٤/٣ - والنجوم الزاهرة ١٠٧/٢ - البداية والنهاية ١٨٥/١٠ وتاريخ بغداد ٢٤٢/١٤ وابن خلكان ٣٠٣/٢ - ومرآة الجنان ٣٨٢/١ ..

(١) اعلام الموقعين جـ ٢/ ٢٢٢

(١) قوله * من كان مستنا منكم فليستن بمن قد مات اولئك أصحاب محمد *

(٢) والله جل وعلا يقول * أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم * واما استدلالهم بقوله عليه الصلاة والسلام * عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى * وقوله عليه الصلاة والسلام * اقتدوا باللذين من بعدى أبي بكر وعمر * فهو حجة عليهم لا لهم ، لأن سنة الخلفاء الراشدين التي حث عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرونة بسنته ليس فيها البتة تقليدا عمى ولا التزام قول رجل بعينه بل سنتهم هي : اتباع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديمهما على كل شيء ، لأنهم هم اتبع الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأشدهم حرصا على العمل بما جاء به ، فالذى يقدم آراء الرجال على كتاب الله وسنة رسوله ويستدل على ذلك بحديث * عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين * الحديث ، هو كما ترى ، واقوال الخلفاء رضي الله عنهم وأفعالهم كلها معروفة مدونة الى الآن ليس فيها تقليد أعمى ولا جمود على قول رجل واحد ، وانما هي عمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومشاورة لأصحابه فيما نزل من النوازل ، واستنباط مالم يكن منصوصا من نصوص الكتاب والسنة على أحسن الوجوه واتقنها ، واقربها لرضى الله والاحتياط في طاعته وكانوا اذا بلغهم شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا اليه ولوكان مخالفا لرأيهم ، فقد رجع أبوبكر الى قول المغيرة بن شعبة :

---

(١) أعلام الموقعين ٢ / ٢٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٤٤ .

٣ - الترمذي شرح ابن العربي ج ١٣ / ١٢٩ - ١٣٠ ... المناوي شرح الجامع ج ٢ / ٥٦

(١) ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم فرض للجدة السدس .

(٢) وكان أبو بكر يرى أنها لا ميراث لها ، وقد قال لها لما جاءت " لا أرى لك شيئا في كتاب الله ولا أعلم لك شيئا في سنةرسولهصلى الله عليه وسلم " وقد رجع عمر الى قول المذكورين في دية الجنين ، ان النبي صلى الله عليه وسلم جعل فيها غرة عبد او وليدة ، ورجع عمر ايضا الى حديث عبد الرحمن ابن عوف ان النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر .

(٣) ورجع عمر ايضا الى قول الضحاك بن سفيان ان النبي صلى الله عليه وسلم كتب اليه ان يورث امرأه اشيم الضبابي من دية زوجها . ورجع

(٤) عثمان بن عفان الى حديث فريعه بنت مالك اخت أبي سعيد الخدرى ان النبي صلى الله عليه وسلم امرها بالسكنى في البيت الذى ،

---

(١) محمد بن مسلمة بن سلمه الانصارى ، صحابي مشهور وهو أكبر من اسمه محمد من الصحابة مات بعد الأربعين وكان من الفضلاء
١ / ع التقريب ٢٠٨/٢ .

(٢) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ٥٢٢/٧ .

(٣) الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب الكلابي ابو سعيد ، صحابي معروف كان من عمال النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقات - ع . التقريب ٣٧٢/١ .

(٤) هي : الفريعة بالتصغير بنت مالك بن سنان - الأنصارية اخت ابي سعيد الخدرى صحابية لها حديث قضى به عثمان - وهو هذا الذى معنا - ويقال لها - الفارعة / ع . التقريب ٦١٠/٢ .

توفي عنها زوجها فيه حتى تنقضي عدتها . وامثال هذا اكثر من ان تحصى ، وفي ذلك بيان واضح لأن سنة الخلفاء الراشدين ، هي التابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقديم سنته على كل شيء فعلينا جميعاً ان نعمل بمثل ما كانوا يعملون لنكون متبعين : لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنتهم . اما المقلد المعرض عن سنتهم وعن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مفضلا على ذلك تقليد ابي حنيفة او مالك او الشافعي اوأحمد رحمهم الله فما كان يحق له أن يستدل بحديث * عليهم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين * الحديث لأنه مقر بمقتضى تقليده ، بأنه ابعد الناس عن العمل بحديث * عليكم بسنتي * الحديث واما استدلالهم بأن عمر كتب الى شريح : ان اقض بما في كتاب الله فان لم يكن في كتاب الله فبما في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم فيما قضى به الصالحون في حجه عليهم ايضا لهم لأن فيه تقديم كتاب الله ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم العمل بما قضى به الصالحون ، وخيرهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم "، ولو كان المقلدون يمتثلون هذا لما انكر أهل العلم ولكن المقلدون المحتجين بهذا يمنعون العمل بكتاب الله وسنة رسوله والعمل بفتاوى اصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم ويوجبون الجمود على قول الإمام الذى قلدوه والتزموا بمذهبه ، ومن كانت هذه حاله فلا يحق له ان يستدل بشيء من هذه الأدلة . (١)

واما استدلالهم بان عمر رضي الله عنه منع من بيع امهات الأولاد فتبعه

---

(١) اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ٧/ ٥٢٥ .

الصحابة . والزم الطلاق الثلاث بكلمة واحدة وتبعة الصحابة . فهو ظاهر السقوط ايضا ، وقد تقدم ان موافقة الصحابة ومتابعة بعض الصحابة لبعض انما هي لا تفاقهم فيما راوه ، لا لأن بعضهم مقلد بعضا تقليدا اعمى ، أقول وبالله التوفيق : البحث طويل وأدلة الأطراف كثيرة وكل طرف يحتج بما يراه مقويا لمذهبه ، والمنصف يرى من خلالها ان اصحاب التقليد محجوجون بسبب اعتمادهم في أمر دينهم ودنياهم على رجل واحد بعينه ولا يعدلون عما يقول : ولا يبحثون أخطأ ماقال أم صواب . وهذا أولا جمود وثانيا تقصير وثالثا تعطيل للعقل عن التفكير وللنصوص عن استعمالها فيما وردت فيه ويتخبطون لنصوص وأثار يستدون بهما ومن جمله ما أدلوا به ، وتذرعوا به قول عمرو بن العاصي لعمر بن الخطاب لما أحتلم خذ ثوبا غير ثوبك وكذلك استدلوا بقول أبي (ما استبان لك فاعمل به . وما اشتبه عليك فكله الى عالمه ، وقالوا ايضا ان الصحابة كانوا يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود وان ذلك تقليد ومن أفتي وغلط في فتواه وردهما عليه عليه الصلاة والسلام . وقد رد على ابى السنابل بن بعكك قوله لربيعه الأسلمية (١) لما مات زوجها ووضعت حملها بعد ذلك بأيام " أنها لا تنقضي عدتها الا بعد اربعة اشهر وعشر ليال " وقد استدل ابو السنابل على ماأفتي (٢)

---

(١) هو : ابو السنابل بنون مخففه ثم موحده ثم لام بن بعكك بموحده وزن جعفر وبعكك هو ابن الحارث بن عميله بالفتح ، ابن السباق بن عبد الدار القرشي قيل اسمه : عمر وقيل عبد ربه صحابى مشهور ـ د س ق / التقريب ٢ /٤٣١ .

(٢) نفس المصدر السابق ٧ / ٥٢٧ .

١- اعلام الموقعين جـ٢ /٢٧١

٢- نفس المصدر السابق ٢٧١

به بعموم قوله تعالى * والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا * (١)

وقد رد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فتواه مبينا ان عموم قوله * والذين يتوفون منكم * الاية مخصص بقوله * وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن * (٢) وكأنكاره على الذين أفتوا صاحب الشجة بأنهم لم يجدوا له رخصة وهو يقدر على الماء ، وقد تقدمت قصته والظاهر انهم استدلوا في فتواهم بقوله * فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا * وغفلوا عن قوله * وان كنتم مرضى * الآية وأمثال هذا كثيرة جدا - وكذلك اعتمدوا في امر تقليدهم بقوله * فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون * قائلين ان الآية أوجبت قبول انذارهم وأن ذلك تقليد وهكذا يقولون في كل آية وحديث أرادوا - الاستدلال به ولو ذهبت اتتبع ما قالوه كانت الرسالة رسالة خاصة بهم وذلك غير مراد وقد أوردت في هذا البحث ما أرجوان يكون كافيا فيه وأسهبت فيه قليلا نظرا لكونه العائق الأول من عوائق العقل عن التفكير وأيضا في صميم موضوعي ، وكذلك كل ما فيه من جواب واعتراض عليه مدعوم بكتاب او سنة . وهذا هو ديدن الكتاب والسنه علما بأن الناس اليوم - يحتاجون لما يقربهم من هذين الأصلين المتبينين وهنا ننهي الكلام على هذا الفصل الأول والعائق الأول من العوائق التي تحول بين العقل والأخذ بنصوص الكتاب والسنة وتجعله يتبع السبل المتفرقة والمؤدية الى غير سبيل الرشاد واعاذنا الله من ظلمات الجهل ... واتباع خطوات الشيطان .

(١) ~~سورة التوبة الآية ١٢٢ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص ٦١٥~~ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٤ " " " " ص ٣٣٣ .

سورة الطلاق الآية ٤

الفصل الثالث

أثر البيئة على العقل

يقول الله تعالى ﴿ والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ وجعل لكم السمع والبصر والافئدة لعلكم تشكرون ﴾ . (١)

ذكر الله جل وعلا في هذه الاية الكريمة ان العبد يخرج من بطن امه لا يعرف شيئا ولا يعقله والله سبحانه هو الذى أوجد له الحواس السمع والبصر والفؤاد ، واذا كان العلماء الكتاب والسنة يعرفون هذا بلا شك وشرحوه وبينوه فان رجال علم النفس الأجتماعي استفادوا أيضا من هذه التعليمات السماوية واستنتجوا منهما أن هناك مؤثرات الموثر الأول يبدو بالوراثة والتكوين الخلقي عن طريق الخلايا التى يتكون فيها الجنين من أبوية . ويبدو بالدوافع الفطرية كالميل الى الطعام ، والجنس والحياة الأجتماعية ، وبالحساسية ، بالموثرات المختلفة كالأحساس بالجوع والعطش والأنعكاسات المعنوية والتموجات الصوتية وبالقدرة على التكيف مع البيئة بشكل منظم والقدره على تطوير البيئة تبعا لحياته وبعض الاستعدادات الفطرية الخاصة الأخرى كالأستعداد اللغوى ، أما الموثر الثاني فيبدو بالثقافة وطريقة الحياة التى يعيش فيها القرد والتى توثر في نمو الشخصية وتحديدها عن طريق التعود والتعليم ، والواقع ان نمو شخصية الفرد لا يتم الا عن طريق التفاعل المستمر المنتظم بين طبيعة الفرد .. (٢)

---

(١) سورة النحل الاية : ٧٨ .

(٢) علم الاجتماع تأليف : عبد الرحمن النحلاوى ١٠٣ .

الفطرية العامة وبين المجتمع ، وعن طريق هذا التفاعل يشعر الفرد بجسمه وحاجتة الداخلية للغذاء والأمن ويعرف طريقة تحقيق ذلك فتتحول شخصيته الى شخصية ناضجة متكاملة ، ولا يمكن لملكات الانسان واستعداداته ومقدراته ودوافعه الغريزية ان تؤدى وظيفتها في التنشئة الاجتماعية وتكون الشخصية العقلية والسلوك الانسانى السليم حين تترك وشأنها .

*** أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية في تربية الانسان ***

قال تعالى * الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة * (١) تتعرض هنا لكيفية نمو الانسان وتكوين سلكه كي ندرك ان القرآن ما ترك شيئا الا بينه لنا وقصه علينا احسن القصص ونلاحظ في هذا الخصوص ان شخصيه الطفل في الفترة الأولى تدور حول محور اللذة والألم فهو يقوم بكل تصرفاته على نحو فطرى ودافعه في ذلك شعوره باللذه او بالألم فهو يقدم على الأعمال التى تلذ له ويمتنع عن الأعمال التى تؤلمه الا أنه ينتقل بعد ذلك الى مرحلة ثانية هي مرحلة الثواب والعقاب فهو يتأثر في سلوكه بالنتائج التى تترتب عليها فاذا كان العمل يلذ له ولكنه يعرضه لعقاب والديه فانه يتردد فى القيام به وعلى العكس من ذلك فانه اذا كان العمل مؤلما لكنه يجلب له ثواب والديه فانه يقوم به ثم ينتقل الى مرحلة اخرى هي : مرحلة الرضا أو سخط الناس من حوله لكنه فى كل المراحل يرجع امره الى العادة والبيئة والعائلة التى هو فرد من أفرادها والتشابه

---

(١) سورة الروم الآية ٥٤ .

المائلي ثابت ولا نزاع فيه وكل الدراسات التي أجريت على التشابه بين الأفراد تكشف عن بعض الشواهد الدالة على اثر العوامل المائلية في وجود هذا التشابه (١) ففيما يتعلق بالجدل الخالد حول مشكلة الوراثة والبيئه ليس هناك من يميل الى التشكك الجدى فى دور الوراثه ، بل ان الجدل يدور (٢) أساسا حول الأثر النسبي لكل من الوراثة والبيئه وحول مدى ظهور التشابة والاختلاف نتيجه للتعديلات البيئية فالأشقاء والشقيقات الذين يثبتون في نفس الأسرة تكون لهم خبرات مشتركة ووراثه متشابهه والطريقة المألوفة في دراسة التشابة هي حساب معاملات الارتباط بين الخصائص لدى أزواج من الأفراد من اسرة واحدة .

وليس هناك من عقبه تواجه الآباء والأمهات اذ يبذلون الجهود لغرس (٣) العادات الطيبة في نفوس أبنائهم أكبر من الاعتقاد بأن أثر الوراثة يعين الخلق والسلوك والشخصية تعينا لا يمكن تبديله لهذا كان من اللازم قبل ان نشرع في التعرض لتكوين العادات واقامة الشخصية ان تقدم بعض الحقائق التى تتعلق بأهمية الوراثة والبيئة احدهما بالنسبة للأخرى ، ذلك لأنه لا جدوى من ان نتبع أولئك الذين يميلون الى الخفض من شأن الوراثه في تكوين الفرد العقلي - والبدني ، والخلقي ، ولا اولئك الذين كثيرا ما يغفلونها تماما هذا الى انه لا يمكن ان نحقق في هذا السبيل (٤)

---

(١) علم الاجتماع ص ١٥٤ عبد الرحمن النحلاوى .
(٢) تطور نمو الأطفال تأ الدكتور ابراهيم حافظ .
(٣) مشكلات نمو الأطفال تأليف : اسحاق رمزى ص ١٦ ط ٣ .
(٤) نفس المصدر السابق .

شيئا اذا وافقنا اصحاب المذهب الذى يؤكد تأكيدا يقينيا ان كل مظاهر التنوع في الشخصية سواء لحقت الفكر أو الخلق أو السلوك - قد تحتم قيامها في الأطفال من قبل ، تبعا لما قسم لهم من ، اختلافات اساسية فى طبائع كل منهم وقد يدفع وجود مذهبين . تختلف آراء كل منهما عن الآخر اختلافا أساسيا بعيد المدى الى اعتقاد بأن الوراثة والبيئة قوتان تعمل كل منهما مستقلة تمام الأستقلال عن الأخرى وتنافي الواحدة منهما غيرها في السيطرة على الثانية وليس هناك من فكرة اكثر من هذه بعثا الى الخطأ في تقدير الدور الذى تقوم به كل من هاتين القوتين في نمو الفرد منذ أن يكون مضغة في بطن امه ،يكون للبيئة على الدوام اثرها في عوامل الوراثة الكامنه فيه على أنه لايكون لهذه البيئة اثرها اذا لم توجد في الفرد تلك الخصائص التى تلازمه عن طريق الوراثة ، ويرى بعض علماء هذا الفن (انه لا ينبغى من ناحية الفرد ان يتجاهل أهمية الوراثة ولا التسليم بأنها تعين مصير المرء تعينا لا مفر منه ، ذلك لأن الميول الغريزية الوراثية هي : الجذور التى تقوم عليها الحياة ، البدنية والعقلية والخلقية وقد ينمو بعض الناس نموا يتفاوت فى سرعته ومداه عن نمو غيرهم ، ورغم ان جميع الناس يشتركون فى الخصائص البشرية العامة الا أن كل فرد يستطيع ان يقتبس من بيئته ما يميزه عن غيره وقد لا يستطيع بعض الناس أن يحقق فى بعض النواحى ما يحققه غيرهم اولا يسهل عليهم ذلك غير ان أحدا لا يمكن انيستفيد كل ما يحتاج له من فرض النمو. ومن ثم كانت المشكلة العملية هى : (١)

---

(١) مشكلات نمو الأطفال ص ١٦ ط ٣ اسحاق رمزى .

ان نقيم جهودنا على استخدام الخصائص النافعة التى تملك البيئـة والتى تفرض على الانسان خطا ما يسلكه وسبيلا يتبعه وما يكتسبــه الأنسان من البيئة هو : فرع من التقليد جرى حسب العادة المتبعة فى ذلك البلد .

(١) والعادة : ميل مكتسب الى أداء عمل من الأعمال بشكل آلي مثــل الكتابة وركوب الدواب ، وهي : نتيجة التعليم والكسب وتمتاز بأ ن استمرار الأنسان على أدائها يصل بالعمل الى الكمال والدقة وتمتاز أيضا بقلة الأنتباه ، ومعنى ذلك هو : انتقال العمل من بورة الشعور الى هامش الشعور ، فسائق السيارة الذى يتعلم سياقتها تــكــون حركاته غير سديدة ويفكر منتبها الى كل حركة يريد ان يقوم بهافاذا تعلم القيادة فانه يحرك يديه وقدميه دون ان يشعر ودون انتبـــاه وكأنه آلة تتحرك ويقصر بعض العلماء العادة على تعلم الحركة ، فيخرجونها بذلك من ميدان الأدراك والوجدان ، وبذلك تصبح العادة ظاهرة عضلية وتفسر العادة على هذا الأساس بأن تكرار الحركة يجعل العضـــــلات المتصلـــــة بهـــذه الحركـــــــــة

(٢) أكثر قبولا لتأديتها ، وتمتاز العادة عن الذاكرة باعتبار أن الذاكـرة ظاهرة تتصل بالمخ ، ونستطيع ان نقول ان العادة ذاكرة حركية أقول وبالله التوفيق اذا كان العاقل غالبا سديد التفكير محمود العمل فاننا نرى العاقل ايضا كثيرا ما يعمل الأشياء السائدة فى بيئته والتى - لا يحمد الكثير منها نظرا لكونها من عادة وطبيعة تلك البيئة وهنا

---

(١) خلاصة علم النفس تأليف محمد فؤاد ط ٢ ١٩٤٨ صص ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) نفس المصدر المذكور : ١٦ .

ندرك مدى تأثير البيئة على العقل والله المستعان والهادى ، الى السبيل الرشاد ، والواقع ان التكرار المتواصل يضيف تغيرا ولوظيفا على شكل العادة ؛ خصوصا اذا صحب التكرار قليلا من الانتباه والشعور والى جانب ذلك نجد بعض العادات تصل فى حالة الثبات الى درجة من الجمود حتى تنزل منزلة الطبع ولذا قيل : العادة طبيعة ثانية ؛ وكثيرا ما يحاول صاحب العادة ان يعدلها ولكنه ، لا يستطيع ، لأن العادة تمكنت من نفسه وطبعت جهازه العصبي بطابع عميق ؛ كصاحب الخط الردىء الذى يجمد فلا يستطيع تحسينه أما الأسباب التى تدفع الانسان الى تغير عادته فمرجعها الى ملاءمة نفسه بالبيئة ، فالوسط الذى نعيش فيه دائم التطور والتغير وهناك ظروف على المرء ان يتلاءم واياها وقد شاهد العلم كله ظواهر واضحه تدل دلالة ظاهرة على مقدار ثبات العادة والصعوبة فى تعديلها والتخلص منها وضرر العادات المتأصلة تبعا لذلك : اقول وبالله التوفيق : لا ريب أن البيئة الجغرافيه والاجتماعية لهما اثر ملحوظ على العقل ففى الطقس الحار يندفع الانسان الى الخمول وفى الطقس البارد يندفع الى الحركة والبيئة البدوية تقف بالعقل عند مبلغ ما وصلت اليه تلك البيئة من تحضر - والبيئة المتحضرة المليئة بالثقافات عديدة الألوان تلقى من العقل استجابة ولا شك ان الأدب والفنون والفكر والنظر ملكوا ذلك التصرف على الحقيقة ومرونة الخيال وكل هذا غذاؤه الحس ومكان ذلك هو : البيئة ، والبيئة عمل من الأعمال الطبيعية يختلف باختلافها فى كل قطر صوابا أو خطأ .
وتأمل قول . .

(١) الله عز وجل في بلقيسه * وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين * فوجودها مع الكفرة قد أثر فيها وصدها عن التأمل والتدبر ومن ثم تعين على المصلحين ان يبدوا في اصلاحهم بأصلاح البيئة التي هي المناخ الطبيعي لما خذ العقل فان بقيت غير صالحة كان منهل العقل منها مشوبا بالتلوث والقذر وقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم . بأصلاح البيئة فطهرها من الأوثان ليبدأ العقل الاستقلال الصحيح الذى يحفظ عليه مداركه السليمة والعقل يكاد يكون هو المميز للأنسان عن سائر الحيوانات

(٢) بعد قلبه الذى هو مهبط الهامه والايحاء اليه * ان شر الدوا بي عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * فاذا جمد الانسان بعقله وانعزل عن التأثير والتأثر بالبيئة اصبح ذلك الانسان لايلد حركة ينتفع بها الأعقاب واذا لم يتطور كما يتطور الأخرون عشت في عصرك غريب العقل أجنبي الشعور وحشي الثقافة واذا توقفت البيئة عن التطور الملائم لعصور الحياة أصبحت متخلفة هامدة لا تبعث في العقل حياة والحقيقة ان البيئة مرآة للعقل وهو : مرآة لها يقابلها فكل ماله طبع في هذه أنطبع في تلك وعلى الانسان ان يعدل ماليس يلائم سواء كان ذلك في البيئة ام في العقل والبيئة للعقل غذاء فاذا لم يكن هذا الغذاء صالحا للتغذية تعرض العقل للأصابة المهلكة التى على أقل تقدير تضعف من حركته وشعوره هذا واذا كنا ادركنا ان البيئة لها تأثير على المرء مباشرة فانه لا يفوتنا ان المؤثر الحقيقي في البيئة والمرء نفسه هو الله الواحد الأحد مكور الليل على النهار

---

(١) سورة النمل الآية : ٤٣ .
(٢) سورة الانفال الآية : ٢٢ .

ومكور النهار على الليل وهو الذى اذا شاء تأثير اى شىء اثر ذلك الشىء فى الحال سواء فى ذلك البيئة فى العقل او العقل فى ـ البيئة اقول وبالله التوفيق : مما يدلنا على تأثير البيئة دلالة واضحة ..

(١) ما ثبت في الصحيحين من حديث الرجل الذى قتل تسعه وتسعين نفسا ..

(٢) ا ـ والحديث رواه ابو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال * كان فيمن قبلكم رجلا قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض . فدل على راهب فأتاه فقال : انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبه ؟ فقال : لا فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن اعلم اهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : انه قتل مائة نفس فهل من توبه ؟ فقال : نعم . ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق الى ارض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع الى أرضك فانها ارض سوء ، فانطلق حتى اذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملئكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله تعالى ، وقالت : ملائكة العذاب انه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك فى صورة آدمي فجعلوه بينهم ـ أى : حكما فقال : قيسوا مابين الأرضين الى ايتيهما كان

---

(١) رياض الصالحين بشرح دليل الفالحين للامام النووى ١ / ١٣٣ / ١٣٤ / ١٣٥ .

(٢) ابو سعيد سعد بن مالك بن سنان لله عبيد الأنصارى ، ابو سعيد الخدرى استصغر يوم أحد ثم شهد ما بعدها له ولأبيه صحبه ، وقد روى الكثير من الأحاديث مات بالمدينه سنه ثلاث او اربع او ، خمس وستين وقيل اربع وسبعين / ع التقريب ١ / ٢٨٩ .

ا ـ البخارى ج ٤ ص ٢١٢

أدني فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى الى الأرض التى اراد فقبضته ملائكة الرحمة * هذا الحديث وان كان فى باب التوبه والانابة - الى الله عز وجل والرجوع اليه ، والرسول صلى الله عليه وسلم قاله مرغبا في التوبة ومبينا صغر الذنب وان عظم فى جنب عفوه سبحانه الا أنه كذلك له مساس قوى بتأثير البيئة وتأثيرها حيث أمر العالم الرجل بالأنتقال الى مدينة غير المدينه التى كان يقيم بها وقد بين له ان أهل هذه المدينة أهل سوء ، وأن تلك المدينه الأخرى يسكنها ناس طيبون فلا بد أن يتأثر بذلك الجو الجديد الطيب الذى صلح سكانه وسلموا من فعل الخبائث . والعالم طلب من الرجل ان يفارق دار الفساد وأصحابه الذين يعينونه عليه وهذا يفيد الأنقطاع عن أصحاب السوء مادامو على حالهم واستبدالهم بصحبة أهل الخير والعلم والصلاح والعبادة والورع ..

(١) ومن يقتدى به وينتفع بصحبته لتتأكد بذلك توبته . فان كل قرين يقتدى بقرينه ، وفعلا لبي الرجل الأمر وانطلق تائبا من زلته مفارقا لمحلته ، قاصدا لما أمر بالرحيل اليه ، ويشهد لهذا الحديث الآخر مثل الجليس الصالح مثل العطار ، ان لم يصبك من عطره أصابك من ريحه ، قال المناوى : (٢) فى ضمنه ارشاد الى الأمر بمجالسة من ينتفع بمجالستهم فى دينك من علم تستفيده او عمل يكون فيه أو حسن خلق يكون فيه أو حسن خلق يكون عليه ، فان الأنسان اذا جالس من تذكره مجالسته الأخرة فلابد ان ينال منه بقدر ما يوفقه الله بذلك ، وفي هذا أيضا دلالة على ان التأثير يحصل بالمقارنة والجيرة .

---

(١) نفس المصدر السابق ٧ / ١٣٦ .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥ / ٥٠٧ .

والسكن وجميع الاختلاط والحديث المذكور اشار له السيوطي بالصحة ووافقه المناوى ، وقال الحاكم انه صحيح واقره الذهبي ، وهذا الحديث والذى قبله بين به النهى عن مجالسة من يتأذى بمجالسته والترغيب فيمن ينتفع بمجالسته ، قال الراغب : نبه بهذا الحديث على أن حق الانسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم فهي قد تجعل الشرير خيرا كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريرا ..

(١) قال بعض الحكماء : من صحب خيرا اصاب بركته فجليس اولياء الله لا يشقي ، وان كان كلبا ككلب اصحاب الكهف ولهذا أوصوا أهل العلم بالبعد عن مجالسة السفهاء ، قال علي كرم الله وجهه : لا تصحب الفاجر فانه يزين لك فعله ويود لو انك مثله ، وقالوا : اياك ومجالسة الأشرار فان طبعك يسرق منهم وأنت لا تدرى ، وليس اعداء الجليس جليسه بما قاله وفعله فقط بل بالنظر اليه ، والنظر فى الصور يورث في النفس أخلاقا مناسبة لخلق المنظور اليه فان من دامت رايته للمسرور سر . او للمحزنون حزن وليس ذلك فى الانسان فقط بل فى الحيوان فمن المشاهد ان الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة فما الظن بالنفوس البشرية . المستعدة لقبول صور الأشياء خيرها وشرها ؟ وقد قيل سمي الانسان لأنه يأنس بما يراه خيرا او شرا ، اقول وبالله التوفيق على اية حال حديث الباب الذى معنا شاهد لنا على صحة ما قدمنا فى شأن البيئة ولا يسأل عن صحته فقد اخرجه الأمام

(٢) البخارى قال حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن عدى عن

---

(١) نفس المصدر السابق ٥ / ٥٠٧ .

(٢) البخارى ٤/٣١٣ محمد علي اصبح واولاده بالأزهر - مصر .

شعبة عن قتادة عن ابى الصديق الناجي عن أبى سعيد رضى اللـه عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال * كان فى بني اسرائيل رجلا قتل تسعة وتسعين نفسا * الحديث قد تقدم بتمامه وهو شاهد لما نحن فيه من تأثير البيئة - والفاظ الحديث فيها اختلاف بسيط فى بعض العبارات كقوله " فناء بصدره " وقوله " أقرب بشبر" يعنـي نحو الأرض الطيبة والغرض عندى من ايراد هذا هو ان الرجل وهـو في سكرات الموت حاول وهو فى اللحظات الأخيرة من الوقـت الحرج أن يكون اقرب الى هذه الأرض التى فيها الجو الصالح للأسـلام ، ويتأثر فيها المسلم بعمل الآخرين من اخوانه المسلمين سكان تلـك البقعة ، وكان العلماء الصالحون يرغبون في قرب أهل الخير والتأسي بأعمالهم ولهذا وجبت الهجرة في بدء الأسلام الى دار الأسـلام المدينة المنورة ، وما ذاك الا للتأثر بالبيئة الصالحة ولا يمكن ان يقوم الفاسد ببلد صالح وأهله صالحون ولا يتأثر بهم بل لا بد مـن خروجه اذا اراد الله له الأستقامة على الشر لأن البلد الطيب ينفي الخبث كما ورد عن طيبة ، قال البخاري :

(١) حدثنا عبدالله بن يوسف أخبرنا مالك عن يحيى بن سعيد قال : سمعت أباالحباب سعيد بن يسار يقول سمعت ابا هريرة رضى الله عنه يقول : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم * أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب وهي المدينة : تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد * قال في الفتح : المراد بالناس الشرار منهم وقرينـة اراده الشرار من الناس ظاهرة من التشبيه الواقع في الحديث ، والمراد بالنفي الأخراج

---

(١) فتح الباري ٤ / ٨٧ ط السلفيه .

ح = انظر البخاري حـ ٤ / ٢١٢

ولو كانت الرواية " تنقي بالقاف لحمل لفظ الناس على عمومه أمرت أى : امرني ربي بالهجرة اليها أو سكناها فالأول محمول على أنه قاله بمكة : والثاني على أنه قاله بالمدينة ، والغرض من ايراد هذا الكلام هو : اثبات تأثير البيئه بأذن الله تعالى وبيان ان الأنسان ضعيف يحتاج الى بيئه تعينه على فعل الخير والدوام عليه وسأمور بالتوجه اليه . قال الأمام مسلم (١) حدثنا محمد بن العلاء الهمداني - واللفظ له . .

حدثنا ابو اسامة عن بريد (٢) عن ابى برده عن ابى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « انما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك اما أن يحذيك واما أن تبتاع منه واما ان تجد منه ريحا طيبه ، ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك واما ان تجد منه ريحا خبيثه » وهذا من تأمله يجد تأثيرا . . حقيقيا ملموسا قال صاحب اكمال الأكمال شرح صحيح مسلم (٣) : فى هذا التمثيل حض على صحبة العلماء وأهل الدين ومجانبة خلان السوء وحصر التقسيم فى الجليسين ليس هو بمانع الخلو لأن المراد بالصالح الصلاح المتعدى نفعه للغير - وبالسوء السوء المتعدى ضرره للغير - لقوله " اما أن يوءذيك أو يحرق ثيابك واذا كان كذلك فقد يوجد جليس لا يضر ولا ينفع ، وقرين السوء ان لم يحفظ الله العبد فلابد من تأثيره به ولهذا المعنى قال تعالى « قال قائل منهم انى كان ،

---

(١) صحيح مسلم جـ ٨ / ٩ دار المعرفة بيروت [illegible]

(٢) بريد بن عبد الله بن أبي برده بن أبى موسى الأشعرى الكوفي ثقة يخطىء قليلا من السادسة / ع / التقريب ١ / ٩٦ .

(٣) اكمال الإكمال شرح صحيح مسلم ٧ / ٦٤ .

لي قرين يقول انك لمن المصدقين أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمدينون قال هل انتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم قال تالله أن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) (١)

وهذا يدل على متانة التأثر وان هذا الانسان ما منعه من الانجراف في ذلك السوء الذى كان فيه صاحبه الذى رآه في سواء الجحيم الا عناية الله سبحانه وتعالى وتوفيقه كما قال تعالى حاكيا عنه * فلولا نعمة ربي لكنت من المحضرين : الهالكين في النار بسبب أرتكب السوء في دار الدنيا ، قال القرطبي " لولا نعمة ربي " أى : عصمته وتوفيقه بالأستمساك بعروة الأسلام والبراءة من القرين السوء ، وقوله * لكنت من المحضرين * قال الفراء لكنت معك في النار محضرا ، وأحضر لا يستعمل مطلقا الا في الشر قاله الماوردى (٢) ، وقال تعالى : * لنبيه صلى الله عليه وسلم آمرا له باتباع المرسلين والتأسي بأفعالهم وأقوالهم * أولئك الذين هدى الله فبهداهم أقتده * (٣) وقد جاء في الفتح قال ابن عباس نبيكم صلى الله عليه وسلم ممن أمر أن يقتدى بهم .

(٤) قال ابن حجر : حاصله ان الزيادة لفظية والا فالكلام المذكور داخل في قوله في الرواية الأولي " وهو منهم " أى داود ممن أمر نبيكم أن يقتدى به في قوله تعالى " فبهداهم اقتده) وقد حصل الخلاف - هل كان صلى الله عليه وسلم متعبدا بشرع من قبله حتى نزل عليه ناسخه ؟

---

(١) سورة الصافات الآية ٥١-٥٢/٥٣/٥٤/٥٥/٥٦/٥٧ .
(٢) تفسير القرطبي ١٥/٨٤ ط دار الكتب العربية للطباعة والنشر .
(٣) فتح البارى ٨ / ٢٩٤ / ٢٩٥ .
(٤) عمدة القارئ شرح صحيح البخارى ٨ / ٥ .

٢ سورة الأنعام الآية ٩١

فقيل : نعم وحجتهم هذه الآية ونحوها ، وقيل لا واجابوا عن الآية بأن القران اتباعهم فيما انزل عليه وفاقة ولو على طريق الأجمال فيتبعهم في التفصيل وهذا هو الأصح عند كثير من الشافعيه واختاره أمام الحرمين ومن تبعه واختار الأول ابن الحاجب والله أعلم .

وقد نقلنا هذه الفائدة والغرض الذى جرالها هو اتباع أهل الفضل والتأثير بهم كما أن الجو الصالح لا شك في تأثيره ومما يدلنا على صحة ذلك ان الأصحاب رضوان الله عليهم لما أذن الله لهم فى الهجرة الى المدينة وجدوا جوا صالحا ملائما للدعوه والأستعداد للقتال فبدءوا يتسلحون للمطلب الثاني الذى هو اعلاء كلمه الله بقوه السيف وانقاذ المستضعفين الموجودين في مكة الذين لا حيله لهم لأنقاذ - انفسهم ، وندرك أيضا من خلال هذا أن الأنصار رضوان الله عليهم تأثروا بهذه البيئة الصالحة . والأنفس الزكيه فاصبح الواحد منهم يقاسم المهاجر ماله وأهله ويتنافسون في ذلك وقد وصفهم الله بذلك فقال ﴿ يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ قال البخارى حدثنا اسماعيل ابن عبد الله قال حدثني ..

(١) ابراهيم بن سعد عن ابيه عن جده قال : لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال : سعد لعبد الرحمن أني اكثر الانصار مالا فاقسم مالي نصفين ولي أمراتان فانظر اعجبهما اليك سمها لي اطلقها فاذا انقضت عدتها فتزوجها ، فقال بارك الله لك في اهلك ومالك

---

(١) نفس المصدر السابق حـ ٨ ص ٥ .

أين سوقكم فدلوه على سوق بني قينقاع ..

(١) وهذا النوع من الاندفاع في بذل المال والأهل وان كان الدافع الحقيقي هو قوة الأيمان وايثار الدار الآخرة فان البيئة كذلك لها فيه عامل التاثير حيث يجد اخوانه من حوله يتسابقون لفعل هذا النوع من الخيرات ولهذا اعجب النبي صلى الله عليه وسلم هذا التنافس والتأثر بفعل الخير والتسابق له حتى قال صلى الله عليه وسلم * لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار * اخرجه البخاري قال في شرح العين ليس المراد منه الانتقال عن النسب الولادي ، ومعناه لولا ان الهجرة أمر ديني وعبادة مأمور بها لا نتسبت الى داركم والغرض منه التعريض بأنه لا فضلية اعلا من النصرة بعد الهجرة وبيان انهم بلغوا من الكرامة مبلغا لولا أنه من المهاجرين لعد نفسه من الأنصار ، وهذا أيضا وان كان في فضل الأنصار وما قاموا به من التسابق في فعل الخير فانه كذلك يدلنا على ان الجو الصالح الديني يوئثر في سكان تلك الأرض كما هو مشاهد معروف ونظرا لهذا وجبت الهجرة في أول الأسلام وان كان الغرض الأول تكثير سواد المسلمين فانه كذلك فيه التأثر اذا كان السواد الأعظم هو اهل الخير فانه يقل شذوذ الناس عن الجادة والله أعلم ، ولا مانع أيضا من أن يكون التنافس

(٢) نوعا من التأثر بالبيئة يدلنا على ذلك ان الأوس لما قتلوا عدو الله كعب بن الأشرف اليهودي قالت الخزرج لابد لنا من قتل

---

(١) حي من اليهود كان يسكن المدينة المنورة .

(٢) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري جـ ١٧ ص ٣٠٧ .

عدو آخر للنبي صلى الله عليه وسلم فقاموا بقتل أبي رافع اليهودي وهذا تأثير بالبيئة الصالحة . اقول وبالله التوفيق : لا شك ان التناض في امر الدين والتسابق الى الخيرات يعين عليه محيط الانسان وبيئته ، يدلنا على ذلك حديث البخارى الذى تقدم والمتعلق بالرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسا - فان العالم الثاني أرشده الى قرية أهلها صالحون وامره بفراق الأولى لينضم الى جماعة مسلمة يتأثر بها وقد وقع ذلك - وحصلت نتيجته كما ظهر في آخر القصة ، ووجوب الهجرة في أول الاسلام والأمر بها وطلبها من كل من أسلم من هذا الباب وعن جرير بن عبدالله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية الى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فاسرع فيهم القتل ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين اظهر المشركين قالوا : يارسول الله ولم ؟ قال : * لا تتراءا نارا هما * -

(١) رواه ابو داود والترمذى ، قال الشوكاني في النيل : حديث جرير أخرجه ابن ماجه ورجال اسناده ثقات ، ولكن صحح البخارى وابو حاتم وابو داود ،

(٢) والترمذى والدارقطني ارساله الى قيس بن ابي حاتم ، ورواه

---

(١) نيل الأوطار جـ ٨ ص ٢٨ .

(٢) قيس بن أبي حازم البجلي أبو عبدالله الكوفي ، ثقة من الثانية مخضرم ، ويقال له رؤية ، وهو الذى يقال انه اجتمع له ان يروى عن العشرة ، مات بعد التسعين أو قبلها وقد جاوز المائة وتغير / ع تقريب جـ٢ ص ١٢٧ .

الطبراني أيضا موصولا ، قال الخطابي وغيره كانت الهجرة فرضا في أول الاسلام على من أسلم لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم الى الاجتماع ، وقوله * لا تتراءى نارا هما *

(١) يعني : لاينبغي أن يكونا بموضع بحيث تكون نار كل واحد منهما في مقابلة الأخرى على وجه لو كانت متمكنة من الأبصار لأبصرت الأخرى وهذا فيه الحث الشديد على مجانبة الكفار والاقتراب من المسلمين وذلك راجع باللازم على التأثر بالبيئة لأن أخلاقهم الحميدة وتسرب عاداتهم السليمة يؤثر في الانسان على أية حال بخلاف مقارنة المشركين فانها عادية وضارة بالسوء كما يعدى الأجرب الصحيح والأحاديث كثيرة جدا والآيات في التخويف من أهل السوء والخوف من التأثر بافعالهم - والترغيب في أهل الفضل وفي مجالستهم وفي باب الهجرة نصيب من ذلك كثير ، وقد جاء في سنن أبي داود من حديث سمرة ابن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

م = * من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله * رواه ابو داود قال الذهبي : اسناده مظلم لا تقوم بمثله حجه - اقول وبالله التوفيق هذا الموضوع فيه تفصيل لا ينبغي اغفاله ، لأن الهجرة أول الاسلام واجبة ومعنى الحديث منصب على هذا الوجوب كقوله تعالى

(٢) * والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولا يتهم من شيء حتى يهاجروا * وذلك مقصد الشرع فيه تكثير سواد المسلمين وتقوية شوكتهم

---

(١) نيل الأوطار جـ ٨ ص ٢٨ .

(٢) سورة الانفال الاية : ٧٢ .

م = عون المعبود شرح سنن ابي داود جـ ٧ ص ٤٧٧

وهذا امر لزاما على كل مسلم آن ذاك القيام به ، أما بعد الفتح وانتشار الاسلام فلا هجره ولكن جهاد ونيه ، ولا يفوت على هذا ان ننبه زملائي واخواني ان مقام المسلم بديار الكفر وبين الكفرة الفجرة امر مفصول وخلاف الأولى وفيه اهانة لا تخفى على من نور الله بصيرته لما يجر له ذلك المقام من التأثر بأطباعهم الخبيثة ، وقد ورد ان الطبع يسرق من الطبع كما يسرق أحدكم من صاحبه ، هذا بالأضافة الى ان المأكل والمشرب وجميع ضروريات الحياه كل هذا يصعب على الانسان التأكد بصفة صحيحه من طهارته ، والمسلم مسؤل عن طيب هذا كله وأين وكيف يطيب ببلد أهله شربهم الخمر وأكلهم الخنزير . ولا يعرفون الطهارة ولا يقيمون لها وزنا فاعتبروا يا أبناء المسلمين ، وحافظوا على دينكم واخلاقكم تفوزوا في مطالبكم الدنيوية والأخرويه وقال الشوكاني في النيل : وقد أطلق ابن التنين ان الهجرة من مكه الى المدينه كانت واجبة وان من قام بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينه بغير عذر كان كافرا . قال الحافظ وهو اطلاق مردود ، والاية التي ذكرنا آنفا قطعت الموالاة بين من هاجرو من لم يهاجر حتى يهاجر وذلك وان كان السبب الأول تكثير سواد المسلمين والقتال معهم والخوف من

(١) أن يفتن عن دينه ، فكذلك التأثر بالبيئة الصالحة داخل في هذا الباب دخولا أوليا ولهذا نجد المرأه اذا زنت تجلد ولا تنفى خوفا عليها

---

(١) - نيل الأوطار جـ ٧ ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

من الضياع وفي مقدمة الضياع البيئة الفاسدة فلا تحصل الغاية المطلوبة بهذا النفي بل تحصل المضرة ، وان كان عدم التغريب غير متفق عليه ، فظاهر احاديث التغريب انه ثابت في الذكر والانثى واليه ذهب الشافعي وقال مالك لا تغريب على المرأة لأنها عورة وهو قول الأوزاعي ومروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وليس غرضي هنا بسط الخلافات الفقهية وانما الغرض بيان البيئة لأنه من أهم العوامل المانعة من تغريب المرأة الخوف عليها من الضياع وفي مقدمة ذلك الضياع تأثرها ببيئة فاسدة فتفسد ويضيع الغرض المطلوب بالتغريب ، وعلى أية حال نعود قليلا الى التغريب حيث هو ثابت في الأحاديث ومن تلك الأحاديث حديث العسيف الذى زنى قال فيه وانى سألت اهل العلم فاخبروني أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام) رواه الجماعة - وحديث عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم * خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم * رواه الجماعة " الا البخارى والنسائي .

(١) قال الشوكاني ان التغريب المذكور في الأحاديث شرعا هو اخراج الزاني عن موضع اقامته بحيث يعد غريبا والمحبوس في وطنه لا يصدق عليه ذلك الاسم وهذا المعنى هو المعروف عند الصحابة الذين هم أعرف بمقاصد الشرع ، فقد غرب عمر من المدينه الى الشام وغرب عثمان الى مصر ، وغرب ابن عمر امته الى فدك . اقول وبالله التوفيق : التغريب

---

(١) نيل الأوطار للشوكاني جـ ٧ ص ٩٣ .

١- البخاري جـ ٨ / ٢١١ ومسلم جـ ٥ / ١٢١

٢- مسلم جـ ٣ / ١٣١٦

لابد ان يكون في بلد لا يعرف المغروب أهله ولا عاداتهم ولا أخلاقهم لأن هذه الأوصاف هي التي تتمثل فيها الغربة وعدم الانسجام لأن معرفة عادة البلد وأهله واخلاقهم يؤدى ذلك للأنسجام معهم وهذا يفوت المطلوب من التغريب وربما أدى الى العكس والله أعلم والأنسان من الصعب عليه ترك العادة التى ورثها من بيئته وتأثر بها واعتادها لذلك لا يحسن التغريب الا في مكان يجهل الانسان ما فيه من عادة ولا فرصة له تؤهله للأندماج مع ذلك المجتمع (١) الا بعد وقت طويل قال القرطبي في قوله * مالكم من ولا يتهم من شيء حتى يهاجروا * (٢) ختم السورة بذكر الموالاه ليعلم كل فريق وليه الذى يستعين به قال ابن عباس * اولياء بعض * في الميراث فكانوا يتوارثون بالهجره وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من هاجر فنسخ ذلك بقوله * واولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض وقيل ليس هنا نسخ وانما معناه في النصره والمعونة والمراد عندى من ايراد هذه النصوص هو : بيان قوة وتأثير اللفيف المسلم بعضه ببعض حتى وصل الى هذه الدرجة التى من اختصاص ذوى الأرحام بفضل الله ثم بتأثير البيئة الصالحة

هذا واذا كنت بينت ان للبيئة أثرها في الأشخاص والاتجاه والدين والتأسي . (٣)

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٨ ص ٥٦ .

(٢) سورة الانفال الآية : ٧٢ .

(٣) علم الاجتماع ومدارسه الدكتور مصطفى الخشاب - دار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨ .

٢ سورة الانفال الآية ٧٢

بكل انواعه واوردت على ذلك ما يشهد له من نصوص الكتاب والسنة
فجدير بي أيضا بيان اهمية البيئه ، فيما يتعلق بحياة الانسان
نفعا وضرا ومؤثرات البيئة الطبيعية ونقصد بالطبيعية كل ما يتعلق
بالمنطقة التى يعيش فيها الانسان من حيث التكوين والموقع الجغرافي
وما يحيط به من ظروف طبيعية ومناخيه وما يشتمل عليه باطن ارضها
من مواد أوليهة فقد لعبت هذه العوامل دورا هاما وأساسيا في
الحياة الأجتماعية وقيامها وشـ..بـا الى حد ما وفقا لمقتضياتها
لاسيما في حالة الفطره حيث هي : جزء لا يتجزأ من البيئه . التى
يعيش فيها ولا يجد بدا من الخضوع لأحكامها ولكنه استطاع ان ينفصل
عنها نسبيا كلما تطور وارتقى ولهذا الموضوع أمثلة كثيره نقتصر منها
على البعض ، اولا : كانت الناحيه الاقتصاديه اكثر نواحى الأجتماع
الأنساني خضوعا لمقتضيات البيئه لأن طبيعة الأرض هي التى تحدد
نوع الأنتاج للفرد وذلك له سبيله فحيث المناجم يزاول الناس الصناعة وحيث
اودية الأنهار يتجهون الى الزراعة وحيث المروج يؤثرون رعي الأنعام
وللمناخ تأثير مباشر على الشئون الاقتصاديه المتعلقه بالأنتاج ،
فالانتاج الزراعي يتوقف على حالة الجو
(١) لأن كل نوع من النبات يتطلب مناخا خاصا ، ويتوقف الانتاج الصناعي
كذلك على حالة الجو لأن لكل صناعة جوا يلائمها ، وللمناخ تأثير
مباشر على حركة نقل البضائع ... ولا يمكننا ان نقلل من شأن الموقع
الجغرافي للبيئة ومبلغ اثره في الناحية الأقتصادية فالبلاد الساحلية

---

(١) علم الأجتماع ومدارسه الدكتور مصطفى الخشاب ١٣٨ .

يتجه سكانها الى التجارة والصناعة وزيادة حركة النقل ، ويحفزهم موقع بلادهم على النشاط والاقدام ، بينما البلاد الأخرى ليست كذلك ، وكانت الناحية السياسية كذلك من أهم نواحي الاجتماع الانساني خصوصا الأحكام البيئية لأنها هي التي تحدد حجم الدوله فالجبال والبحار والصحارى ..

(١) تمنع من التوسع في التقدم ، اما السهول والأودية فتتيح الفرص للغزو والتوسع الداخلي ولذلك كانت هذه السهول ميدان الصراع بين الأجناس منذ القدم ، وللجو تأثير كبير على الوضع السياسي فالبلاد الحارة مصابة بالكسل والخمول ورغم وفرة الخيرات فيها ولا تقل الناحية الأخلاقيه عن الناحية الاقتصادية والسياسيه فيهما مبلغ تأثرها بظروف البيئة فللمناخ تأثير كبير على الحياة الوجدانيه وعواطفها وغرائزها .. واثرت البيئه كذلك في مختلف شئون العمران وأهمها التوزيع السكاني فنلاحظ ان الأودية والسهول استهوت الأجناس القديمة ولذلك تمتاز بكثافتها السكانيه ، وخضع نظام الاسرة كذلك لموثرات البيئة اذ نلاحظ - في البلاد الحاره التبكير بالزواج بينما سكان المناطق الباردة والمعتدله لا يلجوءن اليه الا في سن متأخر نسبيا . وتأثرت مستويات الصحه العامه بظروف البيئة فالبلاد الحارة مصابة بانتشار الأمراض والأوبئة ، وكذلك أثرت البيئة في القدرة على التفكير والأبداع الفني واثرت في الوان التسليه والهوايه ويبدو ان الموثرات البيئية التي أشرنا اليها أستهوت طائفه من المفكرين

---

(١) علم الاجتماع ومدارسه جـ ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

الاجتماعيين فبالغوا في تقديرها وذهبوا الى ان البيئة الطبيعية هي التى تكسب الجماعات خصائصها ومقوماتها الذاتية وهى التى تقرر ما تكون عليه حالة الجماعة سياسيا واقتصاديا واخلاقيا واسريا ولا تستطيع الجماعة الا فلات من مقتضياتها ولا ترى مندوحة من الخضوع أسيرة لأحكامها ويذهب الى هذا الرأى العلامة ابن خلدون فيقرر ان البيئة الجغرافيه هي : السبب المباشر فى اختلاف البشر جسميا وعقليا ونفسيا وخلقيا وحيويه - وادراكا وهى التى تميز المجتمعات في تقاليدها وعادتها وشئونها السياسية والدينية والاقتصاديه والعائليه وعلى كل حال لا بد من (١)

تقدير البيئة وأن لها ما تفرضه من جبريه على نظم المجتمع وخاصة شئون التشريع والعادات والتقاليد ونظم الاقتصاد والمستوى الحضارى والنزوع الى الحرب أو السلم - ونسب الى البيئة الجغرافية (٢)

الفضل في تثبيت دعائم الحكم الديمقراطي في المدن القديمة (٣)
هذا وقد احتل موضوع البيئة مكان الصدارة في المناقشات التى اثيرت حول العوامل المؤثرة في حياة المجتمعات ولا سيما بعد ظهور " دارون " لأنه قرر ان البيئة عامل هام جدا من العوامل المؤثره في بقاء النوع وتطوره وتحمس الكثيرون من اتباعه وذهب الى ان تباين أمة وأخرى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨ ، ١٠٢ المطبعة الشرقية ١٣٢٧هـ.
(٢) نفس المصدر السابق ص : ٤٨ ، ١٠٢ .
(٣) علم الاجتماع ومدارسه جـ ١ ص ١٥٧ .

سواء في التفكير أم في شئون الاجتماع يرجع الى ما خضعت له كل أمة من مؤثرات البيئة كانت البيئة هي المعلم الأول للانسان القديم هدته وأرشدته الى ماينبغي عمله حين كان الانسان قطعة من الأرض التى يعيش عليها ، ولكن تطور الفرد ثقافيا واجتماعيا جعله ينفصل شيئا فشيئا من اسرة البيئة ، والدراسات الانسانيه في جملتها تؤيد تناقض أثرها في حياة الانسان الحديث وأصبح هذا الأثر يتناسب تناسبا عكسيا مع درجة ثقافته ومبلغ نصيبه من الحضارة ، اقول وبالله التوفيق : هذه النظرة اهملت جهد الفرد وما أعطاه الله من المواهب والعقل الذى يميز به بين النافع والضار وهذه النظرة جعلته قطعة من الأرض التى يعيش عليها كأن البيئة هي التى ترشده وتهديه الى سواء السبيل وليس كذلك فان الانسان بعقله وادراكه ذلل الله له كل شيء وأنه سبحانه وخلقه لا يعرف شيئا كما قال :

﴿ والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ (١)

وعلمه الله كل شيء مما يحتاجه فالانسان اذن يؤثر بدوره في البيئة كما يتأثر بها وقد استطاعت المجتمعات بفضل الله ثم بفضل ماتوصلت اليه من وسائل الاختراع والكشف أن تغير بعض ظروف البيئه وتقهر سلطانها وتذلل صعوباتها وتشكلها حسب رغبتها ، فشقت الأنفاق وجففت الأنهار والبحيرات وعبرت الصحارى واستحدثت وسائل المطر الصناعي وغيرت مجاري الأنهار ومصابها وما الى ذلك من الأمور التى تدل على تدخل اجابي من داخل المجتمعات لتكيف البيئات التى (٢)

----

(١) سورة : النحل الاية : ٧٨ .

(٢) نفس المصدر السابق جـ ١ صص ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

يعيش فيها ومع التسليم بأن البيئة من العناصر الفعالة في قيام الحياة الاجتماعية وفي تعجيل أو تأخير تطورها غير انها لا تعتبر عاملا حاسما . لأن تطور الحياة الاجتماعيه يسير بخطى سريعة جدا بينما تطور الوسط الجغرافي لا يكاد يتزحزح عن أوضاعه منذ آلاف السنين .

. . . .

البيئــة الاجتماعية

يرجع الفضل الى البيئة الاجتماعية في تنشئة الفرد وتوجيهـــــه والاشراف على سلوكه وتلقينه ما وصلت اليه من ثقافة أي : انهــــا لا تقتصر على ان توفر له حاجياته الضروريه ولكنها تؤدي له أخطـــر وأهم وظيفة وهي : نقل التراث الاجتماعي والثقافي ويبدو ذلك واضحا في حالات الطفولة لأن الطفل يولد وهو عبارة عن كتلة من الغرائـــز والاستعدادات ووظيفة البيئه الاجتماعيه * ممثلة في الاسرة * ان تعلمه لغاتها وتاريخها وعاداتها وعرفها وتقاليدها ومعايرها فـــي الأخلاق والأذواق والآداب العامة ومظاهر السلوك الخاص والعـــام وما الى ذلك من الأمور حتى تخلق منه كائنا اجتماعيا يستجيب لمؤثرات البيئة ويخضع لأحكامها ونظمها فالأسره في ضوء هذا الاعتبار هـــي الوسيط الأول بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه ، وهي نقطـــة تحول في تاريخ الحضارة وغني عن البيان ان الفرد في مراحـــل نشأته الأولى يكون مرتبطا بقيود البيئة الاجتماعيه وحانقا على بعض أوضاعها يضيق ذرعا بما تفرضه عليه

(١) عليه وذلك كله لأنه لم يألفها بعد ، ومن تأثير البيئة على العقل

(٢) ما كان سائدا في العرب من أكل الربا يقول تعالى * يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون *

---

(١) سيرة الرسول صور ، القرآن جـ ٢ = ٣٧١ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٣٠ ، ١٣٢ .

والآية صريحة الدلاله على ان بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربـــاء يأكلونه اضعافا مضاعفة وانه كان عند العرب عملا تجاريا حلالا كالبيع

(١) فظل هذا المفهوم مستقرا بعد الأسلام في أذهان المسلمين الذيـن تعودوه وهذا مع ان النفس تشمئز منه الا أن البيئة اثرت على العقل هنا حتى هان على الانسان عمل هذه الأشياء وارتكابها فحصلـــت السيطرة على العمليات التجاريه ، حتى لا يوجد احد يأنف عن هـــذا وقد حكى الله تعالى عنهم قولهم :

(٢) * انما البيع مثل الربا * وهنا نجد ان المرابين كانـــــوا يستغلون اعسار المدينين فيضاعفون رباهم وانه كان لذلك عواقــــب شديدة الضرر في هوءلاء وقد نزلت الأيه لمعالجة الموقف بعـــــد الاسلوب الـقوى المناسب مع شده ضروره ولتكون في الوقت نفســـــه تشريعا قويما مستمر المدى في المجتمع الأسلامي ليحول دون ذلــك الضرر وتلك العقواقـب والموءثرات البيئية التى اثرت فيها البيئة علـى العقل حتى منعته من حسن التصرف والتسامح نظرا للموءثرات التـــى حوله قال تعالى * يأيها الذين أمنوا اتقوا الله وذروا مابقى مـــــن الرباء ان كنتم موءمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله *

(٣) وان تبتم فلكم روءس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * اقول وباللـــــه التوفيق ..

---

(١) نفس المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٧١ .

(٢) سورة البقرة الأيه : ٢٧٥ .

(٣) سورة البقرة الا يه : ٢٧٨ - ٢٨٠ .

هذا الصنف من الناس كان يضيف الى هذه الأعمال الشنيعة عمـــلا آخر هو اشد منها بشاعة ومراره علما بأنه سائد في البيئه الشـــيء الذى هون على النفس ارتكابه الا وهو : وآد البنات : قتلهـــن احياء - فان الكثير منهم كان تأثير البيئه حافزا له على دفن ابنتـه حية لأن الضغط الجماعي من الصعب الذى لايمكن لأى أحد الخروج عليه الا بتوفيق الله وان كانت هناك حوافز اخرى كخوف الفاقـــه والعار - والسبي وما الى ذلك ولكن هذا كله راجع با للازم الى تأثير البيئة على عقلية الأشخاص ..

(١) والله اعلم - وعلى ايه حال قد بينت الأيه السبب الرئيسى للقتـــل في قوله * ولا تقتلوا اولادكم خشيه املاق نحن نرزقهم واياكـــم ان قتلهم كان خطأ كبيرا *

وهنا ننهي هذا البحث ونبدأ " بالارهاب الفكرى " .

....

---

(١) سورة الاسراء الايه : ٣١ المعجمه المفهرس ص ٢٣٤ .

الفصل الرابع

الأرهـــــاب الفكـــرى

---

(١) ان مجال الدراسة الذى يعرف باسم التاريخ الفكرى ليس امرا هينـــا محدود الجوانب فقد يندرج تحت هذا العنوان مدى فسيح من الموضوعات الفعلية من آثار الفلاسفة المعنيين في التجديد الى التعبيـــر عـــن الخرافات الشائعة مثل التشاؤم الشديد من العدد (١٣) وقـــد تعرض مؤرخوا الفكر لأفكار الفلاسفة كما تعرضوا للأراء التى يعتنقهـــا رجل الشارع ومهمتهم الأساسيه هي : محاولة تعرف * العلاقـــات بين آراء الفلاسفة والمثقفين ، والمفكرين وطريقة العيش الواقعيـــــة للملايين الذين يحملون على عواتقهم واجبات المدينة * وهـــي : مهمة تفـرق اساسا بين تاريخ الفكر وبين تلك النظم القديمة الثابتـــة مثل تاريخ الفلسفة او تاريخ العلم أو تاريخ الأدب ، ومؤرخـــو الفكر تهمة الأفكار ا ن وجدها سواء كانت أفكار همجية أم معقولـــة تأملا رقيقا أم تحيزا عاما ولكنه يهتم بهذه الثمار من نشاط الانسان العقلى من حيث تأثيرها في وجود الأنسان كله أو تأثرها بهـــذا الوجود ، ومن ثم فهو لا يتعرض فقط للافكار الموجوده التى تولـــد غيرها من الآراء المجرده فهو لا يتعرض مثلا لتلك النظرة السياسيه المجرده التى تعرف بالعقد الأجتماعي كأنها ناحية من نواحـــــي التفكير المشروع فحسب انما هو يعالج حتى أشد الأفكار تجريـــدا عندما تتسرب هذه الأفكار الى روس الأفراد العاديين وقلوبهـــــم فهو يفسر ما كان يعني : العقد الأجتماعي لاولئك الثوار في القرن

---

(١) افكار ورجال قصة الفكرى الغربي حـ ١ = ١٥ ترجمه / محمود محمد

الثامن عشر الذين قر في نفوسهم أن حكامهم قد خرقوه ولعمرى انها لمهمة شاقة ان مؤرخ الفكر يحاول ان يستنبط مجموعه مركبة من العلاقات بين ما تكتبه قلة من الأفراد وما يقوم به فعلا كثير من الأفراد ومن اليسير عليه على الأقل في الخمسة والعشرين قرنا الماضية من تاريخ المجتمع الغربي ان يكتشف وان يحلل ما كتبه

(١) الاقلية وما قالته وقد لا يبلغ هذا السجل حد الكمال ولكنه يصل الى درجة نادرة من الأجادة حتى فيما يتعلق باليونان والرومان وذلك بفضل الجهاد الذى بذلته أجيال متعاقبة من الباحثين غير ان مهمة مؤرخوا الفكر ظلت شاقة حتى امدته المطبعة والتعليم العام بالصحف والمجلات والرسائل وما اليها بسجل لما فكر فيه وأحس به عامة الناس فقد يستطيع المؤرخ أن يصف في وضوح رأى الناس على أختلاف طوائفهم غير ان مؤرخ الفكر لا بد أن يبذل جهدا في رسم صورة متكاملة يجمعها من تشتيت المصادر للطريقة التى كانت تسرى بها الافكار في صفوف الجماهير اذ كان يتحتم عليه ان لا يحصر نفسه في تحليل الأفكار في صورة

(٢) أفكار أخرى ونستطيع ان نقول ان من المعقول ان نحصر تاريخ الفكر فيما يقوم به المثقفون من افعال وأقوال وكتابات واتجاه الفكر الاسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر

---

(١) افكار ورجال قصة الفكر الغربي ص ١٥ ترجمه محمود محمود .

(٢) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالأستعمار الغربي ص : ١٩٧ د / محمد الباهي .

بعد وفاة جمال الدين الافغاني وبعـــد ان توفر الشيخ محمد عبده على ما سماه الأصلاح الديني وبعد ان ظهر مصطفى كامـــــل) كزعيم لحركة المقاومة السياسية اتجه الفكر الاسلامي المقـــــاوم للاستعمار الغربي هنا في رقعة الشرق الأدنى الى تعبئة الـــروح والأصلاح الدينى عن طريق عرض الأسلام عرضا واضحا والعمـــل على جعله أساسا في التربية الوطنية وسبيل ذلك اصلاح الأزهر واحيـــاء الكتب القديمة وقد مثلت المدرسة السلفية التى قادتهـا مجلـــــة

(١) المنار هذه التعبئة بعد وفاة الشيخ محمد عبده وفي هذه الاثناء قام ما يعرف بـ (التجديد والمجددين او ما يصح ان يطلق عليه اسم الفكر الاسلامى وحسبنا أنه تشير الى شيء من الارهاب الفكـــــرى

(٢) كما سجلة القرآن عن قصة فرعون المتناثرة في القرآن الكريم ومنهـــا قوله تعالى * ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم وتستحيى نساءهم انه كان من المفسدين * فانظر اليها القارىء الى مدى طغيانه وتفريقة الناس ولا شــك أن ذلك يؤثر على الفكر فلا يسمح مع هذا الأستبداد لمفكر ان يعلن رأيه والجدال بين العقلاء يبعث على التفكر فينتهي الى الحـــق وقد قال تعالى حاكيا عن عمل فرعون الشنيع وبطشـــه الشـــديد وارهـــابه المتواصـــل * سنقتـل ابناءهم وتستحـي نســاءهـــم

---

(١) منطق ابن خلدون د . على الورد ص ١٩٧ .

(٢) ~~سورة الاعراف الآية~~ : ١٣٠ سورة القصص الآية ٤

وانا فوقهم قاهرون *

(١) فلنا ان نفهم أن وصية موسى لقومه كانت تشجيعا لهم على استقبال ما ينتظرهم من تنكيل أو ان نفهم انها كانت تصبيرا لهم على ما حل بهم منه بالفعل وهي الوصية اللائقة بنبي كل اعتماده على الله وكل عون له من الله الاستعانة بالله والصبر على البلاء ثم التثبيت والتبشرى بالخلاص فهذه الأرض لله وما فرعون وقومه الا نزلاء والله يورثها من عباده من يشاء ثم ان العاقبة مضمونه ومكفولة لمن يتقي الله ويخشاه ولا يخشى احدا سواه * والعاقبه للمتقين * ولن يكون من المتقين من يطوى جوانحه على خالجه من خشية لغير الله كائنا ما كان وكائنة قوته ما كانت ان القلب الذى تساوره مثل هذه الخالجة قلب لا يخلو من شرك بالله ولن تجتمع التقوى مع الشرك في قلب بشر ... ويمضي موسى عليه السلام نهجه يذكرهم بالله ويعلق رجاءهم به ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض مع التحذير من الفتنة بالاستخلاف * عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون * فليس هو استخلاف محاباه وليس هو جزافا بلا غاية وليس هو خلودا بلا موت ولا توقيت انه استخلاف للأختبار * فينظر كيف تعملون * والله يرى ويعلم ما سيكون ولكنها سنة الله وعدله الا يحاسب البشر حتى يقع منهم في الميان ما هو مكشوف من الغيب لعلم الله ..

(٢) لقد مضى فرعون وملوءه اذن في جبروتهم ونفذ فرعون وعيده وتهديده

---

(١) سورة الأعراف الايه : ١٣٧ .

(٢) في ظلال القرآن هـ ٩ - ٢٩ - ٣٠ .

بقتل الرجال واستحياء النساء ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب يرجون الفرج ويصبرون على البلاء وعندئذ أخذت القوى الكبرى تتدخل بين المتجبرين والصابرين * ولقد اخذنا آل فرعون (١) بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فهي اشارة التحذير (٢) الأول الجدب والقحط ، الثمرات والسنين تطلق على سني الجدب والقحط وهي في أرض كأرض مصر المخصبة المثمرة تبدو ظاهرة تلفت النظر وتهز القلب وتثير القلق وتدعو الى اليقظة والتفكر ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاء للبلايا وهكذا اخذ الله آل فرعون بالسنين لعلهم يذكرون - انها اللمسة الموقظة لو أن في القلب حياة وحساسية ولكن آل فرعون لم يتدبروا ولم يتذكروا وكانت الوثنية وخرافتها قد أفسدت فطرتهم وقطعت صلتهم بنواميس الحياة الصحيحة فكانو اذا اصابتهم الحسنة نسبوها الى حسن حظهم واذا اصابتهم السيئة نسبوها الى نحس موسى * فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم السيئة يطيروا بموسى ومن معه * ويمضي آل فرعون في عتوهم تأخذهم العزة بالاثم ويزيدهم الابتلاء شماسا (٣) وعنادا * وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * .

---

(١) في ظلال القرآن هـ ٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ط (١) سيد قطب.

(٢) واحيانا يراد بالسنين الحول والعام والسنين جمع سنه ومنه قوله * اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف * .

(٣) الفخر الرازي هـ ٢ = ١٤ - ١١٤ .

فهو الجموح الذى لا ترضية بينة ولا يلينه اقناع ولا يريد أن ينظر
ولا أن يتدبر لأنه يعلن الأصرار على التكذيب قبل أن يعرض عليه
الدليل قطعا للطريق على الدليل وهى حالة نفسيه تصيب الجبارين
حين يدمغهم الحق ، وحينئذ تتدخل القوة الكبرى بوسائلها
الجبارة * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد .. الى آخر الآية *
للأنذار والأمهال، ولقد جمع السياق هنا تلك الآيات المفصله والمعجزات
الفاصلة التى جاءتهم واحدة وهم في كل مرة يطلبون موسى وهم
تحت ضغط البلية ان يدعو ربه لينقذهم منها ويعدونه ان يرسلوا
معه بني اسرائيل اذا نجاهم منها * ولما وقع عليهم الرجز قالوا :
يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن
لك ولنرسلن معك بني اسرائيل * وفى كل مرة ينقضون عهدهم
ويعودون الى ما كانوا فيه * فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم
بالغوه اذا هم ينكثون * جمع سياق الآيات كأنما جاءت مرة واحدة
وكانت نهايتها كذلك واحدة * فأستكبروا وكانوا قوما مجرمين * وهي
طريقة من طرق العرض الفني للقصة القرآنيه يجمع فيها البدايات (١)
لتماثلها والنهايات لتماثلها ذلك ان القلب المغلق المطموس يتلقى
التجاريب المنوعة وكأنها واحدة لأنه لم يستشمرها ولم يميزها ولم
يتبينها فأما كيف وقعت هذه الآيات فليس لنا وراء هذه النصوص
شيء ونقف عند حدود النص الا اذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم نص يبين تفاصيل هذه الآيات والحوادث فتذكره لزيادة الفائدة

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٩ ص ٣٧ ، ط (١) .

وايضاح المعنى وعند كل آية كان آل فرعون يوءخذون ويفزعون فيذلون الوعد ويقطعون العهد ثم ينكثون وكان العذاب يرفع عنهم * الى اجل هم بالغوه * اجل موقت يتحقق معه عدل الله الذى لا يقع معه الهلاك الا بعد الانذار فلما ان جاء الآجل وانتهت العدة تحقق النذير وتم التدبير * فأنتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بأياتنا وكانوا عنها غافلين * والسياق هنا يقتصر في حادث الاغراق ولا يفصل خطواته كما يفصلها في مواضع اخرى من السور ذلك (١) ان الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الامهال الطويل فلا داعي اذن الى طول العرض والتفصيل ان الحسم السريع هنا اوقع في النفس وارهب للحس * فأنتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم * ضربة واحدة فاذا هم هالكون ومن التعالى والتطاول والأستكبار الى الهوى في الاعماق والأغوار * جزاء وفاقا * وهكذا نجد نتيجة الأرهاب هي : الدمار واذا فرعون الطاغية وقومه مغرقون واذا كل ما كانوا يصنعون للحياة وما كانوا يقيمون من ابنية فخمة قائمة على عمد واركان اذا (٢) هذا كله مدمر محطم في ومضة عين أو في بضع كلمات هذه هي عاقبة المكذبين والمنكرين والمستكبرين في الأرض بغير الحق وانظر الى موقف فرعون من السحرة وهو يمثل الأرهاب الفكرى في شدة وغطرسة واستكبار في الأرض بغير الحق واذا نظرنا الى قوله تعالى * قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من ارضكم بسحرة فماذا تأمرون *.

---

(١) الفخر الرازى جـ ١٤ ص ٢١٤ .

(٢) في ظلال القرآن جـ ٩ ص ٢١ .

علمنا أن هذه القصة تموج بالحركة والحوار وتزخر بالانفعالات والسمات وتتخللها التوجيهات الى مكامن العبر في السياق ويقف عرضها عند مشهد الميثاق في ظل الجبل ذلك المشهد المرهوب الذى ترجف له القلوب وفي هذا الموقف يهتف للقوم بالتقوى والخوف والحذر من وقوع الهلوى وتحقق النذر * خذوا ما اتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * انه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل وبين الايمان والكفر وبين الاستقامة والانحراف (يافرعون) لم يقل له يامولاى ولكن ناداه بلقبه في أدب واعتزاز ناداه ليقرر له حقيقة امره * انى رسول من رب العالمين * رب الجميع الذى يهيمن على الجميع * حقيقة على الا أقول على الله الا الحق * فانا ملزم ومأخوذ بقول الحق وحده لا أقول على الله سواه ويحدد النص هنا غاية رسالة موسى عليه السلام انها اطلاق بني اسرائيل من رق فرعون وملائه اطلاقهم مع موسى ليأخذهم بالرسالة التى ارسله الله اليهم بها وليست رساله الى غير بني اسرائيل من البشر انما هي لهم خاصة كما يدل عليه النص هنا والى هنا يبدو موقف فرعون طبيعيا ومعقولا رجل يأتي اليه فيناديه بلقبه مجردا ويخبره انه رسول من رب العالمين صادق وانه يحمل بينة تدل على صدقه وانه يطالب اطلاق بنى اسرائل له فيطلب فرعون هذه البيّنة التى أشار الرجل اليها قال * ان كنت جئت بآيه فأت بها ان كنت من الصادقين * ويفاجئنا السياق بما فوجئ به فرعون فكأننا نشهد الواقعة للمرة الأولى .. * فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين * تلك اذن هي البينه وهي المعجزة وهي مصداق الدعوى التى جاء بها موسى - وهنا تتدخل حاشية السوء واصحاب النفوذ الذين يشهرون نفوذهم بتزيين الضلال

(١) سورة البقرة الآية ٦٣
(٢) سورة الاعراف ١٠٥-١١٧-١٠٨

والصد عن سبيل الله وعن الهدى .

(١) * قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم * فماذا تفعلون لاتقاء هذا الخطر العظيم وهكذا يبلغون من نفوس القوم بهذا التهويل فيشير فريق منهم على فريق * قالوا ارجه واخاه وارسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم * ليقف السحر في وجه السحر ويتقي القوم هذا الشر ويقف السياق عند هذا المشهد ويسدل الستار على القوم يتآمرون وقد أرجاوا موسى وأخاه الى أجل حتى يجمعوا له السحرة من المدائن كما أشار المفسدون المضللون ولا يذكر السياق أنهم ارسلوا الى السحره ولا أنهم جمعوهم انما يرفع الستار مرة اخرى على مشهد السحرة مجموعين يحاورون فرعون ويحاورهم فيما سيكون * وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم وانكم لمن المقربين * انهم محترفون والآجر هو هدف الأحتراف وهذا فرعون يجمعهم من المدائن ليواجه بهم موسى ونفهم من السياق انهم كانوا عالين بالعمل الذى جمعوا له فهم يستوثقون من أجرهم عليه وها هوذا فرعون يعدهم الأجر ويعدهم الى جواره قربى ومنزلة زيادة في الأغراء وتشجيعا على الأجادة وهو وهم لا يعلمون ان الموقف ليس موقف الأحتراف والمهارة والتضليل انما هو موقف المعجزة والرسالة والأتصال بالقوة الغالبة التى لا يقف لها السحره ولا المتجبرون ولقد اطمأن السحرة على الأجر واشرأبت اعناقهم الى القربى من فرعون واستمدت نفوسهم للحيلة فها هم اولا يتوجهون الى موسى بالتحدى

---

(١) نفس المصدر السابق جـ ٩ - ٢١

* قالوا ياموسى اماأن تـلقي واما أن نكون نحن الملقين قال : القوا * ويبدو التحدى واضحا في تجبرهم لموسى وتبدو كذلـك ثقتهم في سحرهم وقدرتهم على الغلبة وفي الجانب الآخر تتجلـى ثقة موسى بالنهاية واستهانته بالتحدى * قال : القوا * فهذه الكلمة الواحدة تهدو فيها قلة المبالاة وتلقي الظل النفسى الكامن وراءهـا ولكن السياق يفاجئنا بما فوجيء به موسى هذه المفاجأة لم ينص عليها هنا وانما جاءت في سورة " طه " فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنـا لاتخف أنك انت الأعلى) وبينما نحن في ظلال الاستهانه وعـدم المبالاة اذ بنا أمام مظهر السحر البارع الذى يرهب ويخيف واذا هي المفاجأة التى يخبئها السياق ليكشف عنها بكل قوتها * فلما القـوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * وحسبنا أن يشهد القرآن لذلك السحر بأنه عظيم لندرك أى سحر كان وحسبنا ان نعلم انه سحر (اعين الناس) وأثار الرهبة في القلوب " واسترهبوهم " لنصور أى سحر كان . ولفظه " استرهب " ذاتها لفظه مصـورة فهم لم يرهبوا الناس فحسب انما استجاشواوجدان الرهبة قسـرا وساقوهم اليه سوقا ، ثم مفاجأة اخرى فكل هذا السحر وكل هذا الأسترهاب يتضاءل في لحظة وينطوى في ومضـة * واوحينا الى موسى ان الـق عصاك فاذا هي تلقف ما يافكون فوقع الحق وبطل ماكانـوا يعملون * انه الباطل يتنفش ويسحر العيون ولا شك ان فرعـون كان مجدا في الكيد والأرهاب مجتهدا في اقسى الأساليب يدل على ذلك قوله تعالى في سورة " طـه " فتولى فرعون فجمع كيده ثم اتى " ويحمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به المـلأ من قومه وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة

وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه يحمله في جملة * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى * وتصور تلك الاية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات ذهاب فرعون وجمع الكيد والاتيان به وراى موسى عليه السلام قبل الدخول في المباراه ان يبذل لهم النصيحة وان يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله لعلهم يثوبون الى الهدى ويدعون التحدى بالسحر والسحر افتراء فقال لهم موسى * ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى * والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتقذف الحق فيها ويبدو ان الذى كان فقد تأثير بعض السحرة بالكلمة المخلصة فتلجلج في الأمر واخذ المصورون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة ان يسمعهم موسى * فتنازعوا امرهم بينهم واسروا النجوى * وجعل بعضهم يحمس بعضا وراحو يهيجون في المترددين الخوف من موسى وهارون الذين يريدون الأستيلاء على مصر وتغير عقائد أهلها مما يوجب مواجهتهما يدا واحدة بلا تردد ولا نزاع . واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذى يغلب فيها الفالح الناجح قالوا * ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فاجمعوا كيدكم ثم أيتوا صفا وقد أفلح اليوم من أستعلى * وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدةالصادرة من عقيدة كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم فتزعزع أعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم وفي ما هم عليه من عقيده وفكره ويحتاج الى مثل هذا التحمس والتشجيع - وموسى واخوه رجلان ،اثنان والسحرة كثيرون ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما " يسمع ويرى " ولعل هذا هو الذى يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون فمن هو موسى

ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ويجمع كيده ثم يأتي ويحشر السحرة ويجمع الناس ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة ؟ وكيف قبل فرعون ان يجادله موسى ويطاوله ؟ وموسى فرد من بني اسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهرة انها الهيبة التى القاها الله على موسى وهارون وهو معهما " يسمع ويرى " وهي كذلك التى جعلت جمله واحده توقع الارتباك في صفوف السحرة المدبرين فتحوجهم الى التناجي سرا والى تجسيم الخطر واستثارة الهمم والدعوة الى التجمع والترابط والثبات ثم اقدموا وقالوا * يا موسى اما أن تلقي واما أن اكون اول من القى* وهي دعوة الميدان الى النزال . يبدو فيها التماسك واظهار النصفة والتحدى " قال : بل القوا " فقبل التحدى وترك لهم فرصة البدء واستبقي لنفسه الكلمة الأخيرة ولكن ماذا كان ؟ انه لسحر عظيم فيما يبدو وحركة مفاجأة ما جت بها السحرة حتى موسى * فاذا احبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فاوجس في نفسه خيفة موسى * والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفه موسى ومعه ربه يسمع ويرى " وهو لا يوجس في نفسه الخوف الا لامر جلل ينسيه لحظة انه الاقوى حتى يذكره ربه بأنه معه القوة الكبرى * قلنا لا تخف انك انت الأعلى * فمعك الحق ومعهم الباطل معك العقيدة ومعهم الحرفة معك الايمان بصدق ما انت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة انت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جبارا * لا تخف والق ما في يمينك * بهذا التنكيرللتضخيم

ا - سورة طه الايات ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩

* تلقف ما صنعوا * فهو سحر من تدبير ساحر وعمله والساحـــر
لا يفلح أنى ذهب وفي اى طريق سار لأنه يتبع تخيلا ويصنع تخيلا
ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية شأنه شأن كل مبطل امام القائم
على الحق المعتمد على الصدق وقد يبدو باطله ضخما فخما مخيفـــا
لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التى لا تتبجح ولا تتطـاول
ولا تتظاهر ولكنها تدمغ الباطل في النهاية فاذا هو زاهق وتلقفه
فتطويه فاذا هو يتوارى " والقى موسى عصاه " ووقعت المفاجـــأة
الكبرى والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقوعها في نفوس السحــــرة
الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها والذين كانوا
منذ اللحظة الأولى يحس بعضهم بعضا ويدفع بعضهم بعضا والذين
بلغت بهم البراعة في فنهم الى حد ان يوجس في نفسه خيفة موسى
ويخيل اليه - وهو الرسول - ان حبالهم وعصيهم حيات تسعــــى
يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم
ووجدانهم لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه ولا يكفي النطق للأفضاء بـــه
* فالقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب موسى وهارون * انها اللمسة
تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله وينبعث النور ويشرق الظلام
أنها لمسة الأيمان للقلب البشرى تحوله في لحظة من الكفر الى الايمان
ولكن انى للطغاة ان يدركوا هذا السحر اللطيف أنى لهم ان يدركوا
كيف تتقلب القلوب ؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ورأو الأتباع
ينقادون لاشارة منهم نسوا أن الله هو مقلب القلوب وأنها حيــــن
تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان * قال
أمنتم له قبل أن أذن لكم * قوله الطاغية الذى لا يدرك انهم هـــم
أنفسهم لا يملكون وقد لمس الأيمان أنفسهم أن يدفعوه عنهـــــــا

والقلب بين اصبعين من اصابع الرحمن يقلب كيف يشاء * أنه لكبيركم
الذى علمكم السحر * فذلك سر الأستسلام في نظرة لا أنه الأيمان
الذى دب في قلوبهم من حيث لا يحتسبون ولا أنها يد الرحمن
تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال ثم التهديد والغليظ بالعذاب
الغليظ الذى يعتمد عليه الطغاه ويسلطونه على الجسوم والأبدان
حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح * فلأقطعن ايديكم وارجلكم
من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل * ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة
قوة الوحوش في الغابة القوة التى تمزق الأحشاء والأوصال ولا تفرق
بين انسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالنبات * ولتعلمن اينا اشد
عذابا وابقى * ولكنه قد كان فات الأوان كانت اللمسة الأيمانيه
قد وصلت الذرة الصغيرة بصدرها الهائل فاذا هي قويه قويمة
واذا القوى الأرضية كلها ضئيله ضئيله واذا الحياة الأرضية كلها
زهيدة زهيدة وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة
لا تبالي ان تنظر بعدها الى الأرض وما بها من عرض زائل ولا الى
حياة الأرض وما فيها من متاع تافه * قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا
من البينات والذى فطرنا فاقض ما انت قاض انما تقض هذه الحياة
الدنيا أنا أمنا بربنا ليغفر لنا خطايا وما اكرهتنا عليه من السحر
والله خير وابقى * انها لمسة من الايمان في القلوب التى كانت منذ
لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنما يتسابق اليه المتسابقون
فاذ هي بعد لحظة تواجهه في قوة وترخص ملكه وزخرفته وجاهه
وسلطانه * قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا *
فهى علينا اعز وأغلى وهو جل شأنه اكبر وأعلى * فأقض ما انت قاض *

ودونك وما تملكه لنا في الأرض * انما تقضي هذه الحياة الدنيا * فسلطانك مقيد بها ومالك من سلطان علينا في غيرها وما أقصر الحياة الدنيا وما اهون الحياة الدنيا وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ويأمل في الحياة الخالدة ابدا * انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر * فما كنت تكلفنا به فلا نملك عصيانك بايماننا بربنا يغفر لنا" والله خير وأبقى " خير قسمة وجوار وابقى مغنما وجزاء ان كنت تهددنا بمن هو أشد وابقى وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم ان يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي * انه من يأت ربه مجرما فانه له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا * فلا هو ميت يستريح ولا هو حي يتمتع انما هو العذاب الذى لاينتهي الى موت ولا ينتهي الى حياة وفي الجانب الآخر الدرجات العلى جنات للأقامة نديمة بما يجرى تحت غرفاتها من انهار ، وذلك جزاء من تذكى " ونظهر من الآثام وهزات القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائز وواجهته بكلمة الايمان القوية وباستعلاء الايمان الواثق وبتحذير الايمان الناصح ورجاء الايمان العميق ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية اعلانا لحرية القلب البشرى باستعلائه على قيود الارض وسلطان الارض وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان ومايملك القلب البشرى ان يجهر بهذا الاعلان القوى الا في ظلال الايمان وهنا يسدل الستار ليرفع على مشهد آخر وحلقة أخرى من القصة جديدة انه مشهد انتصار الحق والايمان في واقع الحياة المشهود بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف وانتصار الايمان في قلوبهم على الرهب والرهب والتهديد والوعيد ، فالآن ينتصر الحق على الباطل

والهدى على الضلال والايمان على الطغيان في الواقع المشهود
والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول فما يتحقق النصر في عالم الواقع
الا بعد تمامة في عالم الضمير وما يستعلى اصحاب الحق في الظاهر
الا بعد ان يستعلوا بالحق في الباطن ان للحق والايمان حقيقة متى
تجسمت في المشاعر اخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس في صورتها
الواقعية فأما اذا ظل الايمان مظهرا لم يتجسم في القلب والحق
شعارا لا ينبع من الضمير فان الطغيان والباطل قد يغلبان لأنهما
يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق
والايمان ويجب ان تحقق حقيقة الأيمان في النفس وحقيقة الحق في
القلب فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التى يستعلى بها
الباطل ويصول بها الطغيان وهذا هو الذى كان في موقف موسى
عليه السلام من السحرة والسحر وفي موقف السحرة من فرعون وملئه
ومن ثم انتصر الحق على الباطل في الأرض كما يعرض هذا المشهد
في سياق السورة * وأوحينا الى موسى ان اسر بعبادى فأضرب
لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فاتبعهم فرعون
بجنودة فغشيهم في اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومة وما هدى *
ولا يذكر السياق هنا ما الذى كان بعد مواجهة الأيمان للطغيان
في موقف السحرة مع فرعون ولا كيف تصرف معهم بعدما أعتصموا بأيمانهم
مستقبلين التهديد والوعيد بقلب المؤمن المتعلق بربه المستهين
بحياة الأرض وما فيها ومن فيها انما يعقب بهذا المشهد مشهد
الأنتصار الكامل ليتصل النصر القلبى بالنصر الواقعى وتتجلى رعاية الله
لعبادة المؤمنين كاملة حاسمة " ولنفس الغرض لا يطيل هنا في
مشهد الخروج والوقوف أمام البحر كما يطيل في سور أخرى بل يبادر

بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كبيرة لأن مقدماته كانت في الضمائر
والقلوب وان هو الا الايحاء لموسى ان يخرج بعباد الله بني اسرائيل
ليلا فيضرب لهم طريقا في البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل لقد
تولت يد القدرة ادارة المعركة بين الايمان والطغيان فلم يتكلف
اصحاب الأيمان فيها شيئا سوى اتباع الوحي والسرى ليلا ذلك ان
القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع موسى وقومه
ضعاف مجردون من القوة وفرعون وجنده يملكون القوة كلها فلا سبيل
الى خوض معركة مادية أصلا هنا تولت يد القدرة ادارة المعركة
ولكن بعد ان اكتملت حقيقة الأيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة
سواها بعد ان استعلن الايمان في وجه الطغيان لايخشاه ولا يرجوه
لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده " يقول الطغيان "
* فلأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل *
فيقول الأيمان * فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا *
عندما بلغت المعركة بين الأيمان والطغيان في عالم القلب الى هذا
الحد تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية وتنكس راية الباطل
بلا جهد من أهل الأيمان وعبرة أخرى انه حين كان بنو اسرائيل
يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل ابناءهم ويستحيي نساءهم لم
تتدخل يد القدرة لأدارة المعركة فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة
الا ذلا واستكانة وخوفا فأما حين استعلن الأيمان في قلوب الذين
آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعوا الرؤوس يجهرون
بكلمة الأيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج ودون اتقاء
للتعذيب فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لادارة المعركة

والاعلان النصر الذى تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب هذه هـــي
العبرة التي يبرزها السياق بذلك الأجمال ويتتابع المشهدين بـــلا
عائق من التفصيلات يستيقنها أصحاب الدعوات ويعرفوا متى يرتقبـــون
النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض والطغاة يملكون المال
والجند والسلاح وفي ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب الـــــى
الناجين بالتذكير والتحذير كي لا ينسوا ولا يبطروا ولا يتجردوا مـــن
السلاح الوحيد الذى كان لهم في المعركة فضمنوا به النصر والنجاح
* يابنى اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطـــور
الأيمن ونزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغو
فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى واني لغفـــار
لمن تاب وآمن وعمل صالح ثم اهتدى * لقد جاوزوا منطقة الخطــر
وانطلقوا ناجين ناحية الطور وتركوا وراءهم فرعون وجنده غرقى وانجاؤهم
من عدوهم واقع قريب يذكرونه اللحظة فلم يمض عليه كثير ولكنه اعـــلان
التسجيل والتذكير بالنعمه المشهورة ليعرفوها ويشكروها قال تعالـــى
محذرا من الطغيان والفساد في الأرض واقتحام المنهيات وتنـــاس
النعم * ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقـــد
هوى * ولقد هوى فرعون منذ قليل هوى عن عرشه وهوى في المـــاء
والهوى الى اسفل يقابل الطغيان والتعالى والتعبير يشف هــــذه
المقابلات في اللفظ والظل على طريقة التناســق القرآني : اقول وبالله
التوفيق . الفرض من ايراد هذه القصة وما وقع فيها من محاورة بين
الطاغية الكبير فرعون - وموسى عليه السلام هو ابراز ما فيها من ارهـــاب
فكرى عظيم تضمنته هذه القصة وكان هذا العدو مستمرا عليه وقد رأينـــا

قبل قليل كيف مات هذا الطاغية وهو متماد على ارهابه الشديد لم يردعه ما رأى من الآيات البينات حتى غشيه من اليم ما غشيه وكانت اللحظة التي لاينفع فيها الندم وهذه القصة واقعية بالغرض المراد من ابراز الأرهاب ونتيجة الأرهابيين وقصة موسى هي اكثر قصة المرسلين ورودا في القرآن وهي تعرض في حلقات يناسب موضوع السورة التي تعرض فيها وجوها وظلها وقد وردت حلقات منها حتى الآن في سورة البقرة والمائده والأعراف ويونس والأسراء والكهف وذلك غير الأشارات اليها في سور أخرى وما جاء فيها في المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بنى اسرائيل امام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة فأما في البقرة والأعراف ويونس وطه فقد وردت منها حلقات كثيرة ولكن هذه الحلقات تختلف في سورة عنها في الأخرى تختلف الحلقات المعروضة كما يختلف الجانب الذى تعرض فيه تنسيقا له مع أتجاه السورة التي يعرض فيها في البقرة سبقها قصة آدم وتكريمه بالملأ الأعلى وعهد الله اليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بما غفر له فجاءت قصة موسى وبنى اسرائيل تذكيرا لبنى اسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده اليهم وانجائهم من فرعون وملئه واستقائهم وتفجير الينابيع لهم واطعامهم المن والسلوى وذكرت مواعدة موسى وعبادتهم العجل من بعده ثم غفرانه لهم وعهده اليهم تحت الجبل ثم عدوانهم في السبت وقصة البقرة وفي الأعراف سبقها الأنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى عليه السلام فجاءت قصة موسى عليه السلام تعرض ابتداء من حلقة الرسالة وتعرض فيها آيات اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل ..

(١) والضفادع والدم وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل وخاتمة فرعون وملئـــه المكذبين ثم ما كان من بني اسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجـــل في غيبة موسى وتنتهي القصة باعلان فيها وراثـة ورحمة وهدايــة للذين يتبعون الرسول النبي الأمي وفي يونس سبقتها عرض مصـــرا ع المكذبين فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة وعرض مشهد السحـــرة ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل اما هنا في " طـــه " فقد سبقها مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل الرسالة وتبليـغ دعوته فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجـــات وتتضمن رعاية الله لموسى وتثبيته وتأييده وتشير الى سبق هذه الرعاية للرسالة فقد كانت ترافقه في طفولته فتحرسه * وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني * اقول وبالله التوفيق في هذا التعبير ما يشيـر الى العناية التى كان موسى محاطا بها من قبل الله عز وجل من صغره وطفولته بين يدى فرعون حتى فارقه خوفا على نفسه عندما اشتد طلـب فرعون له وقد هداه الله الطريق السوى بعد خروجه واستجابـــة لدعائه * رب أهديني سواء السبيل * كما وفقه الله في صحبتـه الرجل الصالح ومصاهرته بعد ان اخبرته أبنتاه انه قوى أمين لأنهما شاهدا ذلك عندما قام لهما بسقي الغنم * ان خير من استأجـــرت القوى الأمين * وهكذا يعقد الله الخير بنواصي اهل الخير المخلصين في أعمالهم ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصـــل والواقع ان الانسان اذا خاف الله واتقاه اعطاه الله هيبة فيكون عليـــه

---

(١) في ظلال القرآن بتصرف : ١٦/ ٨٩ سيد قطب .

الوقار والهيبة سبب ذلك الذرع المستقر في قلبه ..

(١) وقد جاء في كتاب الزهد للأمام أحمد ان فرعون كان لا يأتي الخلاء خلال اربعين يوما الا مرة فأختلف عليه ذلك عندما دخل عليه موسى عليه السلام فتتردد على بيت الخلاء اربعين مرة وفطن لذلك وازعجه والأنسان حين يصل به البطر الى درجة الأفتراس والأرهاب نجده لا يقوم وزنا لعرض الأنسان وماله وكرامته لأنه لا يرى حرمة لهذا كله لكونه شرس الأخلاق يتميز غيظا وحقدا رهيب الفكر مسرف في الأجرام لا يرى لغيره حرمة امثال فرعون ومن على شاكلته الى يومنا هذا من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ان هذا المنصب الذى حصل عليه هذا الطاغية وصل اليه بأبشع انواع الأرهاب الفكرى قتل الوالد وما ولد وهذا لاشك من أعظم الفساد في الأرض * انه كان من المفسدين *

(٢) يقتل ابناءهم ويستحيي نساءهم * اقول وبالله التوفيق . اذا نظرنا الى الزاوية الأسلامية المقابلة لهذا العمل وعلمنا ان فرعون كان يقتل الولد حرصا منه على نفسه وخوفا من أن يتربى فى أحضان أهله فيكون فيه عداوة له وجدنا في المقابل ان الأسلام يربي الفرد تربية تجعله يبذل كل ما عنده في سبيل الله وفي صالح عبادة ان مضمرات هذا الدين وكوامنه لم تنته بعد ..

(٣) ان في استطاعته ان يوجد عالما جديدا يحيا فيه الفقراء اغنياء

---

(١) كتاب الزهد للأمام أحمد ص : ٦٦ .

(٢) الفكر القانوني الأسلامي .

(٣) الصراع بين الفكر الاسلاميه والفكرة ~~القانونيه~~ الغربية ص ١٠٧ ط (٢) الندوى .

لا يقوم فيه المجتمع البشرى على مساواه البطون بل يقوم على مساواة الأرواح ومن حكمة الله البالغه ان كل انسان يدافع عن موقفه ولا يرضي بأى وصمة فيه وان كان على خطأ بواح وارهاب فكرى منقطع النظير فان ذلك كله لا يجعله يعدل من خط سيره في حب الغلبة والجاة والانتصار * قال فرعون ما اوريكم الا ما ارى وما اهديكم الا سبيل الرشاد * انني لا أقول لكم الا ما أراه صوابا ..

(١) واعتقده نافعا وانه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال وهل يرى الطغاة الا الرشد والخير والصواب ؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد انهم قد يخطئون ؟ وهل يجوز لأحد ان يرى الى جوار رأيهم رأيا والا فلم كانوا طغاه ؟ ولكن الرجل المؤمن يجد من ايمانه غير هذا ويجد ان عليه واجبا ان يحذر وينصح ويبدى من الرأى ما يراه ويرى من الواجب عليه ان يقف الى جوار الحق الذى يعتقده كائنا ما كان رأى الطغاه ثم هو يطرق قلوبهم بأيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم وهي شاهدة ببأس الله في اخذ المكذبين والطغاه * وقال الذى آمن ياقوم اني اخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد * ولكل حزب كان يوم ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد " مثل يوم الأحزاب فهو اليوم الذى تجلى فيه ..

(٢) بأس الله وهو يوم واحد في طبيعته على تفرق الأحزاب * وما الله يريد

---

(١) في ظلال القرآن ، بتصرف : ٢٤/ ٧٠ .

(٢) نفس المرجع السابق حـ ٢٤ / ٧٠ - ٧١ .

ظلما للعباد * انما يأخذهم بذنوبهم ويصلح من حولهم ومن بعدهم يأخذهم بأيام الله يوم القيامه يوم التنادى * ويا قوم اني اخاف عليكم يوم التنادى يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هادى * فالتنادى واقع من صور شتى وتسميته (يوم التنادى) تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك ويصوره يوم زحام وخصام ويتفق ذلك مع قول الرجل المؤمن * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم * أقول وبالله التوفيق : هكذا نرى الأرهاب الفكرى والطغيان ومقاومة الحق بالباطل والوقوف في وجه الدعوة الأسلامية يصير اصحابة الى بحبوحة الذل والهوان وجدير بالعاقل ان يتعظ بهذه الأحداث التى مرت آنفا ويعرف من خلالها ان العمل محصور ومحسوب على صاحبه وان الله سبحانه بالمرصاد لجميع الأعمال ما تقدم منها وما تأخر * وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون * فقد مرت قرون كثيرة ولم يخل قرن من مفسدين ارهابين ولكن كان ذلك يختلف من شخص الى آخر ومن قوم الى آخرين فبعضهم مثلا كان ارهابه محصورا في حب الجاه والمال والأستخفاف بالغير وبعضهم كان ارهابه يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن ومن أشد انواع الأرهاب الذى يتعلق بالأعمال ما قص علينا القرآن الكريم مما كان يقوم به " فرعون" الذى كان يقتل المواليد لا لشيء الا أنهم ولدوا وخوفا من ان يكون من ضمنهم من يعكر صفوه في الحياه فيما بعد فيا له من ارهاب منقطع النظير وقد رأينا كيف كانت عاقبة المكذبين : فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان يصيبهم مثل ما اصاب الذين من قبلهم ، كعاد وثمود والأحزاب

وهذا قليل من كثير فان الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل * ولا يحق المكر السيء الا بأهله * اقول وبالله التوفيق : المعركة بين الحق والباطل ..

(١) كانت ولا تزال وستظل مستمرة ولكن أيضا لا تزال طائفه من صوره لا يضرها من خالفها والذين اختارهم الله للهدى اذا رأوالحق بادروا اليه معلنين ان هذه هي طريقتهم لا يهمهمماسينالهم من ارهاب وتنكيل فسحرة موسى عليه السلام عندما وصلوا تعجلوا الأجرة من فرعون والمودة وواعدهم فرعون بذلك وأن يكونوا من المقربين اليه ولكن عندما رأوا العصا تتلقف ما يافكون وهم اصحاب هذه الخبرة تركوا فرعون وما بحوزته من زينة الحياة الدنيا واختاروا حزب الله وخروا لله سجدا ولم يوثروا شيئا بعد ما رأو البينات ولم يهمهم أرهابه ولا ماتوعدهم به من التقطيع والتقتيل وهكذا أنضم الحق الى الحق * وخسر هنالك المبطلون * اما السحرة فقد لحق بهم من الارهاب والتنكيل ما كان السبب في موتهم واصبحوا من المفلحين والله وحده هو الذى يعلم من حال الناس ما يصلح ومن يستحق الضلال ومن يستحق الهدى ويقص القرآن علينا هذه المحاورة بأوجز عباره وأبلغها كما رأينا فيما مر من الأيات القرآنيه أقول وبالله التوفيق : الظاهران الله سبحانه وتعالى انما انزل على فرعون وملئه هذه المضار التى تقدم ذكرها من الطوفان والجراد وغيرهما لأجل ان يرجعوا عن طريقة الغي والفساد اللذين دأبوا عليهما لان الشدة ترقق القلب وترجع الأنسان الى فطرته السليمة التى ولد عليها والأنسان حين يشتد به الخوف

---

(١) في ظلال القرآن حـ ٢٤/ ٧٠ - ٨١ .

لا يلجأ الا الى الله كما قال تعالى عن المشركين حين تركبون البحر ويهيج البحر فانهم يتوجهون بالدعاء الى الله والتضرع الى الله وحده لا شريك له * فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون * وبنوا اسرائيل كانوا يطلبون من موسى ان يدعو الله يرفع عنهم البلاء حين ينزل ويتعهد ويلتزموا بتنفيذ المطالب كلها ولكن اذا رفع البلاء رجعوا لما كانوا فيه علما بأنهم كانوا يروا في أنفسهم انهم ان رفع عنهم البلاء يتركون ذلك

(١) التمرد والعناد ويرجعون الى الانقياد والعبودية وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب وترغب فيما عند الله والدليل عليه قوله تعالى * واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه * وقوله تعالى * واذا مسه الشر فذو دعاء عريض * : هذه الاية تدل على انه تعالى فعل ذلك ارادة منه ان يتذكروا لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر وعلى اية حال فقد جاء آل فرعون النذر فلم يعتبروا ولم يزدجروا بل تمادوا في طغيانهم يعمهون واستمروا في ارهابهم وعنادهم الشديد حتى أنتقم الله منهم لعبادة المؤمنين وجعلهم عبرة لمن بعدهم وهكذا يكون مصير النفس الشريرة الرهيبة بخلاف أصحاب الأنفس الزكية الذين يريدون وجه الله ويصبرون على القتل والتعذيب ابتغاء مرضات الله وثقة بالله كما وقع لموسى عليه السلام واصحابة اقول قوله تعالى * سنقتل ابناءهم ونستحي نساءهم وانا فوقهم قاهرون * في هذه الاية مسائل الأولى ..

(٢) قرأ نافع (سنقتل بفتح النون والتخفيف والباقون بضم النون والتشديد

---

(١) الفخر الرازى حـ ١٢ / ٢١٥ .

(٢) سورة الاعراف الايه ١٢٧ .

على التكثير يعني : ابناء بني اسرائيل ومن آمن بموسى عليه السلام
المسألة الثانية أن موسى عليه السلام انما يمكنه الأفساد بواسطة
الرهط والشيعة فنحن نسعى في تقتيل رهطه وذلك بأن تقتل ابناء
بني اسرائيل ونستحيي نساءهم ثم بين انه قادر على ذلك بقوله * وانا
فوقهم قاهرون * والمقصود ترك موسى وقومه لا من عجز وخوف ولو
اراد به البطش لقدر عليه كأنه يوهم قومه أنه انما لم يحبسه ولم
يمنعه لعدم التفاته اليه ولعدم خوفه منه واختلف المفسرون فمنهم من
قال كان يفعل ذلك كما فعله ابتداء عند ولادة موسى ومنهم من قال
بل منع منه واتفق المفسرون على أن هذا التهديد وقع في غير الزمن
الأول ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام انه قال لقومه * استعينوا
بالله واصبروا * وهذا يدل على ان الذى قاله الملأ لفرعون والذى
قاله لهم قد عرفه موسى عليه
السلام ووصل اليه فعند ذلك قال لقومه * استعينوا بالله واصبروا (١)
ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * فهنا امرهم
بشيئين وبشرهم بشيئين اما للذان امر موسى عليه السلام بهما فالأول
الأستعانة بالله والثاني الصبر على بلاء الله وانما امرهم أولا بالأستعانة
بالله وذلك لأن من عرف انه لا مدبر في العالم الا الله تعالى أنشرح
صدره بنور معرفة الله وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ولأنه يرى عند
نزول البلاء انه انما حصل بقضاء الله وقدره واستعداده بمشاهدة
قضاء الله خفف عليه انواع البلاء واما للذان بشربهما فالأول قوله
* ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده * وهذا اطماع من موسى
عليه السلام قومه فى ان يرثهم الله تعالى الأرض أرض فرعون بعد أهلاكه

---

(١) سورة الأعراف الاية .. ١٢٨

وذلك معنى الأرث وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف والثاني قوله * والعاقبة للمتقين * فقيل المراد امر الأخره فقط وقيل المراد امر الدنيا فقط وهو : الفتح والظفر والنصر على الأعداء وقيل المراد مجموع الأمرين وقوله * والعاقبه للمتقين * اشارة الى ان كل من اتقي الله وخافه فالله يعينه في الدنيا والأخره (١) ولقد مضى موسى وقومه يتحملون العذاب وينتظرون الفرج ويرجونه من الله العلي القدير ويصبرون على البلاء حتى جاء الفرج وفي هذه الفترة كان الحكم للشهوه وكانت السيادة للضلال وكان الحق للقوه وظل هذا الظلام كثيفا كامنا في هذا الجو المشحون بالباطل الى ان ارسل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأمره ان يبشر الناس بالأسلام كافه وانزل عليه القرآن الكريم هدى ونورا ورحمة فأخذ يتلو الكتاب ويدعو الى الحريه والسلام والمساواه ويسفه آراء الوثنية والشرك والبهتان ويحارب استغلال الأنسان لأخيه الانسان ويأمر بكل ما هو حق وخير وعدل وينادى بحق العامل والفقير والمحروم والرقيق والمرأه ويحرم السلب والنهب واللصوصيه والربا وأكل اموال الناس بالباطل والفساد (٢) ويؤاخي بين الناس ويحبب بين الناس التآخي والمعونة ويحطم العصبيات والحمية الجاهليه الأولى ويلغي الفوارق بين الشعوب والجماعات والى هنا ننهي هذه النبذة من الأرهاب الفكرى ونتيجته وما آل اليه الأرهابيون وعرفنا كيف كانت النتيجة وعلى من دارت الدائره وهذا المبدأ لا يتغير فى زمان ولا مكان * والعاقبة للمتقين * .

---

(١) في ظلال القرآن حـ ٩ / ٣٧ ط (١) .

(٢) نفس المرجع السابق .

الآيات الأرضيـــة

قوله تعالى * اولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لاريب فيه فابـــى الظالمون الا كفورا * . (١)

ظاهر هذه الآية انها سيقت للبعث وذلك ظاهر من السياق قبلها حيث قال تعالى .. مخبرا عن قوله الكفار * وقالوا اذا كنا عظاما ورفاتا انا لمبعوثون خلقا جديدا *

(٢) قال الفخر الرازى عند الكلام على هذه الآية : اعلم انـه تعالى كما اجاب عن شبهات منكرى النبوه عاد الى حكاية شبهة منكرى الحشر والنشر ليجيب عنها وتلك الشبهة هى ان الانسان بعد ان يصير رفاتا ورميا يبعد أن يعود وهو بعينه واجاب الله عنه بأن من قدر على خلق السموات والأرض لم يبعد أن يقدر على اعادتهم بأعيانهـم وفي قوله * قادر على ان يخلق مثلهم * قولآن الأول قادر علـى أن يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظ المثل كما يقول المتكلمون أن الاعادة مثل الابتداء القول الثاني : انه سبحانه قادر على ان يخلق عبيدا أخرين يوحدونه ويقرون بكامل حكمته وقدرته ويتركون ذكر هـــذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا التفسير فهو كقوله تعالى * ويات بخلق جديد * وقوله * ويستبدل قوما غيركم *

(٣) قال الواحدى : والقول الراجح هو الأول لأنه اشبه بما قبله ولما بين اللهتعالى

---

(١) سورة الاسراء الاية ٩٩ .

(٢) الفخر الرازى جـ ٤ ص ٦٢/٢١ ط (١) .

(٣) نفس المصدر السابق .

بالدليل المذكور ان البعث والقيامة أمر ممكن الوجود في نفسه أردفه بأن لوقوعه ودخوله في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله تعالى * وجعل لهم آجلا لا ريب فيه * ثم قال تعالى * فابى الظالمون الا كفورا * أى : بعد هذه الدلائل الظاهره أبوا الا الكفر والنفور والجحود وقوله تعالى * ان في خلق السموات

(١) والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس ..

(٢) وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون *

(٣) هذا بيان آخر لوجوده سبحانه وتعالى بعد ذكر قدرته قال في الفخر اعلم انه سبحانه وتعالى لما حكم بالفردانيه والوحدانية ذكر ثمانية أنواع من الدلائل التى يمكن ان يستدل بها على وجوده سبحانه أو على توحيده وبراءته عن الأضداد والأنداد - ثانيا : قبل الخوض في تلك الدلائل وشرحها لابد من بيان سائل المسألة الأولى هي : ان الناس أختلفوا في أن الخلق هو المخلوق أو غيره ؟ فقال عالم من الناس الخلق هو المخلوق واحتجوا عليه بالأيه والمعقول اما الأيه فهي هذه الأية وذلك لأنه تعالى قال * ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - الى قوله لآيات لقوم يعقلون * ومعلوم ان الأيات

---

(١) سورة البقرة الأيه : ١٢٦.

(٢) سورة البقره الأية : ١٦٤ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص : ٢٠١ .

ليست الا في المخلوق لأن المخلوق هو الذى يدل على الصانع فدلت هذه الآيات على أن الخلق هو المخلوق واما المعقول فقد احتجوا عليه بأمور : احدها أن الخلق عبارة عن اخراج الشيء عن العدم الى الوجود فهذا الأخراج لو كان أمرا مغايرا للقدرة والأثر فهو اما أن يكون قديما أو حديثا فان كان قديما فقد حصل في الأزل سمى الأخراج من العدم الى الوجود والأخراج من العدم الى الوجود مسبوق بالعدم - والأزل هو نفي المسبوقية فلو حصل الأخراج في الازل لزم اجتماع النقيضين وهو محال وان كان محدثا فلا بد له أيضا من مخرج يخرجه من العدم الى الوجود فلا بد له من اخراج آخر والكلام فيه كما في الأول ويلزم التسلسل واحتج القائلون بان الخلق غير المخلوق بوجوه : أولا : ان قالوا لا نزاع في ان الله تعالى موصوف بأنه خالق قبل ان يخلق الأشياء والخالق هو الموصوف بالخلق فلو كان الخلق هو المخلوق لزم كونه تعالى موصوفا بالمخلوقات التي منها الشياطين وذلك لا يقوله عاقل - وثانيا : انا اذا رأينا حادثا حدث بعد أن لم يكن قلنا : لم وجد هذا الشيء بعد ان لم يكن فاذا قيل لنا أن الله خلقه وأوجده قبلنا ذلك وقلنا انه حق وصواب ولو قيل : انه وجد بنفسه لقلنا أنه خطأ وكفر ومتناقض فلما صح حدوثه بعد ما لم يكن بأن الله تعالى خلقه ولم يصح تعليل حدوثه بحدوثه بنفسه علمنا ان خلق الله اياه مغاير لوجودة في نفسه فالخلق غير المخلوق - وثالثهما أنا نعرف افعال العباد ونعرف الله تعالى وقدرته مع أنا لا نعرف ان المؤثر في افعال (١)

---

(١) الفخر الرازى جـ ٤ ص : ٢٠٢ .

المباد هو : قدرة الله أم هو قدرة العبد والمعلوم غير ما هومعلوم فموثرية القادرية القادر في وقوع المقدور مغايرة لنفس تلك القـــدرة ولنفس ذلك المقدور - ثم ان هذه المغايرة يستحيل أن تكون سلبيـة لأنه نقيض الموثرية التي هي عدمية فهذه الموثرية صفة ثبوتيه زائدة على ذات الموثر وذات الأثر وهو : المطلوب - ورابعها : ان النحاه قالوا : اذا قلنا خلق الله العالم فالعالم ليس هو المصدر بل هو المفعول به وذلك يدل على ان خلق العالم غير العالم - وخامسها : أنه يصح أن يقال : خلق السواد وخلق البياض وخلق الجوهر وخلق العرض فمفهوم الخلق امر واحد في الكل مغاير لهذه الماهيات المختلفة - بدليل أنه يصح تقسيم الخالقيه الى خالقيـــة الجوهر وخالقية العرض ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام فثبـــت ان الخلق غير المخلوق فهذا جملة ما في هذه المسأله = المسألة الثانية قال ابو مسلم رحمه الله : اصل الخلق في كلام العرب التقدير وصار ذلك اسما لأفعال الله تعالى لما كان جميعها صوابا قال تعالى ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ ويقول الناس في كل أمر محكـــم هو معمول على تقديره المسألة الثالثة : دلت هذه الآية على أنـــه لا بد من الأستدلال على وجود الصانع بالدلائل العقليه وان التقليد ليس طريقا البتـــة الى تحصيل هذا الغرض -

المسألة الرابعـــة : ذكر ابن جريـــــــر (١) في سبب نزول هذه الآية عن عطاء انه عليه السلام عند قدومه المدينة نزل عليه ﴿ والهكم الـه واحد ﴾ فقال كفار قريش كيف يسع الناس

---

(١) الفخر الرازي حـ ٤ ص : ٢٠٢ .

آله واحد فانزل الله تعالى * ان في خلق السموات والأرض * وعن سعيد بن مسروق قال سألت قريش اليهود فقالوا : حدثونا عما جاءكم به موسى من الآيات فحدثوهم بالعصا واليد البيضاء وسألوا النصارى عن ذلك فحدثوهم بابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتي فقالت قريش عند ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ادع الله ان يجعل لنا الصفا ذهبا فنزداد يقينا وقوة على عدونا فسأل ربه ذلك فأوحى الله تعالى اليه ان يعطيهم ولكن اذا كذبوا بعد ذلك عذبتهم عذابا لا أعذبه احدا من العالمين فقال عليه الصلاه والسلام : ذرني وقومي ادعوهم يوما فيوما فانزل الله تعالى هذه الآية مبينا لهم انهم ان كانوا يريدون ان يجعل الله لهم الصفا ذهبا ليزدادوا يقينا فخلق السموات والأرض وسائر ما ذكر أعظم واعلم ان الكلام في هذه الأنواع الثمانية من الدلائل على أقسام فالقسم الأول مذكور في قوله تعالى * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء * ثم قال الفخر الرازى : ولنذكر هنا نمطا أخر من الكلام : روى ان عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطى علي عمر الأبهرى فقال بعض الفقهاء يوما ما الذى تقرؤنه فقال : أفسر أية من القرآن وهى قوله تعالى * أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها * فانا افسر كيفيه بنيانها ولقد صدق الأبهرى فيما قال فان كل من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان اكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته فنقول الكلام فى احوال السموات على الوجه المختصر الذى يليق بهذا الموضع مرتب فى فصول الفصل الأول فى ترتيب الأفلاك - الفصل الثاني فى معرفة الأفلاك - الفصل الثالث في مقادير الحركات - الفصل الرابع فى كيفيه الأستدلال بهذا الأول على وجود الصانع. ..

أقول وبالله التوفيق : بعد ما قدمنا نبدأ في التعليـــق

على ما مر من اختـــلاف بين الخلـق والمخلوق وأرى ان الخلق غير المخلوق اذا الخلق هو التأثير وفرق بين المصدر وبين المفعول

فالخلق مصدر والمخلوق مفعول ولا بد من التغاير بينهما وما يقال

من ان الخلق هو عين المخلوق غير صواب اذ الخلق قائم بذات الخالق

وليس المخلوق قائم بذاته بل هو اثر قدرته ونؤكد هنا في المسألـــه

الثانية التغاير بين الخلق والمخلوق اذ التقدير غير المقـــدر

وحول المسألة الثالثة المتقدمة اقول قد يكتفي المؤمن على وجود الله

بالدلائل السمعية اذ الدلائل العقليه لا يتساوى فيها ادراك كــل

الناس وهي متفاوته في الجلاء والخفاء وقد سبق بي ان تناولـــت

التقليد وعيوبه وبينت انه من بين العوائق التى تعوق العقل عــن

التأمل والتدبر فالمطلوب أولا الدلائل السمعية ثم الدلائل العقليــة

لتفهم ما جاء به الشرع على ان يكون السمع هو مستند العقل وفيما

يتعلق بالمسألة الرابعه اقول : لو صح ما ذكر من سبب نزول الآيــه

فالمعنى ان الله ينقلهم من الكسل والتواكل الى النظر والبحـــث

والاستدلال بالآيات على وجود الله وبعد التعليق على المسألة الرابعه

والمتعلق بسبب نزول الآيه الكريمه نتابع كلام العلماء على هذه الآيـــه

من سورة الأسراء التى استفتحنا الكلام فيها بما قاله الفخر الرازى

فنقول وبالله نستعين ان الآيه تعالج موضوع البعث وتقريبه للعبـاد

بالأمثلة الواضحة المرئه لأن العين لا تعرف شيئا اعظم من السموات

والأرض واحياء الأرض بالمطر واخضرار ماعلى وجهها من نبات بعد ان

كانت لا نبات فيها ثم اصفراره بعد ذلك واضمحلاله ليكفي من نظـــر

فيه بتدبر على قدرة الله التى لا يعجزها شيء وانه تعالى قادر على

النشأة الآخرة كقدرته على النشأه الأولى ولوضوح هذا وكثره أدلتـــه المرئة كان حكم المنكرين له الكفر والعياذ باللهتعالى ..

(١) قال الشوكاني : فجاء سبحانه بحجة تدمغهم وتردهم عن الجحـود فقال جل وعلا * أولم يروا ان الله الذى خلق السموات والأرض قـادر على انيخلق مثلهم *

(٢) لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهن كما قال * أأنتم أشد خلقـــا أم السماء * أى من هو قادر على خلق هذا فهو على اعاده مـــاهو دون منه اقدر - وقيل قادر على افنائهم وايجاد غيرهم وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الأعاده وهذا القول هو على الحقيقة وجملة وجعل لهم اجلا لا ريب فيه " عطف على " أو لم يروا والمعنى : قد علموا بدليـل العقل ان من قدر على خلق السموات قادرعلى احياء الموتى والاجل الذى لا ريب فيه هو : الموت او القيامه ويحتمل ان تكون الواو للأستئنـاف وقيل في الكلام تقديم وتأخير وقوله * فابى الظالمون الا كفورا * أبى المشركون الا جحودا وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهـم بالظلم ومجاوزة الحد ثم لما وقع من هوءلاء الكفار طلب اجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معايشهم بين الله سبحانه أنهم لا يفقهون

(٣) ولا يقنعون بل يبقون على بخلهم وشحهم بقولهتعالى * قل لو انتـــم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لأمسكتم خشية الأنفاق وكان الانسان قتورا*

---

(١) فتح القدير للأمام الشوكاني جـ ٣ ص ٢٦٠ .
(٢) سورة الآسراء الأيه ٩٩ .
(٣) سورة الآسراء الأيه ١٠٠ .

ح = سورة النازعات الآية ٢٧

أى : بخيلا . قال أهل اللغه : أنفق - وأصرم - واعدم وأقتر بمعنى قل ماله فيكون المعنى : لأمسكتم خشيه قلة المال وايضا يقال قتر على عياله يقتر وقترا قترا وقتورا = ضيق عليه في النفقه ويجوز ان يراد وكان الأنسان قتورا أى : قليل المال والظاهر ان المراد المبالغه فى وصفه بالشح لأن الأنسان ليس بقليل المال على العموم بل بعضهم

(١) كثيرالمال الاأن يراد/ أنه جميع النوع الانساني قليل المال بالنسبة الى

خزائن الله تعالى وما عنده وأختلف في هذه الأيه على قولين أحدهما انها نزلت في المشركين خاصة وبه قال الحسن والثانى انها عامة وهو قول الجمهور حكاه الماوردى أقول وبعد تقرير الأيه للبعث واثباته بالأدلة العقلية والنقليه لم يبق لمنكريه أدنى شبهه يجنحون اليها كيف وقد قال تعالى ..

(٢) * أولم يروا ان الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحي الموتى * وقال جل وعلا :

* أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر

(٣) على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون * قال ابن كثير يوم القيامة يعيد ابدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم وقوله * وجعل لهم أجلا لا ريب فيه * أى : جعل لاعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة محدوده

---

(١) الشوكاني فتح القدير جـ ٣ ص / ٢٦٠ .
(٢) ~~سورة الاسراء الايه :~~ ١٠٠ سورة الاحقاف الاية ٢٢
(٣) الشوكاني تفسير فتح القدير جـ ٣ / ٢٦٠ .
٣- سورة يس الاية ٨٢

لابد من انقضائها كما قال تعالى * وما نؤخره الى أجل معدود *
ومن خلال ماقاله العالمان الجليلان ابن كثير والشوكاني في الآيـــة
الكريمة من سورة الأسراء يتضح لنا ان الآية تسوق الأدلة وتعرضهـا
عرضا واضحا وتقربها لكل عقل سليم حتى لا تبقى شبهة يتذرع بهـا
جاحد للبعث وقدرة الله عليه فان الآيات الأرضية والسماوية فيهمـا
من الأدلة على تحقيق هذا البعث ما يكفي عن الخوض فيه وقد فصلتـه
الآيات القرآنية والأحاديث النبويه تفصيلا شافيا ويظهر من التفصيـل
المنصوص ان الناس متفاوتون فيه تفاوتا كبيرا جدا ومتباينون تباينـا
عظيما فبعضهم يحشر على وجهه أعمـــى وأصم وأبكـــم .

(١) كما قال تعالى * ونحشرهم يوم القيامه على وجوههم
عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا * وقد أخرج
البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال قيل يارسول الله : كيف يحشر الناس
على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر ان يمشيهم
على وجوههم " أقول وهذا أيضا فيه دلاله على ان الناس يخرجـون
من قبورهم وهم على اصناف متفاوتة ويتضح ذلك فيما رواه الأمام أحمد
قال :
(٢) حدثنا الوليد بن جميع القرشي عن ابيه عن ابى الطفيل عامر بن واثلة
(٣) عن حذيفة بن أسيد قال : قام ابوذر فقال : يابنى غفار قولـوا

---

(١) سورة الاسراء الآية ٩٧

(٢) عامر بن واثله بن عبد الله بن عمرو بن جحش الليثي أبو الطفيل وربما
سمي عمرا ولد عام أحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم وروى عـن
ابى بكر فمن بعده وعمر الى أن مات سنه عشر ومائة على الصحيح وهو
أخر من مات من الصحابة قاله مسلم وغيره التقريب جـ١ ص ٣٨٩/٤ .

(٣) حذيفة بن أسيد بفتح الهمزه الغفارى ابو سريحه بمهملتين مفتوحه ==

٤ = جـ ٥/١٦٤-١٦٥ ط المكتب الإسلامي للطباعة والنشر

١ = البخاري مع شرح فتح البارى جـ ٨/٤٩٢ ومسلم جـ ٤/٢١٦١

١ - ولا تحلفوا فان الصادق المصدوق حدثني ان الناس يحشرون على ثلاثة أفواج فوج راكبين طاعمين كاسين وفوج يمشون ويسعون وفوج تسحبهم الملئكة على وجوههم وتحشرهم الى النار فقال قائل هذان قد عرفناهما فما بال الذين يمشون ويسعون ؟ قال " يلقى الله عز وجل الآفة على الظهر حتى لا يبقى ظهر حتى ان الرجل ليكون له الحديقة المعجبة فيعطيها بالشارف ذات القتب فلا يقدر عليها " أقول وبالله التوفيق : حديث القرآن عن البحث وخطابه العقل دعوه صريحه الى ايقاظ العقل وحفزه على التأمل والاستدلال ووقوفه عند حده أمام القضايا الغيبية علما بأن العقل محدود والغيب غير محدود فعلى العاقل أن يفكر طليقا فيما هو مشاهد وعليه أن يقف عند حده فيما هو غائب عن المدارك والعقول وطريق معرفة ذلك هو السمع والنقل عن الشارع فيما صحت نسبته اليه وصح مضمونه وما تضمنه ذلك النص الشرعي وجدير بنا هنا ان نلقي الضوء على الآيات الارضية حسب الترتيب الذي عرضته الآيه الكريمه علينا ونستشف المعاني القيمه منها والعبر الكامنة فيها من قوله عز وجل :

(١) * ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون * أقول وبالله التوفيق بعد سرد الآيه الكريمه نبدأ بما بدأت به من

== الأولى منهما صحابي من اصحاب الشجره - مات سنة اثنتين واربعين / م ع التقريب ج ١ ص ١٥٦ .

(١) سورة : البقره الآيه : ١٦٤ .

ا - الكلوعك الله كبرع ٢ / ٧١

الفات النظر الى خلق السموات والأرض وفيه بحوث نعرضها فيما يلي

(١) فمن ذلك قوله * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون * فقوله : لقوم يعقلون دعوة الى العقل للتأمل والنظر فان ذلك يحدث له روعه ويفتح عليه روحة من الفكر يجول به في مصنوعات الله واقرب شيء الى العقل ما تقع عليه الحواس من معالم ارضية تتفق في ظاهر الأمر في الدقة والغذاء والجو وتختلف في ثمارها في الطعم واللون ولا يكون ذلك الا عن تدبير خالق حكيم ومدبر عليم (يسقى بماء واحد والأكل مختلف وفي هذا رد على الفلاسفة الحمقاء القائلين : بأن الواحد لا يصدر عنه الا أثر واحد ونسوا أن الواحد المختار يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ويطيل الليل في بقعة والنهار في بقعة أخرى ويجعلهما متعادلين في بقعة ثالثة ليتناسب ذلك مع موقع البقعة وفيه من اختلاف الحرارة والبرودة والظلمة وللنور ما يحملنا على التأمل في هذا النظام المحكم المشار

(٢) اليه بقوله تعالى : * وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون *

وعلى أية حال فاختلاف الليل والنهار وتعاقب النور والظلام وتوالي

---

(١) سورة الرعد الآية : ٤ ،

(٢) سورة يس الآية : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

الاشراق والمتعة ذلك الفجر وذلك الغروب كم أهتزت مشاعر وكم وجفت لها قلوب وكم كانت أعجبة الأعاجيب ثم فقد الانسان وهلتها وروعتها مع التكرار الا القلب المؤمن الذى يتجدد في حسه هذه المشاهد ويظل ابدا يذكر يد الله فيها فيتلقاها في كل مرة بروعه الخلق الا يتعجب الأنسان اذا نظر الى ارتفاع القطب تسعين درجة فيكون هناك معدل النهار منطبقا على الأفق من وتصير الحركة رحبية ويعطل طلوع الغروب أصلا ويكون النصف الشمالي من تلك البروج أبدى الظهور والنصف الجنوبي أبدى الخفاء ويصير نصف السنة ليلا ونصفها نهارا فيالها من حكمة باهرة وقدرة قادرة لا ينتفع بها الا اولوا الألباب قال تعالى * يأيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون *(١) فالذى جعل الأرض فراشا ممهدا وسخر لنا كل ما على وجهها واعدها لنا اعدادا تاما لتكون سكنا مريحا وملجأ واقيا كالفراش والناس ينسون هذا الفراش الذى مهده الله لهم لطول ما ألفوه ينسون هذا التوافق الذى جعله الله في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليسر والطمأنينة ولو فقد عنصرا واحدا من عناصر الحياة في هذا الكوكب ما قام هوءلاء الأناسي في غير البيئة التى تكفل لهم الحياة ولو نقص عنصرا واحدا من عناصر الهواء عن

---

(١) سورة البقره الآيه : ٢١ .

قدرة المرسوم لشق على الناس ان يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة واذا نظرنا الى السبب الثالث وهو : كون بعضها بحريا وبعضها سهليا وبعضها جبليا ويتركب بعضه هذه الاقسام من بعض فتختلف احوالها اختلافا شديدا دل ذلك على قدره الله وحكمته قال تعالى * وكأى من أية فى السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون * (١) ان وحدة الألوهية هي القاعده الكبيره التى يقوم عليها التصور الأيماني فلم يكن هناك جدل حول الأعتقاد بوجود آله تختلف التصورات حول ذاته وحول صفاته وحول علاقته بالخلق ولكنها لا تنفي وجوده ولم يقع ان نسيت الفطرة هذه الحقيقة حقيقه وجود آله الا في هذه الأيام الأخيرة يقول سيد قطب : حين نبتت نابتة منقطعة عن أصل الفطرة تنكروجود الله وهي : نابته شاذة لا جذور لها في اصل هذا الوجود ومن ثم فصيرها حتما الى الفناء والأندثار من هذا الوجود هذا الوجود الذى لا يطبق تكوينه ولا تطيق فطرته بقاء هذا الصنف من الخلائق المقطوعة الجذور وهذه الطريقه في تبيين الحواس والمشاعر جديره بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون العجائب التى تفقدنا الألفه حدتها وغرابتها وايحاآتها للقلب والحس وهي دعوة للأنسان ان يرتاد هذا الكون كالذى يراه أول مرة مفتوح العين متوفر الحس حيى القلب وكم في هذه المشاهد المكرره من عجيب وكم فيها من غريب وكم أختلجت العيون والقلوب وهي تطلع عليها أول مره ثم الفتها (٢)

---

(١) سورة يوسف الآية : ١٠٥ .

(٢) في ظلال القرآن حـ ٢ ص : ٤٩ ، ٥٠ ط (٢) .

ففقدت هزة المفاجأة وبهشة المباغتة وروعة النظره الأولى الى هذا المهرجان العجيب تلك السموات والأرض هذه الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة والآفاق المسحورة والعوالم المجهولة هذا التناسق في مواقعها وجريانها في تلك الفضاء الهائل الذى يدير الرؤس هذه الأسرار الذى غموض للنفس وتلتفت في رداء المجهول هذه السموات والأرض وما فيهما تكفى في الدلالة على وجود خالق مدبر حكيم مختار وقبل أن ادخل في بحث كروية الأرض وما قاله العلماء فى هذا الموضوع من قديم وحديث أود أن أقول أن الأسلام لا يخالف حقيقة فكل (١) حقيقة ثابتة فالأسلام لا يمانع فيها لأنه دين الحق والقرآن حق وما جاء فيه حق علمه من علمه وجهله من جهله فاذا اكتشف العلم الحديث شيئا لا تعرفه فلا ينبغي ان ننفيه بحجة أنا لا نعرفه يقول أحمد زكي في كتابه : ثورة الأسلام منذ تبين للمستشرقين الامريكين ان من بين المبادىء الاسلامية العليا وبين المثاليات الأدبية وشائج قوية لذلك ازدادت عنايتهم بدراسة تلك المبادىء وتدريبها وهم اذ يصنعون ذلك يؤدون للناس خدمة مزدوجة بل خدمة انسانية رضعة قوامها التقريب الروحى والفكرى بين نحو مائتى مليون من البشر شرقا ومثل عددهم غربا واذا كان عدد من المستشرقين القدامى لا يزال مغرما بتدريس الخرافات والبدع التى الصقت بالأسلام فى عصور الجاهلية والأنحطاط كأنها من اركان الأسلام فثمة غيرهم من المستنيرين يعنى : بروح من الأسلام الحقيقية ومبادئه العليا فيعمل على درسها وتدريسها متضافرا مع المثقفين من ابناء الأسلام أنفسهم الذين اخذوا في العهد الأخير يضطلعون بأعباء

---

(١) ثورة الأسلام ص ٨ ، ٨٣ الدكتور / أحمد زكى ابو شادى .

التدريب الاسلامي والعربي في الجامعات والمعاهد واعطى الدكتور مبادئ اسلاميه وذكر في المبدأ الاول تحرى الحقيقة وترك التقاليد الوهمية لأن التقليد الأعمى بالتقاليد الوهمية يقضي بطبيعة الحال على حركة البحث عن الحقيقة في كل مكان وجعلنا نشيح بوجوهنا عن مصادر النور (١) المنوعة او قد تكتفي الضئيل منها في حين ان من الواجبات المقدسة على المسلمين البحث عنها في جميع مظانها والاستضاءة بنورها أينما كان مصدره اذا ان الاسلام جاء مكملا وصاقلا للعقائد السابقة وجاء داعيا الى الاهتمام بكل معرفة جديده لا قاضيا على أي خير سابق اقول وبالله التوفيق ما قدمته تمهيدا لما سأدخل فيه بحول الله تعالى من اقوال العلماء المعاصرين حول دوران الأرض وعدمه وهذا الموضوع اختلفت فيه انظار العلماء اختلافا بينا وتضاربت اقوالهم فضيلة الشيخ بن باز لا يقول به بل يقول ان القول به كفر ويقول بالحرف ان الأرض قاره ساكنة ارساها الله بالجبال وجعلها اوتادا لها فمن زعم خلاف ذلك يقول الشيخ بن باز وقال ان الشمس ثابتة لا جارية فقد كذب الله وكتابه الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " يقول الشيخ في فتواه : وكل من قال هذا القول فقد قال كفرا وضلالا لأنه كذب الله ورسوله وقد اثار ما قاله الشيخ ضجة كبيرة جدا لأن حركة الأرض وحركة الشمس كل في فلك يسبح بقدرة الله وتدبيرة من المسلم به اليوم ولا محذور فيه واصبح كأنه

---

(١) المسلمون وعلم الفلك ص ٢٢ محمد محمود الصواف .

شيء معروف لدى العامة والخاصة وقد قام / محمد محمود الصواف بالرد على ما قاله الشيخ واستبعده كما تناول المودودى الموضوع وقال ان الشيخ كان يحسن به ان لا يخوض في هذا الموضوع لأن الذى ورد فى كتاب الله تعالى فى بعض أياته عن الأمور الكونيه لم يرد ليعلم الأنسان علم الطبيعة وانما ورد ليلفت نظر الأنسان الى مافى أيات الله الكونية من دلائل قاطعة وحجج دافعة على توحيد الله تعالى والبعث بعد الموت وقد راعت الحكمة الآلاهية في تحقيق هذه المصلحة أن يشاهد الأنسان أيات الله فى الكون ويتلقي فيها دروسا وعبرا فى اضواء ما وصل اليه علمه بأمور الكون ومع ان الذى جاء فى القرآن من آياته التى تشير الى الأمور الكونية لا يخالفه الواقع ولا تعارضه الحقيقه الكونية ولن يكون ذلك ابدا الا ان القرآن لم ينهج لذكره اسلوبا يصطدم مع علوم الأنسان فى عصر من العصور اصطداما صريحا يحول بين الأنسان وبين ايمانه بالله تعالى وبكتابه ولأجل ذلك لم يصرح القرآن بصورة قاطعة فى أية من آياته بدوران الأرض وثبوت الشمس او ثبوت الأرض وجريان الشمس حولها اما اقوله تعالى ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك بقدير العزيز العليم ﴾ فليس معناه ان الشمس تدور حول الأرض بل معناه ان الشمس سارية الى مقرها الذى لا يعلمه الأنسان وهذا المدلول لا يعارضه علم الهيئة في العصر الحاضر وكذلك ان القرآن لم يصرح في آية من آياته بكون الأرض ثابتة ساكنه وكون الشمس دائرة حولها وان الأنسان في القرون الماضية كان يفسر الرواس والأوتاد فى نطاق (١)

---

(١) المسلمون وعلم الفلك ص ٢٢ دار السعودية للنشر محمد محمود الصواف.

معرفته وحسب علمه بالأمور الكونية آن ذلك وحق له أن يفسرهـــــا
في ضوء ما اكتشفه من الأمور الكونية وان الله تعالى لم يجعل ايماننيا
وعقيدتنا مربوطان بعلم عصر من العصور بحيث اذا تغير هذا العلم
وتبدل اضطر الانسان الى أمريـــن اما أن يؤمن بالله تعالـــى
(١) وينكــــــــــــر صحة العلم او يكفر بالله تعالى ويؤمن بصحة العلم
فاذا كان الانسان القديم مسلما صحيح الاسلام على رغم قوله بثبـــوت
الأرض كذلك لا شك في صحة اسلام الانسان الحاضر على اعتقاد بدوران
الأرض يقول الشيخ المودودى في آخر كلامه : وأنا أوافـــق رأى
فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف . أقول وبالله التوفيق : القـــرآن
كلام الله وهو الحق الثابت الى يوم القيامة وقد بينه رسول اللـــــه
صلى الله عليه وسلم ... قال تعالى :
(٢) * وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم * وتجدر
الاشارة هنا الى ان الصواف الذى أنضم له رأى المودودى يرى كل
منهما حركة الأرض وكذلك الشيخ الطنطاوى يقول بالحرف : ودوران
الأرض مشاهد مقطوع به كان معلوما علما نظريا بالأدلة العقلية فصار
معلوما ضروريا بالحس ومشاهدة الأرض من المركبات الفضائية وعرض
الصور التى التقطت لها بالرائى" : أى : التليفزيون " وصار القول
بدوران الأرض من البدهيات التى لا نزاع فيها اليوم بين الناس اما
الآيات التى يرى فيها منكروا الدوران دليلا لهم كقوله تعالى :
(٣) * والقي فى الأرض رواسي ان تميد بكم * فليس فيها دليل لأن ماد

---

(١) نفس المصدر السابق ص : ١٩ .
(٢) سورة النحل الآيه : ٤٤ .
(٣) سورة لقمان الآيه : ١٠ .

عند العرب بمعنى : مال وهو : باب معروف والميلان : حركة اضطرابية والسير : حركة انتقاليه فاذا نفى الله عنها الميلان فلايفهم منه نفى الحركة الانتقالية بل ربما كان في الآية " اشارة " الى سيرها لأن الآية دلت على أن الجبال مثل الثقل للأرض ليلا تميد أى : تضطرب فى سيرها كالزورق اذا كان فارغا وضعوا فيه الحجارة أو أكياس الرمل ليلا يضطربه الموج فيضطرب أقول وبالله التوفيق : بعض العلماء يقول انه ليس من دليل على الحركة ولا عدمها ويعني : الدليل القطعي وعلى مدعى عكس هذا أن يأتي بالدليل وما ساقه بعض المشايخ واعتبره دليلا ليس فيه ما يعتبر نصا في المسألة اودليلا صريحا على دعواه وهذا رأى المودودى والطنطاوى والصواف وعلى العكس منهم فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز وقد قدمنا رأى الجميع وحججهم ومما لا شك فيه ان الأدلة اليوم على حركة الأرض ظاهرة دامغة لمشاهدة العين اياها فمثلا يوجد بعض البلدان الآن تذهب الناس اليه وتابي منه ويقولون ان الشمس تغيب عنه ستة أشهر فقد وجدت من أخبرني بذلك بطريقة التواتر المقطوع بصحته فلو كانت

(١) الأرض لا تدور لظهرت عليها الشمس مرة واحدة والله اعلم يقول عبد الرزاق نوفل

فى كتابه : الله والعلم الحديث الأرض كوكب من الكواكب التى تدور حول الشمس وتتبعها في سيرها اينما سارت وهي : الكوكب الخامس من حيث الحجم والثالث من حيث القرب من بين الكواكب التسعة

---

(١) الفلك الحديث ص ١٠٣ ط (١) عبداللطيف ابو الوفاء .

التى تتكون منها المجموعة الشمسية والأرض تكاد تكون كره الا أنها منبعجة قليلا عند خط الأستواء ويقول عبد اللطيف أبو الوفاء ان السماء (١) تدور لا الأرض ولا يشعر الأنسان بحركة الأرض لأنها تدور به وكل ما حوله وتحت رجليه فلا يتغير أفقه ولا الأماكن التى كانت تحيط به فسهولة دورانها مع تساوى الدورة وانتقال كل شيء بها يجعل حركة الأرض غير محسوسة اما الأشياء التى تدوربها معنا فيترأى لنا انها تغير مركزها على الدوام كما لو كنا في مركب يسير محاذيا للساحل فان تحركه بنا وبكل ما عليه وثبوت الساحل يجعلنا نتوهم ان الساحل هو المتحرك والمركب ثابت فهذا الناموس عينه هو : الذى جعلنا نرى الأجرام الفلكية متحركة بدون ان نشعر بحركة الأرض فيتقرر عندنا بمرأى الظاهر ان الحركة لتلك الأجرام اقول وبالله التوفيق : كل هذه المعلومات المتعلقة بالأرض ودورانها وما يشغله الماء منها وطبقاتها وعمرها ودرجات حرارتها اصبح اليوم لكثرة الأدلة عليه والبراهين شبه القطعية من المسلم به عند الكثير وليس اكتشافه جديدا فقد سبق اليه علماء الأسلام وعلم الفلك كان من أول العلوم التى لفتت انظار علماء المسلمين في المشرق وجلبت اهتمامهم وعنايتهم بها ولم يكن الأهتمام بعلم الفلك مقصورا على العلماء المختصين فقط بل ان الكثير من خلفاء المسلمين والأندلس في المغرب وبعض السلاطين السلاجقة وأمثالهم من المنحدرين

(٢) من سلالة جنكيز خان اصبحوا شديدى الشغف والتعلق بهذا العلم

---

(١) الفلك العام ص ١٦ ترجمة الدكتور حلمى عبد الرحمن مكتبة النهضة المصرية .

(٢) المسلمون وعلم الفلك ٢٩ / ٣٧ .

ولقد ظهرت المراصيد الفلكية في الأمبراطورية الأسلامية المترامية الأطراف واكتسبت مراصيد بغداد والقاهره وقرطبة وطليطلة وسمرقند شهرة فائقة بقى أثرها مأت السنين وكانت نتائج أبحاثها هي المرجع والمعتمد عند علماء الأفلاك في القديم والحديث ويرجع تاريخ مدرسة الفلك في بغداد الى خلافة أبي جعفر المنصور العباسي وهو الخليفة الثاني وقد كان هو نفسه عالما في الفلك ولوعا في علم السماء ويتضح لنا من هذا الأستعراض البسيط أن علماء المسلمين أول من اشتغل بعلم الفلك بعد اليونانيين الأقدمين وأول من ألف فيه الكتب والمصنفات الطوال وأول من أهتم اهتماما كبيرا بأنشاء المراصيد الفلكية في العالم فهم السابقون في كل علم وخير والحمد لله وهذا يفرضه عليهم واجبهم الديني والتفكر في خلق هذه الكواكب العجيبة التي خلقها الله (في ستة أيام ثم ستوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العلمين) ولا شك ان الاكثار من ذكر السموات والأرض في كتاب الله العزيز يدل على عظم شأنهما وان له سبحانه وتعالى فيهما اسرارا عظيمة وحكما بالغة فلا تصل الأفهام والعقول الى معرفة ذلك الا بتفكر دائم

(١) وقد تكلمت على بعض عجائب صنعه فيما يتعلق بالأرض أثناء كلامي على الأيات الأرضيه والآن ننتقل الى باقي هذه الأيات الكونية لنرى عجائب صنعه في خلق السماوات هذا الغطاء المبسوط بغير عمد وقد سمى الله سبحانه السموات بأسماء تدل على عظم شأنها : سماء . وسقفا .

---

(١) الفخر الرازى جـ ٢ ص : ١٠٦ ط (١) .

٢ـ سورة الاعراف الاية ٥٤

(١) محفوظا ، وسبعا طباقا وسبعا شدادا ثم ذكر عاقبة امرها * واذا السماء فرجت * واذا السماء كشطت * يوم تمور السماء مورا - فكانت وردة كالدهان * وذكر مبدأها في أيتين فقال * ثم استوى الى السماء وهي دخان * وقال جل ذكره * أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما * فهذا الأستقصاء الشديد في كيفية حدوثهما وفنائهما يدل على انه سبحانه خلقهما لحكمة بالغة كما بين ذلك سبحانه بقوله * وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا * أقول وبالله التوفيق : والسماء مع هذا قبلة الدعاء فالأيدى ترفع اليها والأوجه تتوجه نحوها وهي منزل الأنوار ومحل الصفاء والأضواء والطهاره والعصمة عن الخلل والفساد وقد قدم الله ذكر السموات على الأرض فى الآية المذكورة الكونية التى نحن بصدد الكلام عليها فقال جل ذكره * ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحي به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب

(٢) المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون * ويرى البعض من العلماء تفضيل السماء على الأرض وذلك من أوجه الأول ان الله زينها بسبعة أشياء : المصابح " * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح *

---

(١) الفخر الرازى ﺟ ٢ ص : ١٠٦ ط (١) .

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

١= سورة فصلت الآية ١١

٢= سورة الانبياء الآية ٣٠

٣= سورة ص الآية ٢٧

والقمر - وجعل القمر فيهن نورا * والشمس " وجعل الشمس سراجا * والعرش العظيم . " والقلم - ن والقلم * والكرسي * وسع كرسيه السموات والأرض * واللوح " في لوح محفوظ * اقول وبالله التوفيق : هذه الأشياء التى تقدمت ذكرها الفخر الرازى في تفسيره لهذه الآية التى تقدمت آنفا وعندى على هذ ملاحظات . أولا : ان مسألة تفضيل السماء على الأرض أو العكس لا ينبغي الجزم بشىء فيه الا بدليل قطعي وليس عندنا لأن كل ما في الأمر هو ذكر السماء ولا شك أن الأرض كذلك ذكرت كثيرا في القرآن العظيم قال تعالى * والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم * وقال جل ذكره * وهو الذى مد الأرض * وقال تعالى * والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والزينة التى زين الله بها السماء وجعلها المفسر من ميزات الفضل فان الأرض كذلك زينت بأثر المطر وما يحدث من أخضرار ومياه جاريه وعشب ونخل الى غير ذلك من زينة الأرض واما الكرسي واللوح - والقلم - فلا يعرف على وجه التحقيق هل فى السماء أم هم محيطون بهذا الكون - كما قال تعالى * وسع كرسيه السموات والأرض * وكذلك القمر فلو كان في السماء لما كان للقول بالوصول اليه معنى : وذلك يجعلنا نتأكد من عدم وجوده فى السماء لأن السماء تطلق في اللغة على كل عال كما قال تعالى * أصلها ثابت وفرعها في السماء * أى : في جهة السماء وبعد هذا التعليق البسيط نتابع الكلام على هذه الآية الكونية لنرى تصريف المالك فى ملكه وكثرة ما سخر للعباد من وسائل الحياة على وجه هذه الأرض من جرى الفلك في الماء وبث الدواب وتصريف الرياح ولا شك ان من منحه الله

١ - سورة القلم ١
٢ - سورة البقرة الاية ١٥٥
٣ - سورة النازعات الاية ٣١ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣

الانتفاع بعقله يتأكد عند اول وهله ان هذا التصريف والتسخير فى الفلك والبحار والرياح لا يقدر عليه الا من لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء وان هذه الأشياء لا بد لها من خالق يتصرف فيها ويدبر أمرها وان ذلك هو : الله الملك الخلاق القدير.

(١) يقول ابن جرير الطبرى : في الكلام على سبب نزول الآية اختلف أهل التأويل في السبب الذى من أجله انزل الله سبحانه هذه الآية على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم أنزلها عليه احتجاجا له على أهل الشرك به من عبدة الأوثان وذلك ان الله تعالى لما انزل على نبيه صلى الله عليه وسلم * وآلهكم آله واحد لا آله الا هو الرحمن الرحيم * فتلا ذلك على اصحابه وسمع به المشركون من عبدة الأوثان قال المشركون : وما الحجة والبرهان على

(٢) ما تقولون ونحن ننكر ذلك فانزل الله * ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار * الآية . احتجاجا لنبيه صلى الله عليه وسلم على الذين قالوا ما ذكرنا عنهم فهذا يعلمون انه آله واحد وانه آله كل شيء وخالق كل شيء وقال آخرون بل نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلمهم فيها ان لهم فى خلق السموات والأرض وسائر ما ذكر مع ذلك أيه بينه على وحدانيه الله وانه لا شريك له في ملكه لمن عقل وتدبر ذلك بفهم صحيح وقد كثرت الأقوال فى سبب نزول الآية وعلى ايه حال الصواب من القول فى ذلك ان الله تعالى نبه عباده على الدلالة على وحدانيته وتفرده

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى حـ ٢ ص : ٦١ ط (٢) .

(٢) نفس المصدر السابق حـ ٢ ص : ٦٤ ، ٦٥ ط (٣) .

بالألوهية دون كل ما سواه من الأشياء بهذه الآية وجائز ان تكون نزلت فيما قاله عطاء وفيما قاله سعيد بن جبير وابو الضحى ويرى ابن جرير أن لا خبر فلذا التصحيح قول أحد الفريقين .

ومعنى خلق الله الأشياء :
ابتداعه وايجاده اياها بعد ان لم تكن موجودة واختلاف الليل والنهار يعني : تعاقبهما وانما الاختلاف في هذا الموضع هو : الافتعال من خلوف كل واحد منهما الآخر كما قال تعالى * وهو

(١) الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن اراد ان يذكر أو اراد شكورا * بمعنى ان كل واحد منهما يخلف مكان صاحبه اذا ذهب هذا الليل جاء النهار بعده - واذا ذهب النهار جاء الليل خلفه ومن ذلك قيل خلف فلان فلانا فى أهله بسوء ومنه قول زهير : -

بها العين والآرام يمشين خلفة *** وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم .

والليل جمع ليلة نظير التمر جمع تمرة وقد يجمع ليال فيزيدون فى جمعها مالم يكن فى واحدتها - واما النهار فان العرب لا تكاد تجمعه لأنه بمنزلة الضوء وقد سمع فى جمعه : النهر - ولو قيل فى جمع قليله " أنهرة " كان قياسا ..

(٢) وآية السموات ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها ودل ذلك على القدرة وخرق العادة وقد اوردت بعض أدلته مما تقدم ومن هذه الآيات الباهرة التى نحن بصدد بيانها : الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس قال القرطبي : الفلك : السفن

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٢ .
(٢) تفسير القرطبي حـ ٢ ص : ١٩٤ .

وافراده وجمعه بلفظ واحد يذكر ويؤنث وليست الحركات في المفرد تلك بأعيانها في الجمع بل كأنه بنى الجمع بناء آخر يدل على ذلك توسط التثنية في قولهم فلكان والفلك المفرد مذكر قال تعالى * في الفلك المشحون * فجاء به مذكرا وقال " والفلك التي تجرى في البحر فجاء به مؤنثا ويحتمل واحدا وجمعا قال تعالى * حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة * فجمع فكأنه يذهب بها اذا كانت واحدة الى المركب فيذكر والى السفينة فيؤنث وقيل واحده فلك أسمثل أسد وأسد وخشب وخشب وأصله من الدوران ومنه فلك السماء التي تدور عليه النجوم وسميت السفينة فلكا لأنها تدور بالماء أسهل دوران ووجه الآية في الفلك تسخير الله اياها حتى تجرى على وجه الماء ووقوفها فوقه مع ثقلها وأول من عملها : نوح عليه السلام وقد استدل القرطبي بهذه الآية على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة او عبادة كالحج والجهاد ومن السنة حديث أبي هريرة قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء - الحديث - وحديث أنس بن ملك في قصة أم حرام أخرجهما الأئمة مالك وغيره . أقول وبالله التوفيق : الحديث الذى اشار القرطبي الى جزء منه هنا جاء بتمامة في كثير من كتب السنة وهذا نص عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله . انا نركب البحر ونحمل معنا (١)

---

(١) القرطبي ج ٢ ص ١٩٤ دار الكتب المصرية ط ١٣٧٢ هـ .

١ـ سورة يونس الآية ٢٢

٢ـ الموطأ ص ٢٢ والشافعي الام ج ١/١-١

٣ـ صحيح البخاري ج ٢/ ٢٢٩ ط دار المعرفة بيروت

القليل من الماء فان توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وهو الطهور ماؤه الحل ميتته) رواه الخمسة وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح الحديث أخرجه أيضا ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما وابن الجارودي في المنتقى والحاكم في المستدرك والدارقطني والبيهقي في سننهما ..

(١) وابن ابي شيبة وحكى الترمذي عن البخاري تصحيحه وتعقبه ابن عبد البر بأنه لو كان صحيحا عنده لأخرجه في صحيحه ورده الحافظ وابن دقيق العيد بأنه لم يلتزم الاستيعاب ثم حكم ابن عبد البر مع ذلك بصحته لتلقي العلماء له بالقبول فرده من حيث الأسناد وقبله من حيث المعنى . أقول وبالله التوفيق الحديث صحيح مقبول عند العلماء مع ان فيه علل كثيرة منها الجهالة سعيد بن سلمة - والمغيرة بن أبي بردة المذكورين في أسناده لأنه لم يرو عن الأول الا صفوان بن سليم ولم يرو عن الثاني الا سعيد ابن سلمة وفيه أيضا الاختلاف في اسم سعيد بن سلمة وعلل أيضا بالأرسال لأن يحي بن سعيد أرسله وبالأضطراب وقد لخص الحافظ ما قيل فيه فقال ما حاصله ومداره على صفوان بن سليم عن سعيد بن سلمه عن المغيرة بن أبي بردة عن ابي هريرة قال الشافعي : في اسناد هذا الحديث من لا أعرفه ، قال البيهقي : يحتمل انه يريد سعيد بن سلمه أو المغيرة أو كليهما ولم ينفرد به سعيد عن المغيرة فقد رواه عنه يحي بن سعيد الأنصاري الا أنه اختلف عليه فيه والمراد عندي

---

(١) نيل الأوطار جـ ١ ص : ١٥ .

هنا اعطاء نبذة عن هذا الحديث لكونه عن فى الموضوع وليس فيه خروجا عن المطلب الذى نحن فيه فان العلماء ذكروه في هذه الآية عند الكلام على تفسيرها كما بينت قريبا عن القرطبي فى استنتاجه لجواز ركوب البحر مطلقا من الآية وعند ما أوردت الحديث كما فصل المفسرون كان ضروريا اظهارها فيه من ناحيتي السند والمتن وقد حاولت عدم الاسهاب والله الموفق والهادى الى سبيل الرشاد

(١) وقد ذكر القرطبي بصيغة التمريض انه روى منع ركوب البحر عن عمر رضي الله عنه

وكذلك عمر بن عبد العزيز - والقرآن والسنة يردان هذا القول ولو كان ركوبه يكره اولا يجوز لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عنه الذين قالوا له انا نركب البحر ومعروف فى الأصول انه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة وهذه الآية وما كان مثلها نص فى الغرض واليها المرجع فيه وقد تؤول ما روى عن العمرين في ذلك بأن ذلك محمول على الاحتياط وترك التقرير في طلب الدنيا والاستكثار منها وأما فى أداء الفرائض فلا وما يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى ان الله سبحانه ضرب البحر وسط الأرض وجعل الخلق

(٢) فى العدوتين وقسم المنافع بين الجهتين فلا يوصل الى جلها الا بشق البحر لها فسهل الله سبيله بالفلك قال ابن العربي : قال ابو عمر وقد كان مالك يكره للمرأة الركوب للحج في البحر ..

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢ = ١٩٥ / ١٩٦ .

(٢) العدوة = شاطئ الوادى .

وهو للجهاد لذلك اكره والقرآن والسنة يرد ان قوله لأن بعض اصحابنا من أهل البصرة قال : انما كره مالك ذلك لأن السفن بالحجاز صغار وان النساء لا يقدرن على الأستتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها وكان الطريق من المدينة الى مكة في البحر ممكنا فلذلك كره مالك ذلك وأما السفن الكبار نحو سفن اهل البصرة فليس بذلك بأس قال والأصل ان الحج على كل من استطاع اليه سبيلا من الأحرار البالغين نساء كانوا أو رجالا اذا كان الأغلب من الطريق الأمن ولم يخص بحرا من بر قال ابو عبدالله : قلت : دل الكتاب والسنة والمعنى على اباحة ركوبه للمعنيين جميعا العبادة والتجارة فهي الحجة وفيها الأسوة الا أن الناس في ركوب البحر تختلف أحوالهم فرب راكب يسهل عليه ذلك ولا يشق وآخر يشق ويضيق عليه كصاحب الميد المفرط ومن لم يقدر معه على اداء فرائض الصلاة

(١) ونحوها من الفرائض فالأول ذلك له جائز - والثاني يحرم عليه ويمنع منه ولا خلاف بين أهل العلم ان البحر اذا هاج وارتج لم يجز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه في حين ارتجاجه ولا في الزمن الذي الاغلب فيه عدم السلامة وانما يجوز عندهم ركوبه في زمن تكون السلامة فيه الأغلب فان الذين يركبونه حال السلامة وينجون لا حصر لهم والذين يهلكون فيه محصورون وأرى انه لا داعي للخلاف في ركوبه بعد ان تقدمت الناس وتقلبت على أخطاره قوله تعالى في هذه الآية * بما ينفع الناس * أي : بالذي ينفعهم من التجارات وسائر المآرب

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٢ ص ١٩٦ .

التي تصلح بها أحوالهم وبركوب البحر تكتسب الأرباح وينتفع من يحمل اليه المتاع أيضا هذا قول ابي عبدالله القرطبي في تفسيره ، وقال ابن جرير الطبرى في تفسير (١) قوله تعالى : * بما ينفع الناس * فيجعل المعنى ما ينفع الناس في البحر قال في روح المعاني في الكلام على تفسير جرى الفلك في البحر ويختلف جريانها شرقا وغربا على حسب تسليك المقادر الالهية لها في هاتيك المسالك وقال في قوله تعالى * بما ينفع الناس * وهو : انزال المطر ونشر ما كان دفينا في الأرض بالأحياء وفي ذلك النفع التام والفضل العام أقول وبالله التوفيق بعد ان بينت اقوال العلماء في هذه الآية بقي على بيان كيفية الاستدلال بجريان الفلك في البحر على وجود الله وهي كما قال : الفخر الرازى من أوجه :

(٢) احدها : ان السفن وان كانت من تركيب الناس الا أنه تعالى هو الذى خلق الآلات التي بها يمكن تركيب السفن فلولا خلقه لها لما أمكن ذلك وكذلك بفضل الله سخر الرياح فصارت عونا لنا على تحريكها ليتكامل النفع بها . وثانيا قوى سبحانه قلوب الناس لركوبها ولو خاف الانسان وضعف قلبه ما ركبها عندئذ فلا توجد فيها المصلحة الحاصلة الآن للعباد وقوام أمر منافعهم وتجارتهم . وثالثا انه خص كل طرف من أطراف العالم بشيء معين واحوج الكل الى الكل فصار ذلك داعيا يدعوهم الى اقتحامهم هذه الأخطار في هذه الأسفار

---

(١) تفسير الطبرى حـ ٢ ص : ٦٤ ط (٣) .

(٢) تفسير الفخر الرازى حـ ٤ ص : ٢٢٢ .

ولولا أنه سبحانه خص كل طرف بشيء وأحوج الكل اليه

(١) لما ركبوا هذه السفن فالحامل ينتفع به لأنه يربح والمحمول اليه ينتفع بما حمل اليه . رابعا : تسخير الله للبحر لحمل الفلك مع قوة سلطان البحر اذا هاج وعظم الهول فيه اذا ارسل الله الرياح فأضطربت امواجه وتقلبت مياهه أقول وبالله التوفيق يكفينا هنا ما في البحار من الحيوانات العظيمة ثم ان الله تعالى يحفظ السفن عنها ويخلصها الى شواطيء النجاة والسلامة وكذلك ما في البحار من هذا الأمر العجيب وهو قوله تعالى :

(٢) ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ وقال : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج) ثم انه تعالى بقدرته يحفظ البعض عن الأختلاط بالبعض وكل ذلك مما يرشد العقول السليمة الى الأفتقار الشديد الى مدبر يدبر أمرها وقادر يحفظها ويرى الفخر الرازى على ان قوله تعالى ﴿ بما ينفع الناس ﴾ دال على اباحة ركوبها وعلى اباحة الأكتساب والتجاره والأنتفاع باللذات ومعنى ذلك عنده أنه وصف للسفينة وبعد أن قدمت الكلام على جرى الفلك في البحر وسيرها بما ينفع الناس وبينت اقوال العلماء المفسرين في هذا الموضوع ننتقل الى النقطة الأخرى وهي : انزال المطر من السماء لنرى عجائب أخرى تجبر صاحب العقل السليم على الخوف من الحي القيوم الذى خلق الكون على هذا النظام الدقيق المحكم الذى ٣ــ لا يقدر قدره وصدق الله العظيم ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ قوله

---

(١) الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٢٢ ط (١) .

(٢) سورة الرحمن الآية : ١٨ .

٣ = سورة الزمر الاية ٦٧

تعالى * وما انزل الله من السماء من ماء فأحي به الأرض بعد موتها * أعلم ان دلالة المطر وانزالة على قدره الله ووجوده تعالى من وجوه احدها ان تلك الأجسام وما قام بها من صفات الرقة والرطوبة والعذوبة لا يقدر أحد على خلقها الا الله تعالى .

(١) قال تعالى : * قل ارايتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين * وثانيا انه تعالى جعله سببا لحياة الأنسان وتوقف سبل الحياة مع عدم وجوده قال تعالى * وجعلنا من الماء كل شيء حي * ، وقال تعالى مذكرا

(٢) عباده بنعمة انزال المطر * أفرايتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن ام نحن المنزلون * والماء كما انه سبب لحياه الأنسان سبب لرزقه كذلك قال تعالى * وفي السماء رزقكم وما توعدون * ثالثا ان السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التى تسيل منها الأودية العظام تبقي معلقة في جو السماء وذلك من الآيات العظام . رابعا ان نزولها عند التضرع واحتياج الخلق اليه مقدر بمقدار النفع وذلك من الآيات العظام أيضا مع انه يؤمر بالتوجه الى البلاد الميتة قال تعالى * فسقناه الى بلد ميت * وماتكسي به الأرض من زينة بعد نزول المطر أية اخرى قال جل ذكره * فاذا انزلنا عليها الماء

(٣) اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج * يقول السيد قطب كل هذه مشاهد لوعاد الأنسان تأملها لما يوحي القرآن للقلب المؤمن

---

(١) سورة الملك الآية : ٣٠ .

(٢) الفخر الرازى حـ ٤ ص ٢٢٢ ط (١) .

(٣) في ظلال القرآن حـ ٢ ص ٥١ ط (١) .

بعين مفتوحة وقلب واع لرجف كيانه من عظمة القدرة ورحمتها هـذه الحياة التى تدب في الأرض من اين جاءت ؟ كانت كامنة فى الحبة والنواة ولكن من أين جاءت الى الحبه والنواه ؟ أصلها ؟ مصدرها الأول انه لاجدوى للهرب من مواجهة هذا السؤال الذى يلج على الفطرة قال أبو حيان : كنى بالأحياء عن سرعه ظهور ما أودع فيها من النبات وبالموت عن استقراره فيها وعدم ظهوره وهما كنايتان غريبتان لأن ما برز فيها بالمطر يجعل تعالى فيه القوه الغذائيه والنامية والمحركة وما لم يظهر ، فهو كامن فيها كأنه

(١) دفين فيها وهي له قبر قال السيد قطب لقد حاول الملحدون - تجاها هذا السؤال الذى لا جواب عليه الا وجود خالق قادر على اعطاء الحياه للموات وحاولو طويلا أن يوهموا الناس أنهم فى طريقهم الى انشاء الحياة بلا حاجة الى آله ثم أخيرا اذا هم فى أرض الألحاد والجاحد الكافرينتهون الى نفض أيديهم والأقرار بما يكرهون : استحالة خلق الحياة وأعلم علماء

(٢) روسيا فى موضوع الحياه هو الذى يقول هذا الآن : ومن قبل راغ دارون صاحب نظرية النشوء والأرتقاء من مواجهة هذا السؤال

(٢) وقد تعرض الفخر الرازى لحياة الارض ونزول المطر بشيء من التفصيل والرد على بعض ما قد يرد من التساؤلات حول نزول المطر فقال : فان قيل أفتقولون ان الماء ينزل من السماء على الحقيقة أو من السحاب او تجوزون ما

-----

(١) البحر المحيط لابي حيان جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن جـ ٢ ص ٥١ .

(٣) الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٢٣ ط (١) .

قاله بعضهم من أن الشمس تؤثر في الأرض فيخرج منها ابخـــرة متصاعدة فاذا وصلت الى الجو البارد بردت فثقلت فنزلت من فضـاء المحيط الى ضيق المركز فاتصلت فتولدت من اتصال بعض تلك الذرات بالبعض قطرات المطر قلنا بل نقول انه ينزل من السماء كما ذكره الله تعالى وهو الصادق في خبره واذا كان قادرا على امساكه في السحاب فأى بعد أن يمسكه في السماء أقول وبالله التوفيق : لا شك ان المطر ينزل من السماء والسماء في اللغه لا تطلق على السقف المحفوظ فقط بل تطلق على كل عال فوقنا وقد قدمت بعض الأدلة على هـــذه النقطة من ضمنها قوله تعالى ﴿ أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ أى : في جهة السماء وسواء كان المطر في السماء وأمسكه اللـه فلا غرابة في الموضوع فالله سبحانه هو الذى يمسك السماء أن تقـع على الأرض " والطير في السماء ما يمسكهن الا الله " والذى يهمنا هو الاتعاظ بنزوله وتكوينه .

أما كيف ينزل وكيـــف يتكون وكيف يرتفع وينخفض فهذا شـــيء ليس فيه كبير فائدة فوق الاتعاظ وهو حاصل لمن نور الله قلبه بـــدون معرفة تلك الأسباب الخفية العائدة الى قدرته تعالى قال ابن جرير :(١) قوله تعالى ﴿ وما انزل الله من السماء من ماء ﴾ يعنى به الأمطار التى بها انعاش العالم واخراج النبات والأرزاق وجعل منه المخزون عدة للانتفاع في غير وقت نزول المطر ونحن نسلم ان المطر هو البخار المتصاعد ولا يقدح ذلك في قدرة الله الذى وضع السنن ولن تجد لسنة الله تبديـــلا ولا تحويلا قال ابو حيان في البحر ..

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ١٩١ .

(١) عند تفسيره للآية التي نتكلم عليها حاليا قوله : ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ ، أى : من جهة السماء من الأولى لابتداء الغاية يتعلق بأنزل وفي أنزل ضمير نصب عائد على ماء ، أى : والذى أنزله الله من السماء ، ومن الثانية مع مابعدها بدل من قوله : ﴿من السماء بدل اشتمال فهو على نية تكرار العامل أو لبيان الجنس عند من يثبت ذلك أى : يثبت لها هذا المعنى . أو للتبعيض ، ويتعلق بأنزل ولا يقال كيف تتعلق بأنزل من الأولى والثانية لأن معناهما مختلفان وقال محمود الألوسي

(٢) في تفسيره روح المعاني : المراد من السماء جهة العلو ، ويرى محمود الألوسي ان من الثانية بيانية وجوّز أن تكون تبعيضية وان تكون بدلا من الأولى ، أقول وبالله التوفيق : سواء جعلنا من للتبعيض أو البيان أو البدل ، فالأمر واضح من سياق الآية ومافيها من امتنان على العباد بهذه الرحمة ، ولا داعي للاطالة في الخلافات النحوية اذا لم تكن مبنية على تقدير محذوف يزيد المعنى ويقربه للفهم اذا كانت فيه صعوبة . والله أعلم .

وأنتقل الى النقطة الأخرى من هذه الآية التي هي : احياء

(٣) الأرض وبث الدواب فيها ، قوله تعالى : ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ الآية قد قدمت الكلام على جرى الفلك وما في ذلك من المنافع وانزال المطر وما استنتجه العلماء من أحكام فيما مر من الآية والعجائب الكامنة في خلق هذا الكون ،

---

(١) تفسير البحر المحيط : ١/٤٦٥ ، ابو حيان .
(٢) روح المعاني : ٢/٢ .
(٣) سورة البقرة : آية " ١٦٤ " .

والآن نتكلم على كيفية احياء الأرض بعد المطر وبث الدواب وما هي هذه الدواب من خلال ما تطلبه الآية الكريمة ، قال الفخر الرازي : (١)
اعلم ان هذه الحياة من جهات أحداها ظهور النبات الذى هو الكلأ والعشب وما شاكلهما مما لولاه لما عاشت دواب الأرض ، وثانيها : انه لولاه لما حصلت الأقوات للعباد ، وثالثها : انه تعالى ينبت كل شيء بقدر الحاجة لأنه تعالى ضمن أرزاق الحيوانات بقوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ﴾ . ورابعها : انه يوجد فيه من الألوان والطعم والروائح مايصلح لكل الدواب ومايصلح للملابس لأن ذلك كله مما لا يقدر عليه الا الله سبحانه . وخامسها : انه يحصل للأرض بسبب النبات حسن ونضرة ، ورونق فذلك هو : الحياة ، ووصفه سبحانه ذلك بالأحياء بعد الموت مجازا لأن الحياة لا تصح الا على من يدرك ويصح أن يعلم . (٢)
وكذلك الموت الا أن الجسم اذا صار حيا حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء والنشو ، والنماء ، فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء وهذا من فصيح الكلام الذى على اختصاره يجمع المعاني الكثيرة . أقول وبالله التوفيق : لا شك أن احياء الأرض بهذه الكيفية يدل على الصانع دلالة لا شك بعدها لأن نفس الزرع لا يقدر احد على اخراجه ولا يعرف أحد العدة التي يخرج عليها ولا القدر الذى يخرج به من الأرض وكذلك الحجم الذى يخرج به هذا بالاضافة الى اختلاف الألوان والطعم ، والحجم ، والرطوبة ، واليبوسة والنعومة الى غير ذلك مما لا يحصه العادون ، ومع (٣)

---

(١) الفخر الرازي : ٢٢٤/٤ .
(٢) المصدر السابق : ٤/٤ .
(٣) تفسير الطبري : ٦٤/٢ .

انه سبحانه سخر لنا الأرض تنبت هذه الأشياء كذلك سخر لنا ماعليهـا من أنعام فيها لنا مطاعم ومآكل ومنها جمال ومراكب ، وأثاث وملابس ويرى ابن جرير ان هذا هو : " معنى وبث فيها من كل دابة " كما يرى ان احياء الأرض عمارتها لأن موتها خرابها ودثور عماراتها ، وانقطاع نباتهـا الذى هو : للعباد أقوات وللأنام أرزاق ، وقال محمود الألوسي : فـي (١) قوله : " فأحيا به الأرض بعد موتها " قال بتهييج قواها النامية واظهار ما أودع فيها من أنواع النبات والأزهار والاشجار " بعد موتها " وعـدم ظهور ذلك فيها لاستيلاء اليبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها ،

أقول وبالله التوفيق : هذه الأشياء كلها خارقة للعادة دالـة على قدرة الله تعالى جعلنا الله من المنتفعين بها وبأسلوب هذا الذكـر (٢) الحكيم الواقفين عند أوامره وزواجره - وانتقل الى النقطة الأخرى - بـث الدواب وتصريف الرياح كما أملت الآية ، قوله تعالى : * وبث فيها من كل دابة * .

البث : معناه : فرق وبسط .

والدابـة : تجمع الحيوان كله .

قال الفخر الرازى في الكلام على هذه الفقرة من الآية * بث فيها من كل دابة * نظيره جمع الآيات الدالة على خلق الانسان وسائر الحيوانات (٣) لقوله تعالى : * وبث منهما رجالا كثيرا ونساء * .

---

(١) روح المعاني : ٢/ ٣٢ .

(٢) جواهر الحسان في تفسير القرآن : ١/ ١٢٦ .

(٣) الفخر الرازى : ٤/ ٦٤ .

(١) قال محمود شكري الألوسي : " بث فيها من كل دابة " عطف اما على " أنزل " ، والجامع كون كل منهما آية مستقلة لوحدانيته تعالى وهو : الغرض المسوق له الكلام مع الاشتراك في الفاعل ، و " أحيا " من تتمة الأول كأن الاستدلال بالأنزال المسبب عنه الاحياء فلا يكون الفصل به مانعا للعطف ، أما على أحيا ، فتدخل تحت فاء السببية ، وسببية انزال الماء للبث باعتبار ان الماء سبب حياة المواشي والدواب - والبث فرع الحياة ولا يحتاج الى تقدير الضمير للربط لاغناء فاء السببية عنه في المشهور ، وقيل يحتاج الى تقدير به ، أي : بالماء " ليشعر بارتباطه " بأنزل " استقلالا كأحيا ، وفاء السببية لا تكفي في ذلك اذ يجوز أن يكون السبب مجموعهما وحديث ان المجرور انما يحذف ان جر الموصول بمثله اكثرى لا كلي - ومن بيانية على التقدير الأول على الصحيح والمراد من كل دابة " كل نوع من الدواب . ويرى الفخر ان معنى بثها : تكثيرها بالتوالد والتولد ، فالاستدلال بتكثير كل نوع مما يدب على الأرض وعدم انحصاره في البعض . وقيل : تبعيضية لأن الله تعالى لم يبث الا بعض الدواب بالنسبة لما في قدرته على انه أثبت الزمخشري الدواب في السماء أيضا في سورة " حم عق " واذا كنت

(٢) أعطيت نبذة عن البث وقلت : ان معنى وبث : فرق ونشر ومنه قوله : ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ فانه لابد من التعرض لمعرفة معنى " من كل دابة " ، قال ابو عبد الله القرطبي : دابة تجمع الحيوان كله وقد أخرج بعض الناس الطير وهو : مردود قال تعالى : ﴿ ومامن دابة في الارض الا على الله رزقها ﴾ فان الطير يدب على رجليه في بعض حالاته قال

---

(١) تفسير الألوسي : ٢ / ٣٢ .
(٢) روح المعاني : ٢ / ٣٢ .

الأعشى : " دبيب قطا البطحاء في كل منهل " وقال علقمة : صواعقها (١)
الطير هن دبيب " ، قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى : قولـــــه :
* بث فيها * فرق فيها من قول القائل " بث الأمير سراياه " ،
يعني : فرق ، والهاء والألف في قوله " فيها " عائدتان على الأرض ،
والدابة الفاعلة من قول القائل : " دبت الدابة تدب دبيبا فهي دابـــــة
والدابة اسم لكل ذى روح كان غير طائر ، بجناحيه ، لدبيبه على الأرض .

أقول وبالله التوفيق : الطير وان كان يطير فان مصيره ومرجعـــه
ومسكنه وقوته في الأرض فلا يخرجه الطيران بعض الأوقات من اطلاق الدابـــة
عليه كما أشار له القرطبي وهو الصحيح الذى لا ينبغي العدول عنه واللـــه
أعلم ، واخراج الطبرى له هنا من لفظ الدابة لطيرانه نظرا لقوله تعالى :
* ومامن دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم * ،
فاقتضى العطف المغايرة عنده مع قوله * ومامن دابة في الارض الا وعلــى
الله رزقها * وقد قدت هذا النص قريبا مستدلا به القرطبي على ان الطير (٢)
داخل في لفظ الدابة وظاهر هذه الآية العموم ومعناها الخصوص لأن
كثيرا من الدواب هلك قبل أن يرزق ، وقيل عامة في كل دابة ، وكل دابة
لم ترزق رزقا تعيش به فقد رزقت روحها ، وخلص القرطبي هنا الى ان الدابة
كل مايدب وحقيقة الرزق كل مايتغذى به الحي ويكون فيه بقاء روحه ونمـــاء
جسده ، والمراد عندى هنا ان الدابة داخل فيها الطير والرزق يشمل
الروح والله أعلم بمراده .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢ / ١٩٦ .
(٢) تفسير القرطبي : ٩/٦ .

وبعد أن رأينا مارأينا من أقوال العلماء في الفقرات التي مرت آنفا ننتقل الى الفقرة الأخيرة ، وهي : تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض من الآيات العظام الدالة على قدرة الله تعالى (١) في تصريف الرياح وذلك أنها مخلوقة على وجه يقبل التصريف وهو : الرقة واللطافة ، ثم أنه سبحانه يصرفها على وجه يقع به النفع العظيم للأنسان والحيوان والنبات ، قال الفخر الرازى في تعداده لهذا النفع : وذلك من وجوه احدها : انها مادة النفس الذى لو انقطع ساعة عن الحيوان لمات . وقيل فيه أن كل ماكانت الحاجة اليه أشد كان وجدانه أسهل ، ولما كان احتياج الانسان الى الهواء أعظم الحاجات حتى لو انقطع عنه لحظة لمات لاجرم كان وجدانه أسهل من وجدان كل شيء . وبعد الهواء الماء فان الالات المهيأة لجذبه حاضرة ابدا ، وبعد أدلة كثيرة أثبت الفخر ان (٢) كل ماكان الاحتياج اليه أشد كان وجدانه أسهل وكل ماكان الاحتياج اليه أقل كان وجدانه أصعب ، وماذاك الا رحمة منه على العباد . وتصريف الرياح ارسالها عقيمة وملقحة وصرا ونصرا ، وهلاكا وحارة وباردة ، ولينة وعاصفة ، وقيل تصريفها - ارسالها جنوبا وشمالا ودبرا ، وصبا ونكباء وهي : التي تأتي بين مهبي ، وقيل تصريفها ان تأتي السفن الكبار بقدر ماتحملها والصغار كذلك ، .

أقول وبالله التوفيق : تصريفها صالح لهذه الأمور كلها لأن الله سبحانه هو الذى يصرفها من الجنوب للشمال ومن الشرق للغرب وكذلك هوالذى يرسلها للبواخر بقدر الحاجة والانسان والدواب فلا غنى لشيء مخلوق عنها وهي اذا اشتدت ضرت واذا ضعفت ضرت والقدر

---

(١) الفخر الرازى : ٢/٢٢٦.

(٢) القرطبي : ٢/١٩٦ .

(١) والقدر المختار هو الذى يأتي به العزيز الجبار ، وقد جاءت في القرآن مفردة ومجموعة وقد تعرض العلماء لكيفية ذلك الافراد والجمع وبالأخص القراء الحفاظ ، فالحافظ ابن كثير قرأ الرياح على الجمع في خمسة مواضـــع : ههنا ، أى : في هذه الآية رقم " ١٦٤ " من سورة البقرة ، وفي الحجـــر قوله تعالى * وأرسلنا الرياح لواقح * وفي الكهف آية " ٢٦ " * تذروه الرياح* وفي الروم : آية " ٤٦ " * الرياح * وفي الجاثيـة آية " ٤ " * وتصريف الرياح * وقرأ باقي القرآن الريح " وقرأ أبو جعفر الرياح " في خمسة عشر موضعا وتابعه نافع الا في السبحان - ورياح سليمان " الأنبياء " ٨١ ، وثمرة الخلاف ان من جمع فكل ريح تساوى أختها

(٢) في الدلالة على التوحيد والنفع ومن وحد أراد الجنس لأنه اسم للجنس يدل على القليل والكثير ومن جمع فلأختلاف الجهات التي تهب منها الرياح ومن جمع مع الرحمة ووحد مع العذاب فانه فعل ذلك اعتبارا بالأغلب في القرآن ،

(٣) والرياح جمع ، قال أبو علي : الريح اسم على فعل والعين منه واوا تقلبت في الواحد الكسرة ياء فانه في الجمع القليل أرواح وذلك لأنه لا شيء فيـــه يوجب الاعلال ألا ترى أن سكون الراء لا يوجب الأعلال كالواو في قوم - وقول - وفي الجمع الكثير - ورياح انقلبت الواو ياء للكسرة التي قبلها نحو : ديمـــة وديم - وحيلة وحيل ، قال ابن الانبارى: انما سميت الريح ريحا لان الغالب عليها في هبوبها المجيء بالروح والراحة ، وانقطاع هبوبها يكسب الكـــرب

(٤) والغم فهي مأخوذة من الروح ، والدليل على أن أصلها الواو قولهم في

---

(١) زاد المسير في علم التفسير : ١ / ١٦٨ - ١٦٩ .
(٢) زاد المسير في علم التفسير : ١٦٩/١ / ط : اولى .
(٣) تفسير الفخر الرازى : ٢٢٧/٤
(٤) تفسير الكشاف : ٢٤٢/١

الجمع أرواح ، وعلى أية حال تصريف الرياح في مهابها آية عظيمة لمن تفكر أو تدبر عظم الرياح وخفتها وقوتها مع ذلك فلا يتحكم في مثل هذا سوى الله الواحد القهار ، قال أبو حيان في البحر : وقد تكلموا في (١) أنواع الريح واشتقاق أسمائها وفي طبائعها وفيما جاء فيها من الآثار وفيما قيل فيها من الشعر وليس ذلك من غرضنا . والريح جسم لطيف شفاف غير مرئي ومن آياته ماجعل الله فيه من القوة التي تقلع الأشجار وتعفي الآثار وتهدم الديار وتهلك الكفار ، ومع هذا فوائدها لا تحصى منها تربية الزرع وتنميته واشتداده بها ، وسوق السحاب الى البلد الماحل ، وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب الا في يونس في قوله تعالى : * وجرين بهم بريح طيبة * وقد ورد في الحديث " اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا " قال ابن عطية لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد وريح الرحمة لينة متقطعة فلذلك هي : رياح وهو معنى ينشر وأفردت مع الفلك لأن ريح اجراء السفن انما هي (٢) واحدة متصلة ثم وصفت بالطيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب ،

أقول وبالله التوفيق : قد قدمت قريبا ان من قرأ بالتوحيد اراد الجنس وهنا نضيف انها كقراءة الجمع ، والرياح في موضع رفع فيكون التصريف مصدرا مضافا للفاعل أى : وتصريف الرياح السحاب أو غيره مما لها فيه - تأثير باذن الله ويحتمل أن يكون في موضع نصب فيكون المصدر في المعنى مضافا الى الفاعل وفي اللفظ مضافا الى المفعول ، أى : وتصريف (٣)

---

(١) البحر المحيط : ١/ ٢٦٧ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان : ١/ ٢٦٧ ، زاد المسير في علم التفسير : ١/ ١٦٩ .

(٣) تفسير الفخر الرازى : ٤/ ٢٢٧ .

(١) وتصريف الله الرياح ، قال القرطبي : الرياح جمع ريح سميت به لأنهـا تأتي بالروح غالبا ، روى أبو داود عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب

(٢) فاذا أريتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها "

أ ـ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : " لا تسبوا الريح فانها من نفـس الرحمن والمعنى ان الله تعالى جعل فيها التفريج والتنفيس والترويح ، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم

ع ـ انه قال : " نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور ويعترض ابن جرير علـى من يرى أن معنى " تصريف الرياح " انها تأتي جنوبا وشمالا وقبولا ودبورا ، كما قدمنا . ومن يرى هذا المعنى يقول : وذلك تصريفها ثم يقول ابن جرير: وهذه الصفـة التي وصف الرياح بها صفة تصرفها لا صفة تصريفها لأن تصريفها تصريف الله لها ، وتصرفها : اختلاف هبوبها وقد يجوز أن يكون معنى قوله : " وتصريف الرياح " تصريف الله هبوب الرياح باختـلاف مهابها .

أقول وبالله التوفيق : كل هذه المعاني قد قدمت انه واقـــع ولا مانع منه وت ومتوفر في الرياح فهي تهب من جميع الجهات وتأتي حـارة

(٣) وباردة ورحمة وعذابا فكل المعاني موجود فيها والله أعلم بمراده .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٩٧/٢ .

(٢) أخرجه احمد في المسند وابن ماجه عن ابي هريرة وقال المناوى : انه صحيح ، ورواه الشافعي في مسنده ص (٤٧) باسناد صحـيح مشكات المصابيح : ١/٠. .

(٣) ابن جرير الطبرى : ٢/٦٤-٦٥ .

أـ المستدرك ج ٢ / ٢٧٢

ع ـ مسلم ج ٢ ص ٦١٧ ، ٩٤٣ عن ابن عباس

وأنتقل الى النقطة الأخيرة من الآية الكريمة ، قوله تعالى :
﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ ، السحاب
جمع سحابة ، يدل على ذلك قوله : ﴿ وينشيء السحاب الثقال ﴾
فوحد المسخر وذكره كنخلة - ونخل وتمرة وتمر - وانما قيل للسحاب
سحاب لجر بعضه بعضا وسحبه اياه من قول القائل : مر فلان يجر ذيله : (١)
يعني : يسحبه ، وقيل : سمي السحاب سحابا لانسحابه في الهواء ،
ومعنى التسخير : التذليل ، وانما سمي مسخرا لأوجه : أحدها :
ان طبع الماء ثقيل يقتضي النزول فكان بقاؤه في جو الهواء على خلاف
الطبع فلا بد من قاهر يقهره على ذلك فلذلك سماه بالمسخر .
الثاني : ان هذا السحاب لو دام لعظم ضرره من حيث انه يستر ضوء الشمس،
ويتراكم الامطار يغمر الماء الأرض فلا يصلح حرث ولا نبات ، ولو انقطع لعظم
ضرره أيضا لأن ذلك يؤدي الى القحط وقلة العشب فكان تقديره بالمقدار
المعلوم ، هو المصلحة ، قال جمال الدين في كتابه : زاد المسير : في (٢)
الكلام على الآية وهي قوله : ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾ ،
المسخر : المذلل ، والآية فيه من اربعة أوجه ، ابتداء تكوينه ، وانتهاء
تلاشيه ، وقيامه بلا دعامة ولا علاقة ، وارساله الى حيث شاء الله .
والمسخر بين السماء والأرض صفة - للسحاب - باعتبار لفظه ، وقد يعتبر
معناه فيوصف بالجمع كقوله : ﴿ سحابا ثقالا ﴾ ومعنى تسخيره : انه لا ينزل (٣)
ولا يزول مع ان الطبع يقتضي صعوده ان كان لطيفا وهبوطه ان كان كثيفا ،

---

(١) ابن جرير الطبري : ٢/٦٤ - ٦٥ .
(٢) الفخر الرازي : ٤/٢٢٨ .
(٣) زاد المسير في علم التفسير : ١/١٦٩ .

وقيل : الظرف مستقر وقع حالا من ضمير المسخر ومتعلقه محذوف ، أى : المسخر للرياح حيث تقلبه في الجو بمشيئة الله تعالى وتعقيب تصريف الرياح بالسحاب لأنه كالمعلول للرياح كما يشير اليه قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح فتثير سحابا ﴾ ولأن في جعله ختم المتعاطفات مراعاة في الجملة لما بدأ به منها لأنه أرضي سماوى ينتظم بدء الكلام وختمه ثم قال الألوسي : وبما ذكرنا علم وجه الترتيب الخارجي للأشعار باستقلال كل من الأمور المعدودة في كونها آية ولو روعي الترتيب الخارجي لربما توهم كون المجموع المرتب بعضه على بعض آية واحدة وختم الكلام بقوله : ولا يخفى انه يبعد هذا التوهم ظاهر قوله تعالى : ﴿ لآيات ﴾ اسم ان دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتعظيم كما وكيفا أى : آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاصه بالألوهية سبحانه قوله ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أى : يتفكرون ، فالعقل مجاز عن التفكير الذى هو ثمرته .. (١)

أقول وبالله التوفيق : من تأمل في الآيات التي مرت وشرحها وماقاله العلماء فيها ما تيسر وجد كلا منها مشتملا على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به . ومجمل القول في ذلك ان كل واحد من هذه الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ماعداه متبعا لآثار معينة واحكام مخصوصة من غير أن تقتضي ذاته وجوده فضلا عن وجوده على النمط الكذائي فاذن لابد له من موجد لامتناع وجود الممكن بلا موجد قادران

---

(١) تفسير روح المعاني : ٢/ ٣٣ .

١ = سورة الروم الآية ٤٨

شاء فعل وان شاء ترك ، حكيم عليم بحقائق الأشياء ومافيها من المفاسد والمصالح يوجده حسبما يستدعيه علمه بما فيه من المصلحة وتقتضيه مشيئته وبهذه الخاتمة عن حكمته سبحانه وفضله نختم الآيات الأرضية والسماوية ونبدأ بالفصل الثاني في التطبيق وأوله الباب الأول في احلال المعرفة والنظر محل التقليد والعرف الخاطئ•

الباب الثاني في بيان التطبيق للحرم العقل على ضوء توجيه الكتاب والسنة

الفصل الأول

" في احلال المعرفة والنظر محل التقليد والعرف الخاطيء "

(١) التعريف : حل العقدة : فتحها فانفتحت ، وبابه : رد يقال : ياعاقدا اذكر حلا ، وحل بالمكان حلولا من باب : رد . ومحلا أيضا بفتح الحاء ، والمحل : المكان الذى يحل به ، وحللت القوم ، وحللت بهم بمعنى والحل بالكسر الحلال وهو ضد الحرام ورجل حل من الأحرام أى : حلال ، يقال هو : حل وحرم ، ولم يذكر الجوهرى في حرم أن الحرم بمعنى المحرم - ومحل ومحرم . وقوم حلة أى : نزول وفيهم كثرة ؛

(٢) وقوله تعالى : ﴿ حتى يبلغ الهدى محله ﴾ الموضع الذى ينحر فيه ومحل الدين : أجله - وحل العذاب : يحل بالكسر حلالا أى : وجب،

(٣) ويحل بالضم حلولا نزل وقرىء بهما قوله تعالى : ﴿ فيحل عليكم غضبي ﴾ وأما قوله : ﴿ أو تحل قريبا من دارهم ﴾ بالضم ، أى : ينزل وأحل خرج الى الحل أو خرج من ميثاق كان عليه وأحل دخل في شهور الحل كأحرم وحل في شهور الحرم وما قبل الاخير ، هو غرضنا هنا الذى أوردنا له هذا التعريف لأن البحث عندى في الخروج من حال غير لائقة الى حال طيب لائق حسن ، وأتيت بهذا التعريف لأن الغرض احلال المعرفة والنظر محل التقليد والعرف الخاطئين وذلك يقتضي الخروج من ميثاق كان عليه الانسان

---

(١) المختار الصحاح : ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية " ٦ " .

(٣) سورة الرعد : الآية " ٣١ " .

٤ = سورة طه ٨١

الى آخر ماقال صاحب الصحاح : وأحل خرج من ميثاق كان عليه الانسان ، أما عن العرف ، فتعريفه ينحصر في قولهم : عرفه يعرّفه عرفانا بالكسر والعرف : الريح الطيبة كانت أو منتنة ، والمعروف : ضد المنكر ، أما النظر والنظران بفتحتين فهو : تأمل الشيء بالعين وقد نظر الى الشيء ، والنظر أيضا : الانتظار ، يقال : نظره ينظره بالضم نظرا ، والناظر في المقلة السواد الاصغر الذى فيه انسان العين - ويقال للعين الناظرة ، والنظرة بالكسر : التأخير ، وانظره : أخره ، واستنظره : استمهله ، والناظرة من المناظرة وفي آخر تعريف لهذه المفردات أى : مفردات الفصل ، الخطأ وهو : ضد الصواب ، وبالتحليل اللغوى لمفردات عنوان الفصل يتبين أن هذا التركيب يفيد الانتقال والخروج من ثوب الشقاء الى ثوب العز والكرامة ونبذ الجمود والعادة القبيحة والدخول في الاسلام ، والتمسك بحبله المتين والميل عن الخطأ الى الصواب. والنظر والتفكر في الطرق السليمة السديدة ، والتمسك بعقيدة الاسلام لأن الاسلام دعا الى (١) هذه الأمور كلها وجاء بعقيدة سمحة صافية بيضاء نقية في ذات الله تعالى وفي حق رسله الكرام ، فالله رب العالمين واحد أحد فرد صمد ليس له ولد ولا والد ، له جميع صفات الكمال ، ومنزه عن جميع صفات النقص ، " لا ذاته تشبهها الذوات ، ولا حكت صفاته الصفات ليس كمثله شيء وهو (٢) السميع البصير " وهو جل وعلا قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم " ولا يشغله شأن عن شأن له مافي السموات ومافي الارض ومابينهما وماتحت الثرى) (٣) ،

---

(١) البيان في علوم القرآن : ص ١٤٢ .

(٢) سورة الشورى : الآية " ١١ " ، المعجم المفهرس : ص ١٢٢ .

(٣) سورة طه : الآية " ٦ " .

هو الخالق المنفرد بالخلق والايجاد - وبيده ناصية العباد يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهو على كل شيء قدير ، الكل خلقه والجميع عبيده " ان كل من في السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا " .

(١) قال تعالى : ﴿ انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شيء علما ﴾

(٢) وقال جلّ ذكره ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من ذل وكبره تكبيرا ﴾ ، وقال ﴿ يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد ﴾ والآيات في هذا المجال لا تحصى عددا دالة على انه سبحانه هو المتفرد بالوحدانية المستحق للعبادة الفعال لما يريد ، قال تعالى : ﴿ فعال لما يريد ﴾ وهذه هي عقيدة الاسلام وهي التي يقرها القرآن ، وقد ضلت عنها اليهود والنصارى فضل اليهود بعد موسى فعبدوا عجلا وزعموا أن لله ابنا هو : عزير وشبهوا الله بالانسان فزعموا انه تعب من خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وقالوا عن انفسهم انهم ابناء الله واحباؤه وان الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس وان النار لن تمسهم الا أياما معدودة هي مدة عبادتهم للعجل اربعين يوما ، كما افتروا على المسيح " عيسى " فزعموا انه ابن زنى وان امه زانية وانهم صلبوه ليطهروا بني اسرائيل من هذه الجريمة الشنيعة كل هذا وامثاله كثيرة من أباطيل وأضاليل اليهود جاء القرآن

(٣) هادما لهـــــا : ضل النصارى كذلك فزعموا ان لله

---

(١) سورة الاسراء : الآية " ١١١ ".

(٢) سورة طـه : الآية " ٤ " المعجم المفهرس : ص ٦١٦

(٣) روائع البيان في علوم القرآن : ص ١٤٢ .

١ = سورة مريم الاية ٩٢

ولداً وذهبوا الى عقيدة معقدة من الأيمان بالتثليث الأب - والأبن - وروح القدس . وسموها بالأقانيم وكل منهما عين الآخر الثلاثة وأحد والواحد ثلاثة وخلعوا على رجال كهنوتهم ماهو حق لله وحده من التشريع والتحليل والتحريم وزعموا أن الابن الاله " صلب ليخلص الانسان من خطيئته ويطهره من اوزاره ، والأعجب من هذا أن كثيرين منهم يعتقدون بأن عيسى ابن مريم " هو الله نزل الى الأرض في صورة بشر ، الى غير هذا من الاباطيل التي (١) نسبوها الى الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا " فاذا نظرنا مدى البون الشاسع بين الحق الذى جاء به القرآن وبين الباطل الذى جاء به هؤلاء وهؤلاء وجدناه متباينا جدا على ان القرآن الكريم لم يكتف بسرد هذه الاباطيل والاخبار بها عن تحريف أهل الكتاب بل رد على أولئك ببراهينه الساطعة وأدلته القاطعة - استمع اليه وهو يقول عن أهل الكتاب" النصارى"

(٢) * يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له مافي السموات ومافي الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا * ويقول القرآن وهو يتكلم عن أهل الكتاب اليهود :

٣ - * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا * وبكفرهم وقولهم

---

(١) نفس المصدر السابق : ص ١٤٢ .

(٢) سورة النساء : الآيتان ١٧١ و ١٧٢

٣ - سورة النساء الآيات ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧

على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وماقتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما * ولقد صرح القرآن بالتحريف الذى وقع عند أهل الكتاب في التوراة والانجيل وبين أن مهمة الرسول انما هي في تصحيح ما ارتكبوه من الكذب والبهتان وفي كشف ما أخفوه من آيات الله في التوراة والانجيل * يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنايبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم * فهل بعد هذا البرهان من حجة . (١)

أقول وبالله التوفيق : لا شك ان القرآن الكريم واف بحاجة البشرية وهذا يدركه كل متأمل في شريعة الاسلام فقد جاء بهداية تامة كاملة شاملة واسعة تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان ، يقول محمد علي الصابوني في كتابه علوم القرآن : ويتجلى ذلك اذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى اليها القرآن في هدايته وارشاده وهي بايجاز : اصلاح الأفراد ، اصلاح المجتمعات - اصلاح العقائد ، اصلاح الاخلاق ، اصلاح الحكم والسياسة ، أصلاح الشئون الحربية ، اصلاح الثقافة العلمية ، تحرير العقل من الخرافات ، وبهذه المقاصد النبيلة ندرك ان الايمان والاسلام حلا محل الكفر والعصيان وان الدخول فيه واجب ونبذ ماسواه لازم ، وبهذه المناسبة نذكر الاسلام ماهو وما حقيقته وعلاقته بالايمان وهل هما شيء واحد ام شيئان وبيان حسن اسلام

---

(١) البيان في علوم القرآن : ص ١٤٣ .

١- لسورة النساء الآية ١٥٨
٢- سورة المائدة الآية ١٥-١٦

المرء ، وان الاسلام يهدم ماقبله .

أقول وبالله التوفيق : الاسلام هو : الاستسلام لله عز وجل ، أى : الخضوع والانقياد التامان له سبحانه وان يبرأ الانسان من حوله وقوته ويدخل في حول الله وقوته ، والايمان هو : ان يؤمن الانسان بالله وملائكته وكتبه ورسله وقد بين حديث جبريل الطويل الثابت في الصحيحين حقيقة الاسلام والايمان والاحسان كل على حدة ، أما علاقة الايمان بالاسلام فهي علاقة وطيدة وثيقة حتى قال ابن القيم : اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا " ومعنى هذا انه اذا ذكر أحدهما دخل معه الآخر واذا ذكرا معا فكل واحد قائم بنفسه ، وهذا يعطينا مدى ارتباط كل منهما بالآخر .

(١) قال الله عز وجل : ﴿ قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾

(٢) وقد أخرج مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال اناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " يارسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ، قال : " أما من أحسن منكم في الاسلام فلا يؤاخذ بها ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية ـ والاسلام " قال النووى : وأما معنى الحديث فالصحيح فيه ماقاله جماعة من المحققين ان المراد بالاحسان هنا الدخول في الاسلام

(٣) بالظاهر والباطن جميعا وان يكون مسلما حقيقة فهذا يغفر له ماسلف في الكفر بنص القرآن العزيز والحديث الصحيح الاسلام يهدم ماقبله ، قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر حين مد يده اليه ليبايعه فقال عمر : اشترط ، قال : وماذا تشترط ، قال : ان يغفر لي ماسلف ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما علمت ياعمران أن الاسلام يهدم ماكان قبله "

---

(١) سورة الحجرات : الآية " ١٤ ".

(٢) صحيح مسلم : شرح النووى : ٢/١٣٥ / ط : الجديدة.

(٣) المرجع السابق نفسه : ٢/١٣٥

= البخاري ص ١ / ١٨

وهذا بإجماع المسلمين ، والمراد بالاساءة عدم الدخول في الاسلام بقلبه فهذا منافق باق على كفره بإجماع المسلمين فيؤاخذ بما عمل في الجاهلية قبل ظهور صورة الاسلام وبما عمل بعد اظهارها لانه مستمر على كفره وقد جاء في صحيح البخاري في باب حسن اسلام المرء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اذا أسلم العبد فحسن اسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها " وفي رواية ذكرها الشارح (١) (أزلفها) قال الحافظ في الفتح : قوله : فحسن اسلامه ، أي : صار اسلامه حسنا باعتقاده واخلاصه ودخوله فيه بالباطن والظاهر وان يستحضر عند عمله قرب ربه منه واطلاعه عليه كما دل عليه تفسير الاحسان في حديث سؤال جبريل عليه السلام ومما لا نزاع فيه أنه لا يجوز لأحد أن يفسر الاحسان (٢) بمعنى باطل أو باسلام صوري ثم يرتب عليه انه يهدم ماكان قبله فان فعل ذلك يكون مرتكبا انواعا من الجرائم منها ترتيب أحكام الدين الاسلامي الحقيقي على الصوري الباطل عند الله وذلك مثل الحكم المذكور في حديث عمر هذا ، (٣) ومنها انه يلزمه أن يكون الله قد رضي هذا المعنى الباطل وأخبر في كتابه برضاه عنه وهذا من أكذب الكذب على الله ، ومنها ان يكون فاعل ذلك مفتريا على الله ملحدا في آياته مرتبا تلك الاحكام على مايترتب في الاسلام الصوري الباطل مثل هذه الجرائم ويكون ذلك غلا المعنى الباطل لا يخرج عن الاعتقاد الظاهري الذي حكم الثوري وغيره على المقتصر عليه انه منافق

---

(١) فتح الباري : ١/ ٧٣

(٢) صحيح مسلم : ٢/ ١٣٧

(٣) الايضاح المبين في هدم الاسلام للكفر المشين : ص ٤ - ٥ .

باق على كفره مؤاخذ بما عمل في الجاهلية والاسلام فأى قيمة لهـــذا الاسلام الصورى الذى حقيقته نفاق (١) ،

قال الامام البخارى : باب - اذا لم يكن الاسلام على الحقيقة - وكان على الاستسلام والخوف من القتل لقوله تعالى ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ . فاذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾ (٢) قال الكرماني ، قوله : على استسلام ، أى : الانقياد الظاهر فقط ، وأسلمنا ، أى : دخلنا في السلم وليس استسلاما على الحقيقة ، والا لما صح نفي الايمـــان عنهم لأن الايمان شرط صحة الاسلام عندهم (٣) " .

قال النووى : وأصل الايمان : التصديق ، وأصل الاســلام الاستسلام فقد يكون المرء مسلما في الظاهر غير منقاد في الباطن وقــد يكون صادقا في الباطن غير منقاد في الظاهر .

ونقل الكرماني عن الجوهرى في الصحاح انه قال : أسلم ، أى : دخل في الاسلام وهو الاستسلام ، ومثله في القاموس ، وقد استفدنـــا من هذا ان الاسلام قسمين ، كما قال البخارى وشارحه أحدهما الاسلام الصورى وثانيهما اسلام حقيقي . ولذلك قال الراغب في المفردات (٤) ، والاسلام في الشرع على ضربين : أحدهما دون الايمان وهو الاعتـــراف باللسان وبه يحقن الدم حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل واياه قصـــد بقوله تعالى ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ .

---

(١) الايضاح المبين في هدم الاسلام للكفر المشين : ص ٤ - ٥ .

(٢) البخارى بشرح الكرماني : ١/١٢٨ .

(٣) النووى : ١/٢٤٥ .

(٤) مفردات الراغب : ص ٢٤١ .

والثاني فوق الايمان وهو : مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ماقضى وقدر وقد أفصح بأن الاسلام ضربان ، قال الحافظ في الفتح : وقال المازرى ان من شرط المتقرب أن يكون عارفا لمن يتقرب اليه ، يقول محمود احمد مهدى : " الاسلام عند ذوى الأفكار السطحية والمفاهيم العاثرة هو الدين الذى جاء به خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ولا تتعدى كلمة الاسلام عنهم الى ماسواه وقبله من الأديان قال ابن تيمية في موافقه صريح القول : لاريب انه يجب على كل احد أن يؤمن بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بايمانا عاما مجملا الى ان يقول : واما ماوجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرتهم ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل مالا يجب على من لم يسمعها ، وأما (١) التفصيل فأوجب الله فيه العلم ووجب فيه ما أوجب اليه من ذلك كقوله تعالى : * واعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم * وقوله : * فاعلم انه لا اله الاّ الله * وكذلك يجب الايمان بما أوجب الله الايمان به ففي هذا رد على من زعم أن الاسلام والايمان قول باللسان وعمل بالاركان من غير فهم . بما يتكلم به من الفاظ الايمان ، وكلام الشيخ أفاد انه يفترض على كل احد أن يصدق بقلبه بجميع ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ويتضمن ذلك معرفة معاني النصوص من العقائد الواجبة والفرائض اللازمة كفرض العين .

أقول وبالله التوفيق : معرفة نصوص الشرع لابد منها لكل مسلم فالحكم على الشيء فرع عن تصوره . وبناء على هذه القاعدة المنطقية يلزم

---

(١) اضواء على الاسلام : ص "٩" / محمود احمد مهدى .

على المسلم أن يكون لديه سلاح ، وذلك السلاح هو معرفة اسلوب القرآن

(١) وينقسم ذلك الى أقسام : ان من يستقرىء النصوص القرآنية الدالة على الأحكام الشرعية يجد ان بعضها بين في ذاته لا يحتاج الى ايضاح وبعضها يحتاج الى بيان وتفسير بأن يكون اللفظ مجملا يحتاج الى تفسير أو خفيا يحتاج اظهار ، أو مشكلا يحتاج الى بيان فمن الأول قوله :

(٢) * والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة * ومنه أيضا آيات اللعان : * والذين يرمون ازواجهم * الآية فان هذه الآيات ظاهرة المعنى واضحة في تعيين المراد وهو : كيفية تعيين اللعان وسببه ، وقد جاءت السنة مبينة الآثار التي تترتب على اللعان

(٣) ومن النوع الثاني المحتاج الى بيان الأمر بالصلاة والزكاة فان القرآن لم يوضح عدد الركعات ولا أوقاتها وهيآتها وكذلك الزكاة لم يوضح مقدار الزكاة الى غير ذلك من المطلق والمقيد والمجمل والمفصل والفرض عندي بيان أن المسلم ملزم بمعرفة أمر دينه من هذه الأمور كلها حتى يكون مسلما حقيقيا له حرمة المسلم الكاملة واحلال العقيدة السليمة محل الشرك واحلال العلم محل الجهل . والتمسك بالسنة بدل العادة كل هذا يجعل الانسان ملزما بمعرفة مانهى اليه عنه وما أمر به وان ينبذ ماكان عليه من عادة سيئة وجهالة لا توافق الشرع كي يغفر له ماسلف أيام جاهليته اذا تاب وأناب ، قال تعالى:

(٤) * قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف * . قال ابن جرير ان ينتهوا عما هم عليه مقيمون من كفر بالله ورسوله فينيبوا الى الايمان

---

(١) الايضاح والتبيين في هدم الاسلام للكفر المشين : ص ٦ .
(٢) بدران ابو العينين : ص ١ ، ٢ ، ٣ .
(٣) المصدر السابق : ص ٣ - ٤ .
(٤) ابن جرير الطبري : جـ ٩ ص ٢٤٦ .

ح= سورة النور ٤ - ٦
ح= سورة الأنفال الآية ٢٨-٢٩

يغفر الله لهم ماقد مضى من ذنوبهم قبل ايمانهم وانابتهم الى طاعة الله وطاعة رسوله بايمانهم وتوبتهم ، فذكر انتهاءهم من الكفر وهو عمل قلبي وافاد قوله " فنيبوا " أن الانتهاء المذكور يستلزم انابتهم ورجوعهم ظاهرا وباطنا الى الايمان بشريعة الاسلام وهو ايضا عمل قلبي والايمان بهما يلزم العمل بها اذ لولم يؤمنوا ولم يعطوا فهم كفار فلم يصدق عليهم (١) انهم انتهوا عن كفرهم ، قال ابن كثير : ان ينتهوا عما بهم فيه من الكفر (٢) والشقاق والعناد ويدخلوا في السلم والطاعة والانابة يغفر لهم ماقد سلف ثم بين ان حديث ابن مسعود " من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل (١) في الجاهلية " وحديث " الاسلام يجب ماقبله " يستفاد منهما ان المراد من الانتهاء انتهاء القلب عما اكتسبه من العقائد الشركية المستلزمة للعناد والمشاقة مع الدخول في الاسلام في الظاهر والباطن وبعد ان يفعلوا ذلك يغفر لهم ماسلف ـ فظهر ان المراد من الحديثين المذكورين في كلامه (٣) ما أريد به في الآية مع حسن الاسلام قلبا بالدخول في حقيقة الاسلام والعمل به بالطاعة والانابة لا مجرد قول اللسان : آمنت وانتهيت عن الكفر وتركته بل لابد أن ينتهي قلبه عن كل كفر والحاد وتعلق بعبادة اله باطل وعقيدة باطلة وعن كل حمل للآية على أي معنى الحادي مع الحكم بكون ذلك الاله الباطل الذي كان قد اعتقده حقا طاغوتا يأمر الله بالكفر به واجتناب عبادته والتبري منه ومن أهله والله الموفق .

---

(١) الايضاح المبين في هدم الاسلام للكفر المشين : ص ٩ - ١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٢/ ٣٠٨

(٣) المصدر السابق : ٢/ ٣٠٨

١ = مسلم الجامع الصغير ص ٥/ ٢٧٠

أقول وبالله التوفيق : المادة السيئة في النفس من أسوأ الأمراض وأصعبها علاجا لقوة تحكمها في الانسان ولابد للمسلم من كفاحها والتغلب عليها والا ظل الانسان اسيرا اليها لا يميز بين الحق والباطل - والقلب يؤاخذ الانسان بما كسب لقوله تعالى * فأصابهم سيئات (١) ماكسبوا * وهذا لا نزاع فيه بين العلماء لوروده في محكم الكتاب .

قال الله عز وجل : * ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم * وقوله : (٢) * ليجزى الله كل نفس بما كسبت * وقال تعالى : * والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم * وهذه (٣) الآيات وغيرها مذكور فيها من التخويف من المادة المخالفة والمكابرة في الدين بغيرها ما أنزل الله وما شرع مايردع صاحب العقل ويجعله واقفا عند حدود الله وهنا وبعد ان بينت الاسلام ماهو وعرفته في أول هذا (٤) البحث نقول ايضا انه دين الله الخالص الذى أوحاه الى نبيه صلى الله عليه وسلم وهو ايمان وعمل يمثل العقيدة والاصول التي تقوم عليها شرائع الاسلام وعنها تنبثق فروعه والعمل يمثل الشريعة والفروع التي تعتبر امتدادا للإيمان والعقيدة والايمان والعمل والعقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر ارتباط الثمار بالاشجار أو المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات ومن أجل هذا الترابط الوثيق يأتي العمل مقترنا بالايمان في أكثر الآيات القرآنية قال تعالى : * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجرى من (٥) تحتها الانهار * .

---

(١) سورة الزمر : الآية "٥١" المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص ٣٦٩

(٢) سورة البقرة : الآية "٢٢٥" المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص ١٨

(٣) سورة البقرة يونس الآية ٢٧

(٤) العقائد الاسلامية : ص ٧

(٥) سورة البقرة : الآية "٢٥".

وقال جلّ ذكره : * من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهـــو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون * . (١)

وقال أيضا : * ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا * .

مفهوم العقيدة والايمان :

(٢) مفهوم الايمان أو العقيدة ينتظم ستة أمور : المعرفة بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا ـ والمعرفة بدلائل وجوده ومظاهر عظمته فـــي الكون والطبيعة .

ثانيا : المعرفة بعالم ماوراء الطبيعة أو العالم غير المنظور وما فيه من قوى الخير التي تتمثل في الملائكة وقوى الشر التي تتمثل في ابليـس وجنوده من الشياطين . والمعرفة بما في هذا العالم أيضا من جـــن وأرواح .

ثالثا : المعرفة بكتب الله التي انزلها لتحديد معالم الحـــق والباطل والخير والشر والحلال والحرام والحسن والقبيح .

رابعا : المعرفة بانبياء الله ورسله الذين اختارهم الله ليكونـــوا اعلام الهدى وقادة الخلق الى الحق .

---

(١) سورة مريم : الآية ٩٦

(٢) العقائد الاسلامية : ص ٨ .

وخامسا : المعرفة باليوم الآخر وما فيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب وجنة ونار .

سادسا : المعرفة بالقدر خيره وشره وهو الذى يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير . ووحدة العقيدة هي : مفهوم الايمان ،وهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل بها رسله وجعلها وصيته في الأولين والآخرين فهي عقيدة واحدة لا تتبدل بتبدل الزمان أو المكان ولا تتغير بتغير الأفراد أو الأقوام ، قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (١) وما شرعه الله لنا من الدين ووصانا به كما وصى به رسله السابقين هو العقائد وقواعد الايمان لا فروع الدين ولا شرائعه العملية فان لكل أمة من التشريعات العملية مايتناسب مع ظروفها وأحوالها ومستواها الفكرى والروحي ، قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ (٢) وانما جعل الله هذه العقيدة عامة للبشر وخالدة لما لها من الأثر البين والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات ، فالمعرفة بالله من شأنها ان تفجر المشاعر النبيلة وتوقظ حواس الخير وتربي ملكة المراقبة وتبعث على طلب معالي الأمور ـ أشرافها ، والمعرفة بالكتب الالهية : انما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذى رسمه الله للانسان كي يصل بالسير عليه الى كماله المادى والأدبي والمعرفة بالرسل انما يقصد

---

(١) سورة الشورى : الآية " ١٣ ".

(٢) سورة المائدة : الآية " ٤٨ " .

بها ترسيم خطاهم والتخلق بأخلاقهم والتأسي بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس والمعرفة باليوم الآخر هي أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر ، والمعرفة بالقدر تزود المرء بقوى وطاقات يتحدى كل العقبات والصعوبات وتصغر دونها الأحداث الجسام وهكذا يبدو بجلاء ان العقيدة انما يقصد بها تهذيب السلوك وتزكية النفوس وتوجيهها نحو المثل الأعلى - فضلا عن أنها حقائق ثابتة وهي تعد من أعلى المعارف الانسانية : ان لم تكن أعلاها ،

(١) على الاطلاق وتهذيب سلوك الفرد عن طريق غرس العقيدة الدينية هو اسلوب من أعظم اساليب التربية حيث ان للدين سلطانا على القلوب والنفوس وتأثيرا على المشاعر والأحاسيس ولا يكاد يوازنه في سلطانه وتأثيره شيء

(٢) آخر من الوسائل التي ابتكرها العلماء والحكماء ورجال التربية ، فغرس العقيدة في النفوس هو أمثل طريقة لايجاد عناصر صالحة تستطيع ان تقوم بدورها كاملا في الحياة وتسهم بنصيب كبير في تزويدها بما هو انفع وأرشد اذ ان هذا اللون من التربية يضفي على الحياة ثوبا من الجمال والكمال ، ويظللها بظلال المحبة والسلام ومتى سادت المحبة ارتفعت الخصومة وانقطع النزاع وحل الوفاق محل الشقاق وتقارب الناس وتآلفوا وسعى الفرد الى خير الجماعة وحرصت الجماعة على اصلاح الفرد واسعاده ومن ثم تظهر الحكمة واضحة من جعل الايمان عاما خالدا وفي ان الله لم يخل جيلا من

---

(١) العقائد الاسلامية : ص ١٠ - ١١ / ط . الاولى .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠ - ١١ .

من الأجيال ولا أمة من الأمم من رسول يدعو الى هذا الايمان وتعميق جذور العقيدة وكثيرا ماكانت تأتي هذه الدعوة بعد فساد الضمير الانساني وبعد ان تتحكم القيم العليا ويظهر ان الانسان أشد مايكون حاجة الى معجزة تعيده الى فطرته السليمة ليصلح لعمارة الأرض وليقوى على حمل أمانة الحياة . ان هذه العقيدة هي الروح لكل فرد بها يحيا الحياة الطيبة ويفقدها يموت الموت الروحي ، وهي النور الذى اذا عمى عنه الانسان ضل في مآرب الحياة وتاه في أودية الضلال ، قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ (١) ان العقيدة مصدر العواطف النبيلة والمشاعر الطيبة ومنبت الاحاسيس الشريفة فما من فضيلة الا تصدر عنها ولا صالحة الا ترد اليها ، والقرآن الكريم حينما يتحدث عن الصالحات انما يذكر العقيدة في طليعة أعمال الخير - كأصل تتفرع عنه وكأساس تقوم عليه لقوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ (٢)

أقول وبالله التوفيق : هذه العقيدة عقيدة الرسل التي ارسلهم الله بها ، فيها اصلاح البشر عاجلا وآجلا وكماله الخلقي فهي تدعو للصبر والاخلاص والرسل عليهم الصلاة والسلام لهم منهج في غرس هذه العقيدة (٣) بين فكانت الرسل تعرض على الناس هذه العقيدة عرضا كله السهولة

---

(١) سورة الأنعام : الآية " ١٢٢ ".
(٢) سورة البقرة : الآية " ١٧٧ ".
(٣) العقائد الاسلامية : ١٢ - ١٢ .

والبساطة والمنطق فتلفت أنظارهم الى ملكوت السموات والارض وتوقظ عقولهم الى التفكير في آيات الله وتنبه فطرهم الى ماغرس فيها من شعور بالتدين واحساس بعالم وراء هذا العالم المادى وعلى هذه السنن مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغرس هذه العقيدة في نفوس امته لافتا أنظارهم وموجها افكارهم وموقظا عقولهم متعهدا هذا الغرس بالتربية والتنمية حتى بلغ الغاية من النجاح واستطاع ان ينقل الأمة من الوثنية والشرك الى عقيدة التوحيد ويملأ قلوبها بالايمان واليقين كما استطاع ان يجعل من أصحابه قادة في الاصلاح وائمة في الخير وان يخلق جيلا يمتز به بالايمان ويعتصم بالحق فكان هذا الجيل كالشمس للدنيا والعافية للناس وقد شهد الله لهذا الجيل بالتفوق والامتياز فقال :

(١) * كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله * ولقد بلغ الايمان في نفوس هذا الرعيل مبلغا عظيما من الآثار على النفس والتسابق للشهادة ولين الجانب بعضهم لبعض ، والتواضع مع الغلظة والشدة على الكفار ، وقد وصفهم القرآن الكريم بهذه

(٢) الصفات كلها قال تعالى : * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم * وقال : * يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة * ٢ الى غير ذلك من الآيات المتناثرة في القرآن الكريم التي تبين صفاتهم

(٣) المجيدة من الرغبة في الخير والحب في الله والبغض في الله وقد وردت

---

(١) سورة آل عمران : الآية " ١١٠ " .
(٢) سورة الفتح : الآية " ٢٩ " .
(٣) رياض الصالحين : ص ١٦٧ - ١٦٨ .
٢ـ سورة الحشر ٩

الأحاديث الصحاح الدالة على فضل الحب في الله والبغض فيه من ذلك حديث انس رضي الله عنه الثابت في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا لله وأن يكره ان يعود في الكفر بعد ان انقذه الله منه كما يكره ان يقذف في النار " متفق عليه ، وقد لاحظ الرعيل الاول هذه القاعدة فطبقها فكان الحب والايثار شعارا لهم يميزون به وعنوانا لهم يعرفون به ، ويرجون الدخول في الظل الظليل الذى نص عليه حديث ابي هريرة الثابت في الصحيحين للمتحابين ، ونص الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في طاعة الله عز وجل ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : اني اخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما انفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ". متفق عليه ،

أقول وبالله التوفيق : هذه الصفات المتقدمة وردت بها النصوص الكثيرة كما بينت ، وتدل على فضل الحب في الله وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث ابي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الله تعالى يقول يوم القيامة اين المتحابون في جلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل الا ظلي " رواه مسلم ، وأيضا قد جاء في مناقب الانصار من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما عن

النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في الانصار : " لا يحبهم الا مؤمن ولا يبغضهم الا منافق " . متفق عليه .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيين والشهداء " رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(١) وعن ادريس الخولاني قال : دخلت مسجد دمشق فاذا فتى براق الثنايا واذ اناس معه فاذا اختلفوا في شيء اسندوه اليه وصدروا عن رأيه ، فسألت عنه فقيل هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه فلما كان من الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير ووجدته يصلي فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت : والله اني لأحبك ، فقال : ألله ، فقلت : ألله . فقال : ألله ، فقلت : ألله ، فأخذ بحبوة رداء فجبذني اليه ، فقال : ابشر فانني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : ; وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ ، والمتباذلين فيّ ، رواه مالك في الموطأ باسناده " .

أقول وبالله التوفيق : اذا كنت اعطيت لمحة عما في الرعيل الأول من الايثار الذى جلبه اليه الاسلام وتعاليمه كما بينت الأحاديث السابقة والآيات القرآنية التي نصت على انهم رحماء بينهم أشداء على الكفار ، وما فيهم من تسابق في جلب الخيرات وكسبها حتى كأنهم ينظرون اليّ الساعة وقد قامت وصحائف الحسنات والسيئات قد نشرت أمامهم كما صورة الأحاديث قريبا . فانه يجدر بنا ان ننظر الى الاسلام ايضا من زاوية أخرى هي : زاوية

١- فيض القدير شرح الجامع الصغير ص ٢/٢٧٨

السماحة والوفاء لتعرف كم جلب الاسلام للانسان من كمال ياله من كمال ومن نعمة يالها من نعمة ، يقول الدكتور المرجون : ان العالم يتطلع من نوافذ التاريخ الى حضارة تنقذه من ويلات الخوف والرعب ودنس الضمير وتعيده الى الطمأنينة والسكينة . وتمحو من قلوب الشعوب والامم دقائن الأحقاد والأضغان وترد اليهم الألفة والمحبة والاخاء وطهارة الضمير وصفاء الوجدان ، فأين يجد العالم تلك الحضارة التي يحقق له هذه الاحلام بعد هذه التجارب القاسية المريرة انه لم يجدها ولن يجدها في ديموقراطية أوربية فاشلة ، ولم يجدها ولن يجدها في الشيوعية الملحدة الطاغية الهادمة لأمجاد الانسانية ومقوماتها الطبيعية ولم يجدها ولن يجدها في علم أمريكا وصواريخها المدمرة وروءوس أموالها الفاجرة ، ولكنه اذا أرادها فانه يجدها في ظل الايمان بالله تعالى ايمانا يطهر البشرية من رجس الانانية والأثرة وتقديس المادة العمياء ، ايمانا لا يخدع ولا يخدع ، ايمانا صريحا واضحا لا يسمي الاشياء مدنية ولا يسمي الفسوق عن جادة الأدب حضارة ، ايمانا يرفع النفس الانسانية الى آفاق علوية تجعل من الضمير الانساني حارسا يقظا على سلوك الأفراد والجماعات يراقبهم في داخل مخدعهم وخارج بيوتهم ويكون معهم أين ماكانوا . (١)

أقول وبالله التوفيق : قد ذم الله المتفرقة والتنازع والتدابر ونهى المسلمين عن ذلك فقال : * ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم * . (١)
وأمر بالصبر والتكاتف والاعتصام بحبله المتين فقال جلّ ذكره : * واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا * (٢) وامتن على المسلمين بالاخاء بينهم فقال : * فأصبحتم بنعمته اخوانا * ، أى : بالألفة .

أقول وبالله التوفيق : هكذا نجد روح الاسلام تتمثل في الحب والاخاء بعدما رأينا مثلها العليا فيما سبق ، واذا كان الاسلام قد حقق السماحة والحب والايثار والاخاء فانه كذلك حقق المساواة فهو أيضا دين المساواة يقول محمد عطية : ان الاسلام يعامل الجميع معاملة واحدة

---

(١) عظمة الاسلام : ٢ / ٦٤ - ٦٠ وسماحة الاسلام : ١ / ٤٨٠ .

١ = سورة الانفال الآية ٤٦
٢ = سورة آل عمران الآية ١٠٣

وينظر الى الجميع نظرة واحدة ويعطي كل ذى حق حقه ففي الصلاة نجد المسلمين في صفوف متساوية لا فرق بين غني وفقير وأبيض وأسود ورفيع ووضيع في صلاة الجماعة فهم متساون أمام الله يعبدونه ويستغفرونه هم جميعا يتمتعون بالاخاء والمساواة له يركعون ويسجدون ، ويسبحون ويلبون وفي الصيام كذلك نجدهم متساويين وفي العقوبة سواسية أيضا

(١) قال تعالى : * وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص * هكذا نجد العدل متمثلا في الاسلام في كل صغيرة وكبيرة حتى الجروح قصاص فلا يترك حقا لاحد يضيع ولا يأخذ من أحد اكثر مما جنى . والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يطبقون هذه التعاليم نصا وروحا ، ولايتركون بابا

(٢) فقد جاء في كتاب عظمة الاسلام ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شكا اليه رجل من اقباط مصر سوء معاملة ابن عمرو بن العاص له وضربه اياه وهو حاكم مصر آنذاك ، قوله له " أنا ابن الأكرمين " نجد ان عمر العادل يدعو ابن الأكرمين واياه ويأمر القبطي ان يضرب ابن الأكرمين كما ضربه فيمتنع المصرى لأن ابن العاص لم يضربه ، ثم ينظر عمر بن الخطاب الى عمرو ابن العاص ويقول قولته المشهورة : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا " يقول محمد عطية : ولا نبالغ اذا قلنا ان الذميين من غير المسلمين كانوا يتمتعون بالمساواة في البلاد الاسلامية لتنفيذ قول

(٣) الرسول صلى الله عليه وسلم " لهم مالنا وعليهم ماعلينا " وما ورد أيضا عنه :

---

(١) سورة المائدة : الآية "٤٥".

(٢) عظمة الاسلام : ٢/٦٥ - ٦٠ - ٦٧.

(٣) هذا جزء من حديث ورد في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك حمير ذكرها ابن هشام : ٤/١١١٩.

(١) " من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة " فالاسلام دين الانسانية والديمقراطية والاخلاق النبيلة ، ولو انتشر الاسلام في العالم لساد السلم والسلام وماكانت هناك حروب ولا استعمار .

أقول وبالله التوفيق : من محاسن الاسلام التي لاتحصى انه لا يدعو الى عصبية ولا الى عنصرية وقد وحد ، فهو دين مساواة ومحبة واخاء ، ومشاورة ، دين مدنية وحضارة ، دين انسانية وكرامة ويدعو الى الوحدة الشاملة بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ويتجاهل الفوارق بينهم قال تعالى : ﴿ ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ليس منا من دعا الى عصبية او ليس منا من قاتل عصبيه . وليس منا من مات على عصبية " . وليس الفرض من المساواة أن نتجاهل كفاءة العالم ، وشجاعة القائد ، ومهارة الطبيب ، وعدالة القاضي ، واخلاص العامل ، وانتاج الصانع فلكل منهم طاقة ، ومقدرة وموهبة والطاقات والكفاءات والمواهب تختلف باختلاف الافراد (٢) وأعمالهم وقدراتهم ، وقال عز شأنه : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ فالأرزاق بيد الله وقد نجد أخوين احدهما رزقه ميسر وكثير ، والآخر رزقه ضيق وقليل ، فيكون الأول غنيا والآخر فقيرا ، فالناس

---

(١) اخرجه الخطيب في ترجمة داود بن علي بن خلف عن اسحاق ابن ابراهيم عن عيسى بن يونس عن الاعمش عن ثقيف عن ابن مسعود وهو ضعيف وحكم ابن الجوزي بوضعه . فيض القدير : ١٩/٦ .

(٢) الحديث أخرجه ابو داود في الأدب عن جبير بن مطعم ، وهو حسن وبعضهم ضعفه ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣٨٦/٥

مختلفون في استعداداتهم الفطرية التي وهبهم الله اياها فهذا فائق الذكاء وذاك متوسط وهذا نشط محب للعمل ، وذاك كسلان يفضل الراحة ، وقد نظم الله العالم والكون والحياة قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقتهم ﴾ (٢) ولهذا يقول محمد الغزالي : فنحن نرى في هذا الاسلام الجامع الكفاية المشبعة للازمات الروحية والفكرية التي يعانيها الناس ويتطلعون منها الى مخرج ونرى فيه المنهج الذى ينفي متاعب الحيرة والشرود ويبعد اسباب الغضب والطرد ويصل الانسان بالله صلة ناعمة كريمة .

اقول وبالله التوفيق اذا كنت بينت بعض محاسن الاسلام في العدالة والسماحة والاخاء والأثرة فانه لا يفوتني أن أبين كذلك سماحة الاسلام بالعهود وحرصه على الوعد والعهد والمواثيق (٣) : والناظر في تصرفات قادة الفتوحات الاسلامية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) وامرائه وولاته وتلاميذه من التابعين وتابعيهم يرى أنهم كانوا أحرص على الرفق والسماحة في تنفيذ العهود والمصالحات من كل احد .. ما جعل (٥) المعاهدين والمصالحين يتعاونون مع المسلمين في صدق واخلاص نتيجة لما

---

(٢) سورة هود : الآية " ١١٩ " .

(٣) مع الله دراسات في الدعوة والدعاة : ص ٦ ، محمد الغزالي .

(٤) سماحة الاسلام : ١/ ٤٢٢ ، محمد صادق العرجون .

(٥) الموسوعة في سماحة الاسلام : ١/ ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(١) رأوه من العدالة الرحيمة في معاملة المسلمين لهم ، يقول الامام أبو يوسف : في كتاب الخراج : انما كان الصلح يجرى بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية وفتحت المدن على الا تهدم بيعتهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى ان يقاتلوا من ناوءهم من عدوهم ويذبوا عنهم ثم يروى أبو يوسف عن الامام مكحول الشامي ان ابا

(٢) عبيدة بن الجراح رضي الله عنه صالحهم بالشام واشترط عليهم حين دخلها أن تترك كنائسهم وبيعهم وطلبوا منه أن يجعل لهم يوما في السنة يخرجون فيه صلبانهم بلا رايات وهو : يوم عيدهم الأكبر فأجابهم الى ما طلبوا ووفى لهم المسلمون بشرطهم فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين وحسن سيرتهم فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعونا للمسلمين على أعدائهم فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم فأتوا الرسل يخبرون بأن الروم قد جمعوا جموعا لم ير مثلها ، وتتابعت الاخبار على ابي عبيدة بهذا النبأ فاشتد عليه ذلك وعلى المسلمين ، فكتب ابو عبيدة بهذا الى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم ان يردوا عليهم ماجبي منهم من الجزية والخراج ، وكتب لهم أن يقولوا لهم : انما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ماجمع لنا من الجموع وانكم اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا

(٣) وبينكم ان نصرنا الله عليهم ، فلما قال لهم المسلمون ذلك وردوا عليهم

---

(١) كتاب الخراج لابي يوسف ص ١٦٤ - ١٦٥ / ط السلفية.
(٢) مكحول الشامي : ابو عبد الله ثقة فقيه كثير الارسال ، مشهور من الخامسة مات سنة بضع عشرة ومائة / م / عم التقريب : ٢ / ٢٧٣
(٣) كتاب الخراج لابي يوسف ص ١٦٤ .

الأموال التي جبوها منهم ، قال أهل الذمة للمسلمين : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، ويأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئا ، فلما كتب ابو عبيدة لعمر يخبره بذلك أقره وقال له : امنع المسلمين من ظلمهم والاضرار بهم وأكل اموالهم الا بحقها ووف لهم شرطهم الذى شرطت لهم في جميع ما اعطيتهم .

أقول وبالله التوفيق : هكذا يكون الوفاء بالعهد ، وهكذا تكون السيرة النبيلة التي يرجى لأهلها النجاح والفلاح وتصلح لقيادة الجيوش . والشعوب فياليتنا صرنا الى هذا النصح وسرنا على هذا النهج ليصبح الذى ترك لنا الآباء من صدق القول والوفاء بالعهد . وهكذا نراه مرة أخرى حتى مع غير المسلمين ، على جانب عظيم من السماحة والوفاء .

وبهذا العرض الموجز يتضح كيف أحل الاسلام والمعرفة الصحيحة النافعة محل التقليد الأعمى وكيف عرض تعاليمه مجالا لكل ناظر ينظر بعقل قويم وقلب سليم فيتبين بعد النظر الصحيح كيف ان الاسلام أسعد البشرية نظريا وعمليا ومن تمام الفائدة ان أشير الى النظر من الوجهة العقلية فهو فكر يتوصل به الى العلم أو غلبة الظن ومعنى هذا أن الاسلام لا يقنع بخيالات أو أوهام وكذلك لا يقتنع بفكر يوصل الى جهل أو خرافة ونصوص الاسلام تعصم العقول من الزلل أو الحيدة عن الطريق حتى لا يضل الانسان في متاهات الفكر وبيداء الحياة ، وبنظرة عادية الى الاسلام نجده يطلب من الانسان ان يحاسب نفسه وينصف الناس منه ويعطيهم حقوقهم ويحكم على نفسه بنفسه ، ويقول : اذا عوملت أنا هذه المعاملة التي اعامل بها غيرى فكيف يكون موقفي ؟ وبطاذا الشعر ويضع نفسه موضع غيره في

(١) كل عمل يريد أن يعمله ، واذا كان شطر الاسلام باعتباره دينا ودولـــة وهو شطره التعبدى التهذيبي قد أستقرت أصوله وكملت قواعده في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فان شطره العملي ، وهو شطره النظامي فــي الحياة في صورة دولة تقوم على تطبيق شرائعه وقوانينه وبسط سلطانها على العامة والخاصة لاقرار الحق والعدل بين ابناء الانسانية في مشارق الأرض ومغاربها ، لا يزال باقيا يتجدد بتجدد الاعصار والأجيال ويتبلـــور في صور من الواقعية كلما جدت الأحداث . وهذا الشطر من الاســـلام لا يزال دينا في عنق الأمة الاسلامية يجب عليها تنفيذه ، ورعايته ولـــو بالقوة القاهرة في نظام الحدود والتعازير الزاجرة وفي صورة القتال اذا قامت أسبابه . ومن ثم ترك الاسلام للأمة أمر نظام الدولة وأسلوب الحكـــم وعنوان الحاكم تختاره على مقتضى " تطور " الحياة الصالحة على مـدارج الزمن بعد ان ضمن لها مقومات البقاء .

(٢) أقول وبالله التوفيق : في هذا المقال يتضح كما بين الكاتـــب سماحة الاسلام وسموه في كل الأمور التي من شأنها ان تقود الأمة الــى مافيه اصلاحها عاجلا وآجلا وسوى بينهم في ذلك تسوية تامة .

يقول محمد عطية في كتابه : عظمة الاسلام ففي الاسلام مساواة بيـــن الرجل والمرأة في الثواب والعقاب وفي التربية والتعليم ولا يتميز الرجل عليها الا أنه مطالب بالانفاق عليها ورعايتها والدفاع عنها قال جلّ شأنه في موقـف المرأة : ﴿ ولهن على الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ . (٣)

وحينمـــا بـدأ النبـــي صلى الله عليه وسلـــم ينشـــــــر

---

(١) الموسوعة الاسلامية : ١ / ٥٠٥ .

(٢) عظمة الاسلام : ٢ / ٢٥١ ، محمد عطية

(٣) سورة البقرة : الآية " ٢٢٨ " ، المعجم المفهرس : ص ٢٥٦ .

مبادئ الاسلام وقواعده نشرها بين الرجال والنساء سواء من غير تفرقة .

أقول وبالله التوفيق : من سماحة الاسلام ترغيبه لأهله كي يبذلوا الجهد للخير فقد رغب الأسلام في الصدقة بصفة عامة وفي عتق الرقبة لانقاذ المسلم من الرق ، وكما ان الاسلام يسير بخطى متزنة فقد نص المسلم عن التصدق بماله كله حتى لا يبقى عالة يتكفف الناس ، قال ابن خزيمة في صحيحه : حدثنا الدورقي يعقوب بن ابراهيم ، حدثنا (١) عبد الله بن ادريس قال : سمعت ابن اسحاق يذكر ، وحدثنا محمد بن (٢) رافع حدثنا يزيد يعني : ابن هارون ، اخبرنا محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن جابر بن عبد الله قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها من بعض المعادن ، وقال الدورقي : مثل البيضة من الذهب قد أصابها من بعض المعادن ، وقالا : فقال يارسول الله خذ هذه مني صدقة فوالله ماأصبحت أملك غيرها فاعرض عنه ثم أتاه من شقه الأيمن فقال : مثل ذلك فأعرض عنه ثم أتاه من شقه الأيسر فقال له مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم قال له الرابعة ، فقال له : " هاتها مغضبا " فحذفه بها حذفة لو أصابه لشجه أو عقره ثم قال : " يأتي أحدكم بماله كله فيتصدق به ، ويتكفف الناس انما الصدقة عن ظهر غنى " هذا حديث ابن رافع وزاد الدورقي خذ عنا مالك لا حاجة لنا فيه ، والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم : عن ظهر غنى عما يغنيه ومن يعول ، افضل الصدقة جهد المقل كما جاء

---

(١) صحيح ابن خزيمة بتحقيق الدكتور محمد مصطفى الاعظمي ٤ / ٩٨ ط١

(٢) ضعيف الاسناد محمد بن رافع القشيري النيسابوري ثقة عابد من الحادية عشرة مات سنة ٥ /خ /م - د ت س / التقريب : ٢ / ١٦٠ .

في حديث ابي هريرة : " حدثنا عيسى بن ابراهيم الغافقي ، حدثنا ابن وهب عن الليث ان ابن الزبير حدثه ، وحدثنا عمرو بن علي حدثنا ابن الوليد حدثنا الليث بن سعد عن ابي الزبير عن يحيى عن جعدة عن ابي هريرة انه قال : يارسول الله أي الصدقة أفضل قال : " جهد المقل وابدأ بمن تعول " . (١)

---

(١) قوله في هذا الحديث : " وابدأ بمن تعول " هذه اللفظة أخرجها مسلم في صحيحه : ٩٦/١ وأحمد في مسنده ٤٧٥/٢ ، والترمذي : ١٣٢/١ ، وقال : حديث حسن صحيح ، والحديث له طرق كثيرة ذكرها الالباني في ارواء الغليل في تخريج منار السبيل : ٣١٣/٣ ، ونذكر هذه الطرق وأصحابها ليتبين لنا وضع الحديث وانه صحيح ورجاله ثقات .

الطريق الأولى هي : الصيغة اعلاه والحاملة لرقم واحد والطريق الثانية طريق سعيد بن المسيب وهي في البخاري : ٣٦١/١ ونصها : " خير الصدقة ماكان عن ظهر غنى وأبدأ بمن تعول " . وهي في النسائي أيضا : ٣٥٣/١ والبيهقي : ١٨٠/٤ واحمد : ٤٠٢/٢ .

الطريق الثالثة : عن محمد بن عجلان عن أبي هريرة أخرجها النسائي : ٣٥١/١ ، الطريق الرابعة عن ابي صالح عن ابي هريرة أخرجها البخاري : ٤٨٥/٤ وابو داود : ١٦٦٧ ، والدارقطني : ٤١٥ ، واحمد : ٤٧٩/٢ و ٤٨٠ و ٥٢٤ ، و ٥٢٧ وزاد في رواية من تعول يارسول الله قال : " امرأتك ممن تعول تقول أطعمني والا فارقني ، وجاريتك تقول اطعمني واستعملني ، وولدك يقول الى من تتركني ، واسنادها جيد ، لكن في البخاري ان أبا هريرة سئل عن هذه الزيادة فهل هي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هذا من كيس أبي هريرة ، أرواء الغليل : ٣١٦/٣-٣١٧ ، محمد ناصر الدين الالباني .

أقول وبالله التوفيق : هكذا نرى السماحة حلت في كل شــي*
بالتساوى وعدم الضياع ففي الوقت الذى ترغب فيه في البذل تحذر فيـه
من التهور والاسراف فالاسلام لا يرضى من المسلم أن يبقى مكتوف اليـد
كما لا يرضى منه الجشع وعدم مد يد المساعدة للغير وقد فصلت الآيـات
البينات ذلك أحسن تفصيل قال تعالى : * ولا تجعل يدك مغلولـة (١)
الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا * وهذا خطاب
للرسول صلى الله عليه وسلم ونحن أمته داخلون فيه ، وهكذا نرى السماحة (٢)
مرة أخرى تتطرق وتجول بين كل سهل وصعب حتى تجنب الانسان المسلم
كل شي* يعن له في حياته كي لا يكون هناك صعب يرتقى ، والمسـاواة
الانسانية من ضمن هذه السماحة أعني : سماحة الاسلام التي كنا نتكلـم
عليها قريبا ، ذلك ان الاسلام يأخذ الأمر من جميع جوانبه ومن نواحيه جميعا
فيكفل التحرر الوجداني ويكون تحررا مطلقا لا يقوم على المعنويات وحدهـا
ولا على الاقتصاديات وحدها ولكن يقوم عليهما جميعا فيعرف للحياة واقعهـا
وللنفس طاقتها ويستشير في الطبيعة البشرية غاية أشواقها وأعلى طاقاتهـا
ويدفع بها الى التحرر الوجداني كاملا صريحا فبغير التحرر الكامل لـن
تقوى على عوامل الضعف والخضوع والعبودية ولن تتطلب نصيبها مـن
العدالة الاجتماعية ولن تصبر على تكاليف العدالة حين تعطاها ، وهذا
التحرر هو أحد الأسس الركيزة لبناء العدالة الاجتماعية فـي الاسلام بـل

---

(١) سورة الاسراء : الآية " ٢٩ " .
(٢) العدالة الاجتماعية في الاسلام : ص ٥٠ / ط ٨ سيد قطب .

هو الركن الأول الذى تقوم عليه الأركان ، يقول سيد قطب : اذا استشعر الضمير كل هذه التحررات الوجدانية فخلص من كل ظل للعبودية الا لله ، وآمن الموت والأذى والفقر والذل الا باذن الله . وانقلب من ضغط القيم الاجتماعية والمالية ، ونجا من ذل الحاجة والمسألة ، وتسامى على شهواته ومطامعه وتوجه الى الخالق الواحد الأحد الذى يتوجه له الجميع بلا استثناء ولا استعلاء ووجد بعد ذلك كله كفايته من ضرورات الحياة مكفولة له بحكم التشريع والنظام ، اذا استشعر الضمير البشرى هذا كله ووجد من الضمانات الواقعية والقانونية مايؤكد في نفسه هذا الشعور فلن يكون في حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظا وقد استشعرها في أعماقه معنى ووجدها في حياته واقعا ، بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم اطلاقا . سيطلب حقه في المساواة وسيجاهد لتقرير هذا الحق وسيحتفظ به حين يناله ، ولن يقبل منه بديلا ، ولن يكون الفقير والضعيف وحدهما الحريصين على مبدأ المساواة النابع من الضمير المصون بالتشريع المكفول بالاكتفاء وحرية النشاط والارتزاق ، بل ان الغني والقوى سينزلان عنده بحكم استشعار ضميرهما تلك المعاني التي حرص الاسلام على تقريرها وتثبيتها فيما أسلفنا . (١)

يقول سيد قطب : وذلك ماوقع بالفعل في المجتمع الاسلامي قبل أربعة عشر قرنا .

---

(١) بين الجاهلية والاسلام : ص ١٢٦ ، محمد مهدى شمس الدين .

أقول وبالله التوفيق : هذا القرن الذى أشار اليه هو الــــذى وقع فيه الايثار على النفس ووقع فيه الجهاد والتسابق الى الخيرات لأن نــور القرآن لا يزال آن ذاك ساطعا في القلوب واملم العيون فينهل منه المسلـم كل حين فلا يمل من فعل الخير والقيام به يقول محمد مهدى (١) : ان حركة تقدم البشرية التي قادتها رسالات الله تعالى الى الناس على لســـان انبيائه ورسله وما أنزل عليهم من وحي هذه الحركة العظيمة العريقة فـــي عمز الزمان والانسان والحركة التي قامت آن ذاك قامت تسير في ضـــوء الكتاب والسنة قال تعالى : * هو الذى ينزل على عبده آيات بينـــات (٢) ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله بكم لروؤف رحيم * وقال جلّ ذكره * قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبـل (٣) السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بأذنه ويهديهم الى صراط مستقيم *

أقول وبالله التوفيق : هذه الآيات وما تهدف اليه تدل على أن القرآن هو حجة الاسلام الكبرى بالاضافة الى انه هو المعجزة الخالدة ، (٤) يقول محمد ابو زهرة : فقد حارب الأوهام لأنه دعا العقول الى النظر فـــي الكون والتصرف على اسراره وعجائبه ودعا الى تحكيم العقل في كل مايـدرس من قضايا سواء كانت كونية أم كانت تشريعية . ودعا الى اتباع الحـــــق

---

(١) عظمة الاسلام : ٢/٣١ ، محمد عطية الابراشي .

(٢) سورة الحديد : الآية " ٩ " .

(٣) سورة المائدة : الآية " ١٥ - ١٦ " .

(٤) المجتمع الانساني في الظل الاسلامي : ص ٢٤ محمد ابو زهرة .

وما حكمت به شرائع الله على أهل الارض ، وانه اذا دعا الى النظر العقلي في كل مايتعلق بالكون ونواميسه فقد وضع الأساس لمحاربة الأوهام والأخيلة الفاسدة حيثما كانت ، والأوهام تعشش دائما في عش التقاليد من غير تفكير وقد حاربه القرآن وبذلك هدم البناء الذى تقوم عليه الأوهام والخبايا التي تعشش فيها فقتل مواليد الأوهام في مهدها وأمات بذورها في خبثها .

أقول وبالله التوفيق : اذا كنت تكلمت فيما مضى على ساحة الاسلام ومساواته للناس فان من ضمن هذه المساواة " العدالة " التي لا مثيل لها في القرآن فقد أمر القرآن بالأستشارة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم له مستشارين أمر بأن يشاورهم في الأمر وقال محمد عطية في كتابه عظمة الاسلام بعد ايراده لما قدمت ، قال هذا كثير جدا مما يؤيد القاعدة التي كانت تسير عليها الحكومة الاسلامية منذ فجر الاسلام وهي قاعدة المشورة وتبادل الرأى وهي : أساس النظام الدستورى الديمقراطي وقد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : " اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة " فالرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بطاعة أمير المسلمين ولو كان عبدا حبشيا أسود اللون والرأس وهذا روح الديمقراطية

---

(١) كتاب عظمة الاسلام : ٢/ ٣١ - ٣٢ .

(٢) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري عن مسدد ، عن يحيى ، عن شعبة ، واخرجه مسلم من طريق أبي ذر قال أوصاني خليلي ان اسمع واطيع وان كان عبدا مجدع الأطراف ورواية المتن هنا هي رواية البخارى : ١٣/ ١١١ ي الاحكام وفي الجماعة باب امامة ==

الاسلامية تلك الديموقراطية التي تنادى بالمساواة بين جميع الطبقات ولا تفرق بين الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد ولا تفكر في الحسب والنسب والمال والجاه واللون الأبيض والأسود ولا تقول بالتفرقة العنصرية ومن الأسباب التي جعلت سادة قريش يتآمرون على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم مطالبته بحقوق الفقراء والمساكين ، والضعفاء والعبيد ، فخاف الاشراف ان يرفع أصحاب محمد الى مصافهم ، فأخذوا يكيدون له ويدبرون المؤامرات لقتله والتخلص منه لاعتقادهم ان هذه بدعة ابتدعها محمد ضدهم ، وكيف يخالف محمد صلى الله عليه وسلم النظام الانساني المثالي بنظام الاسلام وروحه وقد

= العبد والمولى ، وباب امامة المفتون والمبتدع ، وأخرجه مسلم " ١٨٣٧ " في الامارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، قال ابن حجر في الفتح : ١٦/٢٣٩ قوله : " كان رأس زبيبة " واحدة الزبيب المأكول المعروف الكائن من العنب اذا جف وانما شبه رأس الحبشي بالزبيبة لتجمعها ولكن شعره أسود وهو : تمثيل في الحقارة وبشاعة الصورة وعدم الاعتداد بها ، والحديث أيضا اخرجه أبو داود الطيالسي " ٢٠٨٧ " ، وقد جاءت عدة أحاديث متفق عليها في هذا المعنى منها حديث عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية ،فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " وهذا ايضا متفق عليه أخرجه البخارى : ١٣ / ١٢١ ، في الاحكام ، والجهاد ، ومسلم " ١٨٣٩ " في الامارة : باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية ، وهذه الاحاديث موجودة في كتاب شرح السنة للبغوى : ١٠/٤١ - ٤٣ .

(١) عظمة الاسلام : ٢/٣١ - ٣٢ .

أمره الله به بعد نزول سورة " عبس " وبعد أن عاتبه الله في حادثة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الفقير فقد جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشغول باشراف قريش رجاء اسلامهم فقطع الاعمى الرسول عما هو مشغول به وناداه : علمني مما علمك الله فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم عنه فعوتب في ذلك بما نزل في هذه السورة " * عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكّى أو يذكر فتنفعه الذكرى * الى آخر الآيات (١) فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك اذا جاء يقول له " مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويبسط له رداءه " وفي هذه السورة تبدوا الديمقراطية الاسلامية بأحلى معانيها فالأعمى الفقير الذى يريد أن يسلم حقا ويتمسك بأخلاق الاسلام ويخاف الله خير عند الله من هؤلاء الأشراف والأغنياء وذوى الجاه وفيها يذكر الله نبيه في صورة عتاب بأن ضعف ذلك الرجل الأعمى وفقره لا يجوز أن يؤديا الى الأعراض عنه لأنه مؤمن بقلبه وفؤاده حيى بشعوره واعتقاده ، فانت ترى ان الله أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالمساواة بين الطبقات في المعاملات فلا فضل لغني على فقير الا بالتقوى ولا دخل للثروة والغنى واللون والنسب في تفضيل رجل على آخر .

أقول وبالله التوفيق : خلاصة القول ان الاسلام ليس فيه اعتبارات يمتاز بها الاشراف والأغنياء عن الفقراء فالاسلام ينادى بالمساواة في الحقوق المدنية والدينية . قال عز ذكره : * ان أكرمكم عن الله اتقاكم * . (٢)

---

(١) سورة " عبس " الآية : ، ٢ ، ٣ ، ٤ " .

(٢) سورة "النجم" الآية : ٣٩ - ٤١ " .
الحجرات ١٣

وبعد أن بينا ما بيننا من سماحة الاسلام ومساواته بين أهله (١) وديموقراطيته ننظر اليه أيضا من زاوية الحرية ومن خلال هذه النظرة نجد ان الكاتب بين في كتابه ان مبادئ الديموقراطية هي : الحرية والتآخي والمساواة والتشاور في الأمر ، ويمكننا ان نقول ان الاسلام قد سبق مدنية القرن العشرين وسبق الأمم المتمدنة وهو : دين حرية لا يشك أحد في أن الاسلام دين رق وعبودية فهو ضد الاسترقاق والاستعباد وقد عرف الرق من قديم الزمان عند اليونانيين والرومان واليهود وكان الانسان يباع ويشرى كأى سلعة من السلع ويعامل معاملة تنفر منها الانسانية فكان هناك سادة وعبيد فقضى الاسلام على هذا وحث في كثير من الآيات على تحرير العبيد والارقاء وحسن معاملتهم .

وبعد هذه الكلمة الموجزة عن الاسلام ومصالحه العليا أنتقل الى الكلام على الفصل الأخير المشتمل على انكار الوحدانية وعبادة الاصنام واحلال التوحيد محل هذا - ويدخل في هذا الفصل الكلام على التشاؤم ، والنذر لغير الله ،والبحيرة والسائبة والوصيلة ، والحام واحلال ماشرعه الله للتقرب اليه محل هذا .

والله أسأل ان اكون قد اتيت بالمطلوب على الوجه المرغوب.

---

(١) عظمة الاسلام : ٣١/٢ - ٣٢ .

الفصـل الثانـي في التشنيع على عبادة الأصنام

في انكار الوحدانية وعبادة الأصنام

واحلال التوحيد محل هذا

(١) قال الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ، هذه الآية من كتاب الله عز وجل مبينة للعلة التي خلق الله لأجلها هـذا الخلق من يوم خلق السموات والأرض الى يومنا هذا الا وهي عبادته سبحانه عبادة خالصة لوجهه الباقي فلا يراد منها سوى وجه الله ، ولا نجـاة للمخلوق في المحشر بدونها ، ولا شك ان للانسان السعادة ان جاء بهـا تامة على الوجه المطلوب . وقبل الدخول في هذا الباب الواسع نبين ان الله سبحانه وتعالى لا يقبل ان يكون هناك عمل ما يشاركه فيه مخلوق ما . لقوله في الحديث القدسي " أنا اغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيرى تركته وعمله " وهنا في البداية أيضا نذكر ان من شروط قبـول العمل ان يراد به وجه الله وان يكون خالصا لوجهه تعالى وان يوافق الشرع الذى شرعه لعباده فمن جاء بزيادة أو نقصان فقد جاء بأمر مردود عليه لقوله صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " ، أى : مردود عليه عمله ، ذلك الذى عمل بسبب ما أحدث فيه فالطريـق واضحة ومضاءة بالكتاب والسنة فلا حاجة في السؤال عن من أين نبدأ ولا أين ننتهي فقد بين الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك بيانا شافيا وكافيا لطالب

---

(١) فرقان القرآن بين صفات الرحمن وصفات الأكوان : ص ٢٣ .

١- سورة الذاريات الآيات ٥٦ - ٥٧ - ٥٨

٢- أخرجه مسلم جـ ٥ / ١٢٠

الحق ، ولله الحمد في الأولى والآخرة .

أقول وبالله التوفيق : الآن بعد هذه النبذة القليلة نبدأ بالأدلة على ثبوت وحدانيته ووجوده سبحانه وتعالى عما يقول الكافرون والملحدون أن جميع الكائنات جملة وتفصيلا ليس وجودها من ذاتها ، ولا وجب لها الوجود ، ولا من معدوم فان المعدوم فاقد الوجود وفاقد الشيء لا يعطيه ، بالضرورة فلا بد أن يكون واهب الوجود لها موجودا سواها ، والموجود الذى ليس هو بممكن انما هو واجب الوجود لا يشك في ذلك أحد ومن أجل ذلك قالت الرسل عليهم الصلاة والسلام للأمم : " أفي الله شك فاطر السموات والأرض " وقال الخلاق العليم ينبه العقول الى هذه القضية التي هي أوضح من الشمس ، وهي : أن ترجيح وجود الممكن على عدمه بلا موجد واجب وجوده محال ، قال تعالى : * أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون * فانظر الى سياق القرآن هذا البرهان الساطع والدليل الناصع على هذا النظم العجيب والاسلوب الآخذ بالباب أولي النهى الى جلية الحق ، روى مسلم في صحيحه عن جبير بن مطعم انه قدم المدينة وهو مشرك فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب سورة " الطور " قال : فأصغيت الى قراءته حتى اذا بلغ قوله تعالى : * أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * الى آخر الآية كاد قلبي يطير وادخل الله الاسلام على قلبي ، وأى اسلوب أعجب من هذا فقد سيق هذا البرهان لا على الطريق التي تدع لنفس السامع مجالا في

---

(١) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان : ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) سورة : الطور الآية ٣٥ - ٣٦

ح : الحديث متفق عليه البخاري ج٣ / ص٤٢

التردد ، ولكن على السبيل التي تقهر النفس على قبول الحق قهرا ، وتقسرها عن تلاعب الأوهام بها قسرا ، فان الآية قد جعلت حدوث الحادثات ، والحادث ممكن كما اسلفنا ، بلا موجد يكون واجب الوجود من الأباطيل التي بطلانها في حيز الظاهر المكشوف ، الذى ينكر على من قال به انكارا فان " أم " في الآية الكريمة بمعنى : بل وهمزة الاستفهام وهو هنا انكارى بمعنى : النفي ولله الحجة البالغة على خلقه فان الناس ماكانوا شيئا مذكورا كما قال تعالى : ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ ثم كانوا ووجود المعدوم بلا سبب موجود محال بداهة ، وكون المعدوم أوجد نفسه أظهر في الاستحالة وأبعد في الامتناع ، وواضح ان من لا يملك وجود نفسه لا يستطيع ان يعطي الوجود لسواه ، وعسى ان يكون قد بان ذلك ان شاء الله ، ان جميع الممكنات الموجودة سواء كانت ذوات أوصفات فقيرة كل الفقر في جميع أطوارها ، وكل تقلباتها الى من تعالى وجوده عن الأماكن ، وجلت صفاته عن النقصان قال القصامي : ولا يستخفنك اولئك الذين تعبدتهم المادية واضاعت ظلمات الشهوات أفهامهم فأنكروا الملك القدوس واجب الوجود فليسوا من العلم الصحيح بهذه النظرية في كثير ولا قليل فانهم أخذوا على انفسهم لا يؤمنون الا بما به يحسون ، وقصروا لفظ العلم على ما يدرك بالحواس ، فانى لهم وهذا شأنهم ان يظفروا بمعرفة من تعالى عن الحواس وتقدس عن مشابهة المادة ، والماديات التي انقطعوا اليها وما عرفوا الا قليلا من ظواهرها ، على اتساع معاملهم وكثرة ابحاثهم ، رأوا الكائنات المادية تجرى على نظم محكمة

(١) ١ -

---

(١) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان / ص ٢٤ - ٢٥ .

١ = سورة الانسان الاية ١

وقواعد مضبوطة يعبرون عنها بالنواميس حتى انك لتسمعهم يقولون : ان الطبيعة لا تلقي شيئا جزافا فاستدلوا بهذا النظام المدهش لأساطين المفكرين على أنكار واضعه جل جلاله ولو كان الجزاف سائدا في الكون لكان للمنكر شيء من الشبهة ، أما وهم المعترفون بالنواميس ودقتها والنظم وأحكامها في الكون كله من اصغر شيء وأحقره الى أكبر شيء وأعظمه فقد اندحرت كل شبهة وقام اسطع البراهين لا على وجود الخالق فحسب بل على كمال رحمته وحكمته وعنايته الى غير ذلك من صفات مجده الاعلى وكماله (١) الاسنى . يقول سبحانه : ﴿ صنع الله الذى اتقن كل شيء ﴾ (٢) ويقول جلّ ذكره : ﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه ﴾ وقال أيضا : ﴿ ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ فوجود الكائنات ناطق بوجود واهبها واكمال وجودها وتوابعه صارخ بجلال كماله وعظيم حكمته وسناد بشدة ظهوره وسطوع نوره حتى لهو عند أهل الانظار السديدة والافكار الرشيدة اظهر من الشمس وابين من كل مايحس ، بل الكائنات كلها ظلمة وهو نورها فانها به كانت وبه تبقى فهو موجدها وقيومها فان وجود ذواتها وصفاتها لا يستفاد الا منه وحده قال تعالى : ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ فالشيء في هذه الآية هو الموجود وكل موجود سواه سبحانه فهو مملوك غير مالك ، ولا لوجوده حال تصافه به فهو من حيث ذاته هالك بالفعل ، والكلية في الآية على هذا التقرير لا يستثنى منها الا ما استثنت الآية وهو الحق جلت ذاته وتعالت صفاته ،

---

(١) الفرقان بين صفات الخالق وصفات الاكوان : ص ٢٥ - ٢٧ .

(٢) سورة النمل : الآية " ٨٨ " .

٣ - سورة السجدة الآية ٧

٤ - سورة الملك الآية ٣

٥ - سورة القصص الآية ٨٨

قال القضاعي : ولك ان تقول في الآية : ان الهالك بمعنى القابل للهلاك وان لم يقع هلاكه بالفعل فتكون الآية مقررة لنفي وجوب الوجود عن جميع الكائنات ماضيها وحاضرها وآتيها ومثبتة لامكانها فان ماوجب وجوده لا يقبل الزوال كما مر ولا يقبل الهلاك الا الممكن وعلى هذا التقرير فعموم الآية على ماهو عليه فيها لا يخص منه الا الواحد الوهاب ومابقي منها أبدا كالجنة والنار وأصحابهما فانما بقاؤه لارادة الخالق ذلك وليس لأنه لا يقبل الهلاك ، والكلام في الآية الكريمة مسوق الاثبات وحدانيته في الأولوية على طريقة برهانية معجزة في انجازها كمادة القرآن في شأنه كله ، وبسط هذا المعنى الشريف ان يقال كيف تدعون مع الله الها آخر وتدعونه أى تعبدونه ، والاله يجب له الكمال الأكمل والكائنات كلها واقعة من النقص في الدرك الأسفل فما رأيتم هلاكه بالفعل فهو ظاهر النقصان بدهي الامكان لا يحتاج في نفي الألوهية عنه الى بيان وكل ما تظنون دوامه وتتخيلون له عزة البقاء فهو قابل للهلاك والفناء ، فأين هو مما تدعون ، فهو بمعزل عن القدم ، فان الموجود الذى له القدم يستحيل عليه العدم ، فانه لا يكون قديما الا اذا كان واجب الوجود لذاته ». (١)

أقول وبالله التوفيق : ان الكلمة الموجزة التي قدمت عن وحدانيته سبحانه وتعالى وان كان ذلك لا يحتاج الى برهان لولا أن الذكرى تنفع المؤمنين ، ونظرا لقوله صلى الله عليه وسلم : " فرب مبلغ أوعى من سامع"

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٧ .

(١) تبرهن هذه الأدلة على انه سبحانه وتعالى واجب الوجود وموجد المفقود ، ان عقيدة الاسلام في أصلها أقدم في التاريخ البشرى من العقائد الوثنية كلهاوجدت كاملة منذ وجدت لأنها ليست نابعة من أفكار البشرية ومعلوماتهم المترقية انما هي آتية من عند الله سبحانه فهي حق من اللحظة الأولى وهي كاملة منذ اللحظة الأولى هذا اما يقرره القرآن الكريم ، ويقوم عليه التصور الاسلامي ، فقد هبط آدم الى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها بعد أن تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وأخذ عليه

(٢) العهد والميثاق أن يتبع مايأتيه من هدى الله ولا يتبع الشيطان فانه

(٢) عدوه وعدو الله ، قال تعالى : * قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون * ، هبط آدم الى الأرض مسلما لله متبعا هداه ، ومامن شك في أنه علم بنيه الاسلام جيلا بعد جيل وان الاسلام كان أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ثم

(٣) انحرفت عن الاسلام بفعل الشيطان عدو الله وعدو الانسان وعبدت يغوث ويعوق ونسرا ، فجاء نوح ومن بعده من المرسلين ليعيدوها الى أول عقيدة عرفت في الأرض أنها الاسلام القائم على الألوهية والربوبية ، كذب علماء الأديان المقارنة القائلين بتطور العقيدة من التعدد الى الانتخاب ثم التوحيد ..

---

(١) العقيدة الاسلامية ، للدكتور كمال محمد عيسى ص ١٣٥ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٣٨ - ٣٩
(٣) عقيدة الاسلام : ص ١٣٦ .

أقول وبالله التوفيق : في هذا المقام وحين دخلنا في هـــذا البحث يجدر بنا أن نبين أنواع التوحيد في ظل الكتاب والسنة ، فالتوحيد أقسام ، أولا : توحيد الربوبية وهو توحيد الله بأفعاله ،

(١) قال تعالى : * قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمـــع والأبصار والبصر ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبـــر الأمر فسيقولون الله ، فقال أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فاني تصرمون * . هذه أسئلة يوجهها الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام الى المشركين في مكة ومن على شاكلتهـم من أهل الالحاد والشرك في كل زمان ومكان ، انها توجه العقول الـى مايجرى حولها من نعم الله يلمسونها في واقعهم يعلمونها في نفوسهم ، يشاهدونها في حياتهم انها تلك : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ من ماء ونبات وطير وأسماك ، ومعادن ، وحيوانات ، ودفء ، وحرارة ،

(٢) وضياء ، وهداية ، قال تعالى : * أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونـــه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلـــتم تفكهون ، إنا لمغرمون بل نحن محرومون أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشـــاء

(٣) جعلناه أجاجا فلولا تشكرون * وقال جل ذكره : * امن هـــذا الذى يرزقكم ان أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور * يسأل الله سبحانه العبيد ان امسك رزقه ، أو أمسك ماءه ، من يأتي برزق ، من يـــأتي

---

(١) سورة يونس : الآية " ٣١ " .

(٢) سورة الواقعة : الآيات " ٦٣ - ٦٧ " .

(٣) سورة الملك : الآية " ٢١ " .

بماء يشرب صالح للشرب ، " قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ويسأل أيضا سبحانه عمن يملك السمع والبصر ، أم هي المنقطعة بمعنى : بل تفيد اضراب الانتقال من سؤال الى سؤال (١)

من يستطيع خلقها ؟ من يستطيع تسويتها ؟ من يقدر على حفظها من الآفات ؟ من يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها ، ان العلم يكشف عن دقائق صنع الله ، فيها مما يلوى اعناق المكذبين المشركين ومن هناكانت هذه الاعضاء امانة عند صاحبها وكان مسؤولا عنها أمام واهبها فيقال للانسان يوم القيامة لم سمعت مالا يحل لك سماعه لم نظرت الى ما لا يحل لك النظر اليه ، لم عزمت على مالا يحل لك العزم عليه ، * ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا * ١ م

من يخرج الحي من الميت أى : الطائر من البيضة والنبات من الحبة والانسان من البويضة ، من يخرج الميت من الحي ، أى : البيضة من الطائر والحبة من النبات والبويضة من الانسان وما أعجب ذلك حتى بعد ان أثبت العلم ان في كل منها حياة واستعدادا ، أين كانت تكمن السنبلة في الحبة أين كان الفرخ في البيضة ؟ أين كان الكائن البشرى في البويضة ينقضي العجب العجيب ولا تفسير له ولا تأويل الا قدرة الله وخير مثل يعطيه العلم لاخراج الحي من الميت والميت من الحي هو : الدم الحي في اجسم الحي يتولد من الطعام الذى يموت بالطهو (٢)

---

(١) العقيدة الاسلامية : ص ٣٠ .

(٢) في ظلال القرآن : ص ١٧٨١ .

١ = سورة الاسراء الآية ٣٦

والنار ثم يتحول هذا الدم الحي الى فضلات ميتة بالاحتراق ، من يدبر الأمر أي : من يقدره ويقضيه بين الخلائق وهذا من عطف العام على الخاص ، من يدبر حركة الافلاك ؟ من يدبر حركة الحياة ، من يدبر السنن الاجتماعية بين الناس ، فسيقولون الله ، هذا جوابهم عن كل سؤال بانه الله ، * فقل أفلا تتقون * مابالكم لا تخشون قدرته وتشركون في العبودية سواه ، ثم يتهمهم القرآن مؤيدا اجابتهم منددا بانحرافهم عن الفطرة ، وانصرافهم عن التوحيد الى الشرك ومن الحق الى الضلال ، والحق واضح لا يتعدد : * فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانى تصرفون * .

ثانيا : توحيد الألوهية :

(١) توحيد الألوهية هو : توحيد الله بأفعال خلقه ، هناك أعمال تصدر من العباد لا يصح أن يتوجهوا بها الا الى الله وحده لأنها تخص الله عز وجل دون سواه فان اتجهوا بها الى غيره فقد وقعوا في الشرك منها الدعاء ، قال تعالى : * فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذ هم يشركون * عن النعمان ابن بشير رضي الله عنهما : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (٢) " الدعاء هو العبادة " ثم قرأ : " * وقال ربكم ادعوني أستجب لكم * لكن الناس في تناقض عجيب فحين يكونون على صفحة الماء تلعب

---

(١) العقيدة الاسلامية : ص ١٤ .

(٢) سورة غافر : الآية " ٦٠ " .

بهم الرياح وتتقاذفهم الأمواج تستيقظ فطرتهم التي تحس وحدانية اللـه فيلبون نداءها ويستجيبون لوجبها لجوء الى الله بمشاعرهم ، ودعاء اليه بألسنتهم ، فاذا نجوا الى البر وآمنوا المخاوف عادوا الى ماكانوا عليـه من الشرك بالله ودعاء لغير الله .

أقول وبالله التوفيق : من هذا النوع الثاني من التوحيد الـذى التزمت تبينه في هذا البحث : النية والقصد ، قال تعالى : ﴿مـن (١) كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطـل ماكانوا يعملون﴾ اختلف المفسرون في هذه الآية فقال الضحاك : نزلت في الكفار وأهل الشرك واختاره النحاس ، وقال أنس : نزلت في اليهـود والنصارى ، وقيل نزلت في المنافقين والأولى حملها على العموم لتشمـل الناس كافرهم ومسلمهم واذا كانت النية مدار الثواب والعقاب فـي الأعمال يرجع اليها لقوله صلى الله عليه وسلم : " انما الاعمال بالنيات ،" وهذا حديث صحيح ثابت وسنتكلم على صحته بعد قليل بحول الله تعالى .

---

(١) سورة هود : الآية " ١٥ ".

انظر ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٩

وابن الجوزي جـ ٩ ص ٨٤

فان من قصدوا بعمل الخيرات والطاعات الدنيا وحدهـــــا وأرادوا بسعيهم زخارفها الكاذبة ومتعتها الزائلة من ثراء ورياء ينالـون أجور اعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا ورزقا وصحة ومتاعـــا لكن ليس لهم في الآخرة الا النار فكل عملهم [illegible] باطل حيث لم يريدوا به الآخرة ، وفي الحديث القدسي : " انا أغنى الاغنياء عن الشرك م مـن عمل عملا أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه " رواه مسلم . وفي هــــذا القسم من التوحيد حقوق لله عز وجل منها حق التشريع قال تعالـــى : * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريـــم وما أمروا الا ليعبدوا اله واحدا لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون *) وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الطاعة بطاعتهم

الكلام على الحديث المتقدم :

(١) الحديث فرد غريب صحيح قال الحافظ ابو بكر البزار بعـــد تخريجه - فيما نقل عنه العراقي (ص ٨٥) : " لا يصح عـن النبي صلى الله عليه وسلم الا من حديث عمر ، ولا عن عمر الا من حديث علقمة ، ولا عن علقمة الا من حديث محمد بن ابراهيم ، ولا عن محمد ابن ابراهيم الا من حديث يحيى بن سعيد) .

(٢) قال ابن حجر العسقلاني في النخبة : كان قيل حديث : " انما الاعمال بالنيات فرد لم يروه عن عمر الا علقمة . قال : قلنا : قد خطب به عمر رضي الله عنه على المنبر بحضرة الصحابـة ==

---

(١) الباعث الحثيث في علوم الحديث ص ٥٧ الهامش

(٢) نخبة الفكر في مصطلح أهل الاثر ص ٢٥ .

ا = انظر ص ١٩ من هذه الرسالة

== فلولا أنهم لا يعرفونه لأنكروه كذا قال ، وتعقب بأنه لا يلزم من كونهم سكتوا عنه أن يكونوا سمعوه من غيره وبأن هذا لو سلم في عمر منع في تفرد علقمة " ، فالحديث فرد كما بينت ، والغريب والفرد مترادفان لغة واصطلاحا الا أن أهل الاصطلاح غايروا بينهما من حيث كثرة الاستعمال وقلته فالفرد أكثر مايطلقونه على الفرد المطلق والغريب أكثر مايطلقونه على الفرد النسبي وهذا من حيث اطلاق الأسمية عليهما . وأما من حيث استعمالهم الفعل المشتق فلا يفرقون ، يقولون في المطلق والنسبي تفرد به فلان ، أو اغرب به فلان ، وهذا مثل اختلافهم في المرسل والمنقطع هل هما متغايران أم لا ؟ وعلى أية حال هذا الحديث تواتر النقل عن الأئمة في تعظيمه فقد اتفق عبد الرحمن بن مهدى والشافعي فيما نقله البويطي عنه ، واحمد بن حنبل ، وعلي بن المديني ، وابو داود ، والترمذى ، والدارقطني ، وحمزة الكناني على أنه ثلث العلم ، ومنهم من قال ربعه واختلفوا في تعيين الباقي ، وقال ابن مهدى : يدخل في ثلاثين بابا من العلم ، وقال الشافعي يدخل في سبعين بابا ، وقد أخرجه الأئمة في كتبهم ، سوى مالك بن انس ووهم من زعم انه في الموطأ وقد جاء هذا الحديث بلفظ الأعمال والنيات بالجمع ، وجاء بالافراد أيضا - فيهما - . وجاء كذلك بحذف " انما " وزعم قوم انه متواتر وليس كذلك ، ولكنه مجمع على صحتة وهو أحد القواعد الثلاث التي ترد اليها الأحكام عند الامام احمد وهذا هو معنى : كونه ثلث العلم عنده ، الا اذا عنى بالتواتر ، التواتر المعنوى - نعم تواتر عن يحيى بن سعيد ، فقد حكى محمد بن علي بن سعيد النقاش الحافظ انه رواه عن يحيى مائتـان وخمسون نفسا .

(١) في تحريم ما أحل الله وتحليل ماحرم ، فان قيل قد قال تعالى * أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم * قيل هم العلماء وقيل هم
(٢) الأمراء وهما روايتان عن احمد قال ابن القيم : والتحقيق : ان الآية تعم الطائفتين ، قيل انما تجب طاعتهم اذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله ، فالأمراء منفذين له ، فحينئذ تجب طاعتهم تبعا لطاعة الله
(٣) ورسوله ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " لا طاعة في معصية انما الطاعة في المعروف " وقال ايضا : على المرء المسلم السمع والطاعة مالم يؤمر بمعصية فاذا أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة " فليس في هذه الآية مايخالف آية براءة ومعنى الآية واضح : الاحبار : جمع حبر بالفتح والكسر وهم
(٤) علماء اليهود ، والرهبان : جمع راهب ، وهم علماء النصارى . أما كيف اتخذهم اليهود والنصارى أربابا فيفسره حديث عدى بن حاتم قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ في سورة التوبة : * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله * الآية ، فقال : اما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكن كانوا اذا أحلوا لهم شيئا استحلوه واذا حرموا عليهم شيئا حرموه " رواه احمد والترمذى وحسنه . انظر ص ٢٦ [illegible]

النساء ٥٨
(١) سورة ~~التوبة الآية~~ "٣٣".
(٢) العقيدة الاسلامية : ص ١٤١ - ١٤٢ .
(٣) أخرجه البخاري : ٢٠٣/١٣ ، فتح الباري ، ومسلم : ١٥/٦ ، أبو داود رقم ٢٦٢٥ ، والنسائي : ١٨٧/٢ والطيالسي : ص ١٠٩ ، واحمد : ٩٤/١ ، وطرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة : ١٤١/١ - ١٤٤ ، للشيخ ناصر الدين .
(٤) العقيدة الاسلامية : ص ١٤٤ .

أقول وبالله التوفيق : اذا قيل في الحديث رواه أحمد ؛ فالذى يتبادر الى الذهن أنه في المسند وليس هو فيه كما نص على ذلك غير واحد ممن تعرضوا لهذا الحديث ، والسيوطي في الدر المنثور (١) لم يعزه اليه مع انه عزاه لمن هو دون احمد . وللحديث طريق واحد فقد أخرجه الترمذى وابن جرير (٢) عن غطيف بن أعين ، وغطيف ضعيف ، وقال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه الا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن اعين ليس بالمعروف في الحديث وعلى أية حال الحديث له شاهد موقوف من حديث حذيفة عن ابن جرير بنحوه وربما تقوى به . وجاء في التقريب غطيف بن أعين الشيباني الجزرى ، ويقال بالضاد المعجمة ، ضعيف من السابعة ، وقال في ترجمته في التهذيب : روى له الترمذى حديثا واحدا وقال : ليس بمعروف في الحديث .

أقول وبالله التوفيق : الحديث الذى روى له الترمذى هو هذا الذى تكلمت عليه وبينت مافيه (٣) . وفي هذه الآية مايزجر من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله وتأثير مايقوله الاسلاف على مافي الكتاب والسنة المطهرة فان طاعة المتمذهب لمن يقتدى به في القول ويستن بسنته من علماء هذه الامة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه هو : كاتخاذ اليهود والنصارى

---

(١) الدر المنثور : ٣/٢٣٠

(٢) الترمذى : ٨/٤٨٢ .

(٣) تحفة الاحوذى : ٨/٤٩٣ .

للأحبار والرهبان أربابا من دون الله للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ماحرموا وأحلوا ما أحلوا ، وهذا هو : صنيع المقلدين من هذه الأمة وهو أشبه به ، قال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كلام الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال : ﴿ وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا ﴾ أى : الذى اذا حرم الشيء فهو الحرام واذا أحله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما نهى عنه نبذ ، وقال الألوسي في تفسيره : (١)

الأكثرون من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا انهم آلهة العالم بل المراد انهم اطاعوهم في اوامرهم ونواهيهم " والآية تقرر أن الشرك بالله يتحقق بمجرد اعطاء حق التشريع لغير الله من عباده ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بالألوهية ولا تقديم الشعائر التعبدية له -

ومن ثم تسوى الآية في الوصف بالشرك بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم واطاعوهم وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح ، ولقد واجه القرآن اليهود بأنهم يقولون : " عزيز بن الله وواجه النصارى بأنهم يقولون : المسيح بن الله فلم يعترضوا على هذه التهمة الخطيرة ولم يكذبوا أنهم يدعون هذه الدعوى الكاذبة التي لا تصدر عن ايمان فحق عليهم أن يدمغهم بأنهم لا يدينون دين الحق ولا يؤمنون بالله فدين الحق هو التوحيد والايمان بالله يقتضي تنزيهه عن مشابهة البشر وعن اتخاذه الصاحبة والولد فالبشر انما يتخذون الأبناء لحاجتهم الى الامتداد في ابنائهم والى العون في كبرهم ، والله سبحانه وتعالى هو الغني القوى الخالق الباقي الذى خلق كل شيء ﴿ انما امره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون ﴾ . (٢)

---

(١) في ظلال القرآن : ١٠/٥٥ .

(٢) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٥٢٧ ط / ٢

سورة يس الآية ٨٢

وأما معنى الحديث الذي تقدم : انا أغنى الأغنياء عن الشرك " لما كان المرائي قاصدا بعمله الله تعالى وغيره كان قد جعل الله تعالى شريكا فاذا كان كذلك فالله تعالى هو الغني على الاطلاق والشركاء بل جميع الخلق فقراء اليه بكل اعتبار فلا يليق بكرمه وغناه التام ان يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك فان كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه (١) يوجب ان لا يقبل ذلك ، ولا يلزم من اسم التفضيل اثبات غنى للشركاء ، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين وان كان أحدهما لا فضل فيه كقوله تعالى : * آلله خيرا ماتشركون * وقوله تعالى : * أصحاب الجنة (٢) يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا * وقوله : * من عمل عملا أشرك فيه (٣) غيرى * أي : من قصد بذلك العمل الذي يعمله لوجهي غيري من المخلوقين " تركته وشركه " .

وفي رواية عند ابن ماجه وغيره : " فانا منه بريء وهو للذي أشرك " . قال الطيبي : الضمير المنصوب في تركته يجوز أن يرجع الى العمل والمراد من الشرك الشريك ، قال ابن رجب : واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياء محضا فلا يراد به سوى مراءات الناس المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم كما قال تعالى : * واذا قاموا الى (٤) الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا * . وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الاعمال الظاهرة أو التي

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : ص ٥٢٧ .
(٢) سورة النمل : الآية " ٦٠ " .
(٣) سورة الفرقان : الآية " ٢٥ " .
(٤) سورة النساء : الآية " ١٤٢ " .

يتعدى نفعها فان الأخلاق فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم في أنه حابط وان صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء فان شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه كالحديث الذى قدمت وحديث شداد بن أوس " من صلى يرائي فقد أشرك وان الله عز وجل يقول : ﴿ أنا خير قسيم لمن أشرك بي شيئا ، فان جده وعمله قليلة وكثيره لشريكه الذى أشرك به أقول انا عنه غني " (١)

أقول وبالله التوفيق : الأحاديث كثيرة وكذلك نصوص القرآن التي تنص على ان الشرك محبط للأعمال فلا نطيل بذكر ذلك كله ، والآن نبدأ في القسم الأخير وهو الثالث من هذه الأقسام التي سبق أن التزمت تبيينها في هذا البحث وهو : توحيد الأسماء والصفات .

---

(١) رواه احمد . انظر مسند أحمد ج٤ / ١٢٦

توحيد الأسماء والصفات :

(١) قال الله عز وجل : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ماكانوا يعملون ﴾ وقال :
(٢) ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وقال : ﴿ قل هو الله
(٣) أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ قال الدكتور كمال : هذه الآيات تقدم مفاهيم عن الله تبارك وتعالى تركوا بها
(٤) نفس المؤمن ويستقيم ايمانه انها تلك : لله الاسماء الحسنى جاء ذلك في أربع سور من كتاب الله عز وجل : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ قل ادعو الله أو ادعو الرحمن ايما تدعو فله الأسماء الحسنى ﴾ وهو الله الخالق البارى والمصور له الأسماء الحسنى ﴾ وذلك اخبار بما له سبحانه من أسماء على الجملة دون التفصيل وقد وصفها بالحسنى تأنيث الأحسن أى : التي هي : أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى
(٥) وأشرف مدلول ، أخرج البخارى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله
٦ صلى الله عليه وسلم : " ان لله تسعة وتسعين اسما - مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر " وهذا لا ينبغي أن يكون له اسماء أخرى غيرها ، يقول ابن كثير وابن القيم : ان الأسماء الحسنى

---

(١) سورة الاعراف : الآية " ١٨٠ "
(٢) سورة الشورى : الآية " ١١ ".
(٣) سورة الاخلاص : الآية " ١ "
(٤) العقيدة الاسلامية : ص ١٤ .
(٥) البخارى : ٩٦/٩ ، الفجالة .
٦= مسلم ٢٠٦٣/٤

لا تدخل تحت حصر ، ولا تحد بعدد فان لله تعالى اسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها مالك مقرب ولا نبي مرسل كما جاء في الحديث " أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ". فجعل أسماءه ثلاثة أقسام : قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه ، وقسم أنزله في كتابه فتعرف به الى عباده ، وقسم استأثر به في علم الغيب فلم يطلع عليه احدا من خلقه ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : " فيفتح على من محامده بما لا أحسن الآن " ومنها (١) قوله صلى الله عليه وسلم : " لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " ودعاء الله لا يكون الا بتلك الأسماء ودعاؤه بها مرتبتان :

أحدهما : ثناء وعبادة ، ثانيهما : دعاء طلب ومسألة ، فلا يثنى عليه الا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وكذلك لا يسأل الا بها دون غيرها (٢) فأسماؤه سبحانه توقيفية على ماجاء في كتابه او على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وقد نص القرآن الكريم على أن من الناس من يلحد في اسمائه تعالى فيميلون بها وينحرفون بحقائقها عن الحق الثابت ، والالحاد في اسمائه تعالى انواع : احدها : تسميته الاصنام بها كتسميتهم اللات من الالهية ، والعزى من العزيز (٣) ، الثاني : تسميته تعالى بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا ، الثالث : وصفه بما يتعالى عنه

---

(١) رواه أحمد والحاكم .

(٢) بدائع الفوائد : ١/ ١٤ .

(٣) العقيدة الاسلامية : ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

ا- جمع الفوائد من جامع الاصول ومجمع الزوائد ص ٧٥٦/٢ والشافي ص ٤ / ٤٤

ويتقدس من النقائص كقول اليهود انه فقير ، الرابع : تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول : انها الفاظ مجردة ، لا تتضمن صفات ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع - والبصير ،والحي ويقولون : لا حياة له ولا سمع ولا بصر . خامسا : تشبيه صفاته بصفات المخلوقين تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا ، فهم اذن يلحدون في اسمائه تعالى بالتغيير او بالزيادة أو بالنقصان ، والأمر بترك الملحدين معناه : الوعيد كقوله تعالى : * ذرني ومن خلقت وحيدا * وقوله : * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا * ، وهذا أولى (١) لقوله : * سيجزون ماكانوا يعملون * والقرآن الكريم حين يعرف بالله (٢) عز وجل يتخذ اسلوبا مشرقا لا غموض فيه ولا التواء يقوم علىتقديمن الله بأوصافه وأفعاله .

روى الامام احمد في مسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه : ان المشركين قالوا : يامحمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى : (٣)

* قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد * ليس كمثله شيء فلا يشبهه له ولا ند ولا نظير ، فيجب الايمان بكل صفة وصف الله بها نفسه على الحقيقة وعدم التعرض لها بشيء من التكييف أو للتمثيل أو التشبيه مع الاعتقاد بأنه سبحانه منزه عن مشابهة المخلوقات ومن صفاته التي انفرد بها سبحانه : الأول ، والآخر ، قال تعالى :

---

(١) سورة المدثر : الآية " ١١ ".
(٢) سورة الاعراف : الآية " ١٨٠ ".
(٣) مسند الامام احمد . ترتيب الساعاتي جـ ١٨ / ٢٩٢
(٤) سورة الاخلاص : الاية " ".

وعند ابن ابي حاتم المستدرك ٢ / ٥٤٠ هامش كنز العمال
والترمذي جـ ٥ / ١٢١

(١) أ- * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * وقال :

* كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون * ، وقـــال

(٢) جل ذكره : * كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجـــلال

والاكرام * فالأولية دالة على أزليته وانه لا شيء قبله ، والأخرية دالة

على أبديته وأنه لا شيء بعده والظاهرية دالة علىعظمته وانه لا شـيء

فوقه ، والباطنية دالة على معيته وانه لا شيء دونه احاطت أولويته ،

وأخريته بالزمان والمكان فلا أول لوجوده اذ لم يسبقه عدم كما لا آخـر

لوجوده فلا يلحقه سبحانه - فناء ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بالمكان

كله فهو سبحانه محيط بكل شيء ظاهر وباطن كما انه محيطا بالأوائل

والأواخر ، وتدل الآيتان الأخيرتان على انه سبحانه الدائم الباقـي

الذى يموت الخلائق ولا يموت فكل الذوات فانية زائلة الا ذاته تعالـى

وقد ثبت في الصحيح عن ابي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " اصدق كلمة قالها لبيد الا كل شيء ماخلا الله

باطل .

أقول وبالله التوفيق : بعد هذا نعود الىالآيات المتقدمـة

فنقول : لماذا جاءت هذه الاسماء الأربعة متعاطفة والأصل في ذكـر

صفات الله الذاتية تجريدها من العطـــف كما في الكتاب العزيز،

العليم ، السميع ، البصير ، الغفور الرحيم ، فيجيب عنها ابن القيم :

---

(١) العقائد الاسلامية : ص ١٥٥-١٥٦

(٢) أ- سورة الحديد : الآية " ٣ " .

(٣) سورة الرحمن الآية " ٢٦ - ٢٧ ".

(١) فيجيب عن هذا ابن القيم فيقول : أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المتعاطفات ايذانا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها لأن في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه ، يدرأ به توهم الانكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد ، فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على ان الوصف بالأولية هو الوصف بالأخروية فكأنه قيل هو الأول وهو الأخير وهو الظاهر وهو الباطن لا سواه ، ولما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من (٢) طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها ، بل لابد لها من موجد ، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى ولما كان كمال الألوهية يقتضي عدم احتياج الاله الى غيره ، بل ان من صفاته قيامه بنفسه ، عرفنا ان الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج الى من يوجده ، واذا وضعت النقطتين السابقتين الى جانب هذا الكلام اتضح لك هذا المقام ، والعقل البشرى أقصر من أن يتورط في أكثر من ذلك . وبهذه الكلمة نكون قد اتيت على الأقسام الثلاثة الذى سبق ان التزم ببيانها عندما عنت في الموضوع أرجو ان اكون قد تجنبت التطويل الممل والتقصير المخل والله حسبي ونعم الوكيل .

ونكون أيضا قد بينا الجانب الأول من الفصل الثاني في انكار الوحدانية وعبادة الأصنام ، وان التوحيد حل محل هذا ، وندرك

---

(١) بدائع الفوائد : ١ / ١٩٠ .

(٢) العقائد الاسلامية : ص ٥٦ ، ٥٧ .

ان عقيدة التوحيد هي الباقية وغيرها يذهب جفاء فلا يمكث في الأرض وهي كذلك العقيدة التي نزلت تامة متكاملة . والشرك طارئ على أهل الارض عندما طال بهم الأمد ، وعبدوا يغوث ويعوق ونسرا وبعد ذلك جاءت العقيدة السماوية لتحل محل الأوثان وتزيل الباطل والأوهام ، وكان هؤلاء الاصنام قد أضلوا كثيرا ، قال تعالى : ﴿ ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ﴾ ولما جاءت هذه العقيدة السمحة كانت بشارة لأهل الأرض لان من حقق التوحيد دخل الجنة ، قال تعالى : ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ (١) ومناسبة هذه الآية أن الله سبحانه وصف المؤمنين السابقين الى الجنات بصفات أعظمها الثناء عليهم بأنهم بربهم لا يشركون أى : شيئا من الشرك في وقت من الأوقات فان الايمان النافع مطلقا لا يوجد الا بترك الشرك مطلقا ، ولما كان المؤمن قد يعرض له مايقدح في ايمانه بشرك جلي أو خفي نفى عنهم ذلك ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النهاية وفاز بأعظم التجارة ودخل الجنة بلا حساب ولا عقاب . (٢) قال لا ب ابن كثير : " والذين هم بربهم لا يشركون " أى : لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون انه لا اله الا الله أحدا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وانه لا نظير له ولا كفوء له ، ويعلم ان كل شيء انما يصدر عن قضاء الله وقدره فالشقي من شقي في بطن امه والسعيد من سعد في بطن امه رفعت الاقلام وجفت الصحف . (٣)

---

(١) سورة المؤمنين : الآية " ٦١ "

(٢) كتاب التوحيد ، تفسير العزيز الحميد : ص ١٠١

(٣) تفسير ابن كثير : ٢٤٨/٣ ط عيسى البابي الحلبي وأولاده

وهذا يبين من قوله تعالى : * ولقد بعثنا في كل قرية

(١) رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين *

(٢) وقال عزوجل : * ان تحرص على هواهم فان الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين * . قال ابو بكر محمد بن الحسن الآجرى بعد سرد الأبيات : كل هذا يبين لكم الرب عزوجل به ان الانبياء انما بعثوا مبشرين ومنذرين وحجة الله على الخلق فمن يشاء الله له الايمان آمن ومن لم يشأ الله له الايمان لم يؤمن قد فرغ الله عزوجل من كل شيء قد كتب الطاعة لقوم وكتب المعصية على قوم ويرحم أقواما بعد معصيتهم اياه فيتوب عليهم وقوم لا يرحمهم ولا يتوب عليهم لا يسأل عما يفعل وهم يسألون " . قال ابن تيمية : واذا عرفت حكمة الرب وعدله تبين أنه

(٤) انما يرسل الرسل الذين اصطفاهم لرسالته واختارهم لها لاقامة الحجة على الناس كما قال * الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس * وكما قال لموسى عليه السلام : * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * وانه اذا بلغ الرسالة وقام بالواجب وصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم كما قضت به السنة في الرسل الى سائر ما أخبر به من أحوال الرسل ، والرسل صادقون مصدقون يخبرون بالحق . ويأمرون بالعدل ويدعون الى عبادة الله وحده

---

(١) سورة النحل : الآية " ٣٦ " .

(٢) سورة النحل : الآية " ٣٧ "

(٣) كتاب الشريعة للآجرى : ص ١٦٧ .

(٤) كتاب : النبوات لابن تيمية ص ٩٩ ، ط ١٣٤٦ هـ .

لا شريك له . أقول وبالله التوفيق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم قاموا بالتبليغ على أتم وجه وأكمله فهم مأمورون بالتبليغ والهداية التي هي هداية : ارشاد وتوجيه فقط . كما قال تعالى : ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ . قال ابن القيم : جمع المنتسبين الى العلم من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم يقطعون بأن الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار ويعفو عن بعضهم . قال الجويني (١) : اعلم وفقك الله تعالى لمرضاته ان كتاب الله العزيز اشتمل على أي دالة على تفرده سبحانه بهداية الخلق واضلالهم والطبع على قلوب الكفرة منهم ، وهي نصوص لابطال مذاهب مخالفي أهل الحق ، ونحن نذكر غرضنا من آيات الهدى والضلال ثم نتبعها بالآى المحتوية على ذكر الختم والطبع فمما يعظم موقعه عليهم قوله تعالى (٢) : ﴿ والله يدعو الى دار السلام ويهدى الله من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ ، وقوله تعالى (٣) : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأن مايصعد الى السماء ﴾ وقال أيضا : ﴿ من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون ﴾

الهدى في هذه الآيات لا يتجه حمله الا على خلق الايمان ، وكذلك لا يتجه حمل الأضلال على غير خلق الضلال ، ولسنا ننكر (٤)

---

(١) كتاب : الارشاد الى قواطع الادلة في اصول الاعتقاد للجويني ص ٢١٠ .
(٢) سورة يونس : الآية " ٢٥ ".
(٣) سورة القصص : الآية " ٥٦ ". الرقم الاول ١٢٧
(٤) سورة الانعام الآية " ١٢٥ ".
(٥) كتاب الارشاد للجويني : ص : ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ .
أ- سورة الاعراف الآية ١٧٨

ورود لفظ الهداية في كتاب الله عز وجل على غير المعنى الذى رمناه ،

(١) فقد يرد والمراد به الدعوة قال تعالى : * وانك لتهدى الى صراط مستقيم * وقد ترد الهداية المراد بها الارشاد للموءمنين الى مسالك الجنان والطريق المفضية اليها يوم القيامة ، قال تعالى :

(٢) * فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم * فذكر الله تعالى المجاهدين في سبيله وعنى بهم المهاجرين والأنصار ثم قال :

* سيهديهم ويصلح بالهم * فينبغي حمل الآية على ماذكرناه ،

(٣) وقال تعالى في الكفار : * فاهدوهم الى صراط الجحيم * ، معناه : فاسلكوا بهم ، والمعنى قوله تعالى : * واما ثمود فهديناهم

(٤) فاستحبوا العمى على الهدى * أى : على مادعوا اليه من الهدى يقول الامام الجويني : انما أشرنا الى انقسام معنى الهدى والضلال ونحيطوا علما بأننا لاننكر ورود الهدى والضلال على غير معنى الخلق ولكنا خصصنا بالآى التي صدرنا الفصل بها ولا سبيل الى حملها على الدعوة فانه تعالى فصل بين الدعوة والهداية فقال : * والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم * فخصص الهداية وعمم الدعوة وهذا مقتضى ما استدللت به من الآيات ولا وجه لحملها على الارشاد الى طريق الجنان فان الله تعالى علق الهداية بمشيئته

---

(١) سورة الشورى : الآية " ٥٢ ".
(٢) سورة محمد : الآية " ٤ " .
(٣) سورة الصافات : الآية " ٢٣ " .
(٤) سورة فصلت : الآية " ١٧ "

وارادته واختياره ، وكل من يستوجب الجنان فحتم على الله عنـــد المعتزلة أن يدخله الجنة وقوله تعالى : * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام * فصرح بأحكام الدنيا وشرح الصدور وحرجها وذكر الاسلام من أصدق الآيات على ماقلته . (١)

أقول وبالله التوفيق : لا يجب على الله سبحانه وتعالى شيء الا ما أوجب على نفسه تفضيلا منه كما جاء في الحديث الصحيح : " ما حق الله على العبيد وما حق العبيد على الله " فذلك حق أوجبه على نفسه ، وأما آيات الطبع والختم فمنها قوله تعالى : * ختم الله على قلوبهم * وقال جل ذكره : * بل طبع الله عليها بكفرهم *(٢) (١) وقال أيضا : * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا * وقوله تعالى : * وجعلنا قلوبهم قاسية * . (٣)

يقول الجويني : وقد حارت المعتزلة في هذه الآيات واضطربت لها آراؤهم فذهبت طائفة من البصريين الى حملها على تسمية الرب تعالى الكفرة بنبذ الكفر والضلال ،قالوا : فهذا معنى الطبع ولا خفاء في سقوط هذا الكلام ، فان الرب تعالى تمدح بهذه الآيات وأنبأ بها عن اقتداره واقتداره على ضمائر العباد واسرارهم وبين ان القلوب بحكمه يقلبها كيف يشاء وصرح بذلك في قوله تعالى : * نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة * . (٤)

---

(١) سورة الانعام : الآية " ١٢٥ " .
(٢) سورة البقرة : الآية " ٧ " .
(٣) ~~سورة النساء : الآية~~ " ١٥ " . سورة المائدة ... ٢٥
(٤) سورة الانعام : الآية " ١١٠ " .
... ٢٢٨/٥

فكيف يجاز حمل هذه الآيات على تسمية وتلقيب وكيف يسوغ ذلك للبيب ؟ قال محمد الغزالي : في كتابه عقيدة المسلم في الكلام على قوله : * يضل من يشاء * : يقول الخطب في ذلك سهل كذلك ولن نذهب في بيانه الى أبعد من كلام الله لمن شاء ان يفهم * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * ونحن نجد أن اطلاق المشيئة في آيات تقيده آيات أخرى يذكر فيها الاختيار الانساني صريحا : أي : ان اضلال الله لشخص معناه ان هذا الشخص آثار الغي على الارشاد فأقره الله على مراده وتم له ماينبغي لنفسه ، * فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين * ، وانظر الى قيمة التنويه بالاتجاه البشرى المعتاد ، قال تعالى : * ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا * فهل بقي غموض في اطلاق المشيئة لا ان معنى قوله * يضل من يشاء * لا يتعدو قوله : * وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه * وكذلك الحال في * يهدى من يشاء * انظر الى قيمة الارادة الانسانية في قول الحق وهو يتكلم عن ارادته ، * قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب * الذين آمنوا وتطمأن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب * .

---

(١) كتاب عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي : ص ٨٨ - ٨٩

(٢) سورة ~~الرعد الآية ٢٨~~ النساء الآية ١١٥

(٣) سورة الرعد الآية ٢٨

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦ - ٢٧

(٥) سورة القمر الآية ١٧

فهو يهدى اليه من أناب : * ان الله لا يهدى القوم الفاسقين * اجمل أيها المسلم هذا النور بين يديك وسر في نوره بين شتى السور فلن تجد في دين الله قلقا أو اضطرابا وانما القلق والاضطراب في عقول الحمقى وقلوب الغافلين ، ثم يعترض فضيلة الشيخ سوءالا فيرد عليه ويقول : مع أنه لا مبرر له فنحن نتبرع بالاجابة عنه . أما السوءال نفسه يدور حول حدود الارادة الدنيا والعليا في الأعمال ، ويقول الشيخ أن سبب اجابته عن هذا السوءال كي يظهر السر في نسبة الهداية والاضلال تارة الى الله عز وجل وتارة للانسان ، ويضرب لذلك مثلا بما يفعله الفلاح في حقله انه يلقي البذور ويتعهده بالسقي وعلى الله الانبات والاثمار فتستطيع ان تسمي الفلاح زارعا وأنت صادق لقيامه بالسبب ، وتستطيع ان تسمي الحق سبحانه زارعا لقيامه بالعمل : * افرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما * فما للانسان في سعيه مثل ماللفلاح في زرعه . فازرع عمرك ان شئت خيرا فان يد القدرة سوف تنميه لك وردا يانعا أو ان زرعه ان شئت شرا فان يد القدرة تنميه شوكا رائعا .

(١) * وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والموءمنون * .

أقول وبالله التوفيق : لا شك أن الأمر كله لله وان قلوب العباد يقلبها الرب سبحانه كيف يشاء . ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم : " يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " . (٢)

---

(١) سورة :

(٢) كتاب الايمان لابي شيبة العبسي : ص ١٧ .

١ - سورة الواقعة الاية ٦٣

(١) أخرج ابن أبي شيبة في كتاب الايمان : حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن أبي سفيان عن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه

(٢) وسلم يكثر أن يقول : " يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قالوا : يارسول الله آمنا بك وبما جئت فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم . ان القلوب بين اصبعين من أصابع الله يقلبها " وقال أيضا : حدثنا معاذ بن معاذ أنبأنا ابو كعب صاحب الحريرى أنبأنا شهر بن حوشب قال : قلت لام سلمة : يا أم المؤمنين ماكان دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان عندك ؟ فقالت : كان أكثر دعائه : " يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، " ، قلت : يارسول الله ما أكثر دعاءك : " يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟

(٣) قال : يا ام سلمة ليس من آدمي الا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله ماشاء أقام وما شاء أزاغ " .

(٤) قال صاحب كتاب فتح المجيد : العبد وان كانت له مشيئة فمشيئته تابعة بمشيئة الله ولا قدرة له على أن يشاء شيئا الا اذا كان الله قد شاءه كما قال تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤن الا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

---

(٢) كتاب الايمان لأبي شيبة العبسي : ص ١٧
(٢) الحديث موقوف صحيح كما قال الالباني في تعليقه على كتاب ابن أبي شيبة.
(٣) صحيح الاسناد على شرط مسلم واخرجه احمد : ٢٥٧/٣ ، من طرق أخرى عن الاعمش به والترمذى : ٢٠/٢ عن أبي معاوية به وقال : حديث حسن ، وزاد في آخره كيف يشاء.
(٤) كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : ص٤١٩ تأليف الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ .

ا = سورة التكوير الآية ٢٩

وقوله تعالى : ﴿ ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا وما تشاءون الا أن يشاء الله ان الله كان عليما حكيما ﴾ .

وفي هذه الآيات والأحاديث الرد على المعتزلة القدرية الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فهو القاهر لخلقه والمخالف لهم في صفاته وأفعاله . ان من يتحقق لديه من صفات الله تعالى انه مخالف للحوادث ومنزه عن مشابهتها تنزيها تاما ثم يلاحظ تأكيد هذه الحقيقة من خلال اسماء الله الحسنى المأثورة التي تعود الى مخالفته تعالى للحوادث فيتصور معنى اسماء الله " السلام " والقدوس" " والغني " " والصمد " " والأول والآخر والباقي " فانه لا يمكن أن يقع في خطأ تشبيهه جل وعلا بمخلوقاته ، أو تشبيه مخلوقاته به . (١)

أقول وبالله التوفيق : كل المسلمين يعلمون ان الله سبحانه وتعالى نفى أن يكون لغيره ملك وذلك في قوله تعالى : ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ومن لا يملك هذا المقدار فليس بأهل أن يدعى . (٢) قال ابن تيمية : نفى الله عما سواه كل مايتعلق به المشركون ، فنفى ان يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله ، (٣)

---

(١) عقيدة المسلم : ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ط ١ ، عبد الرحمن حبنكه الميداني .

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٢ .

(٣) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : ص ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ .

سورة الانسان الآية ٣٠

ولم يبق الا الشفاعة فبين أنها انها لا تنفع الا لمن أذن له الرحمن كما قال : ﴿ ولا يشفعون الا لمن ارتضى ﴾ (١) فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي : منفية يوم القيامة كما نفاها القرآن وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه يأتي فيسجد لربه يحمده لا يبدأ بالشفاعة أولا ثم يقال له ارفع رأسك واشفع تشفع الى آخر الحديث المعروف .

ومعنى كلام ابن تيمية : القسط بكسر القاف هو : النصيب من الشيء وذلك في قوله : " ومالهم فيهما من شرك " أى : ما لمن تدعونه من الملائكة وغيرهم فيهما أي : في السموات ولا في الارض من شرك " ومن ليس بمالك ولا شريك للمالك فكيف يدعى من دون الله ، قوله : أو أن يكون عونا لله ، ذلك في قوله : ﴿ وماله منهم من ظهير ﴾ ، أى : ماالله ممن تدعونهم عون . وعلى أية حال فجملة الشروط التي لابد وان يكون أحدها في المدعو اربعة حتى يقدر على اجابة من دعاه ، الأول : الملك ونفاه سبحانه بالآية التي قدمت وهي قوله : ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض .

الثاني : اذا لم يكن مالكا يكون شريكا للمالك فنفاه أيضا (٢) بقوله : ﴿ ومالهم فيهما من شرك ﴾ .

الثالث : اذا لم يكن مالكا ولا شريكا للمالك فيكون عونا ووزيرا فنفاه بقوله تعالى : ﴿ وماله منهم من ظهير ﴾ . (٣)

---

(١) سورة الأنبياء : الآية " ٢٩ " .
(٢) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٢٩٠
(٣) سورة سبأ : الآية (٢٢) .

الرابع : اذا لم يكن مالكا ولا شريكا ولا عونا فيكون شفيعا
فنفي سبحانه الشفاعة عنده الا باذنه فهو الذى يأذن للشافع ابتداء
فيشفع ، فبنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله اذ ليس عند غيره
من النفع والضر مايوجب قصده بشيء من العبادة كما قال تعالى :
(١) ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم
وهم لهم جند محضرون ﴾ وقال جل ذكره : ﴿ واتخذوا من دونه
(٢) آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون
موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾ .

وهذه الآيات المعنى المراد من ايرادى لها بين منها نصا
ومعنى ، وأرجو أن اكون قد أعطيت عرضا كافيا لهذا الموضوع الآنف
الذكر والذى بينت فيه انفراد الله بصفاته وأفعاله ومشيئته وان العبد أضعف
من أن يكون مالكا او شريكا او معينا أو شفيعا الا بأذنه تعالى الله عن
الاعتقادات الفاسدة علوا كبيرا ، ونود أن نبين هنا ان التكاليف علمية
وعملية كما قال الشيخ محمود شلتوت حيث قال : للانسان قوتان
أحدهما : نظرية وكمالها في معرفة الحقائق على ماهي عليه ،
والأخرى : عملية وكمالها في القيام بما ينبغي من الشئون في الحياة ،
وقد قرر الاسلام هذا المبدأ أساسا لسعادة الانسان في الدنيا والآخرة
كما جاءت تكاليفه نوعين منها مايطلب علما ومنها مايطلب عملا ونرى

---

(١) سورة يس : الآيات " ٧٥ = ٧٦ ".
(٢) سورة الفرقان : الآية " ٣ ".
الفرقان ٣

ذلك واضحا جليا في هذه الكثرة من الآيات القرآنية التي تجمع بين الايمان والعمل وتربط بينهما النجاة والسعادة " * من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة * ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا * * والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات * .

وقد اصطلح العلماء على تسمية التكاليف التي تتطلب علما " بالعقائد " أو اصول الدين كما اصطلحوا على تسمية التكاليف التي تتطلب عملا " بالشريعة " أو الفروع " . ولما كانت الحقائق التي يمكن ان يعملها الانسان كثيرة وكان أكثرها لا يتصل من قريب بالسعادة التي يقصدها الشارع قضت الحكمة ان يبين للناس مايجب عليهم أن يؤمنوا به في سبيل الحصول على تلك السعادة وذلك عند التحقيق يرجع الى الأصول التي اشتركت فيها العقائد السماوية جميعها من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

أقول وبالله التوفيق : هذه الأمور أتفقت عليها الشرائع السماوية كلها وحددها الشارع وطلب من الناس الايمان بها فلا يطلب منه أن يقوم بعمل ماقبلها أى : قبل الايمان بها والايمان كما هو معروف هو : الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل ، يقول محمود شلتوت: ومن الواضح ان هذا الايمان لا يحصله كل مايسمى دليلا وانما يحصله الدليل القاطع الذى لا تعتريه شبهة ، وبهذه النبذة ندرك أن العقيدة الاسلامية حلت محل الكفر والشرك بالله وأن الكتب المنزلة بينت مايجب بيانه وبلغت الرسل الأوامر والنواهي على أكمل وجه .

كما قال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع آخر حجة حججها :

" اللهم اشهد هل بلغت ، وقد شهد الله له بالتبليغ في قوله :

١- ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ والشرائع متفقة كما قدمت على مايتعلق بالمقائد ، .

ونلاحظ هنا ان الذين وقع بينهم بعض الخلافات سواء في اسماء الله أو صفاته أو افعاله متفقون أيضا على تنزيه الله وان اختلفت الافهام فالمقصد واحد وهو : تقديسه تعالى وتنزيهه عن النقائص فمن أول بعض الصفات أو الأسماء فذلك فرارا من التشبيه ومن أثبتها فرارا من التعطيل . وان كان الصواب اثبات ما أثبته الله لنفسه ، ونفي مانفاه عنها .

وهنا ننهي هذه الكلمة بعد أن بينا كيف حلت العقيدة محل الشرك . ونبدأ بالفقرة الثانية لننفي فيها مانفاه الله في كتابه العزيز مما اتخذه الكفار من تحريم ما أحل الله وتحليل ماحرم افتراء عليه سبحانه وتعالى : ٢- ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ وأول هذه التشريعات الشيطانية التي جاءوا بها من وحيه ما جعلها الله سبحانه وتعالى وما أمر بها ولا أقرها هي : البحيرة .

١- سورة الذاريات الآية ٥٤
٢- سورة النحل الآية ١١٦

مبحث ١

باب البحيرة والسائبة والوصيلة والحام

" البحــيرة "

(١) قال الراغب الأصفهاني في بحر أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير ، هذا هو الأصل ، ثم اعتبر تارة سعته المعاينة ، فيقال : بحرت كذا أو سعته سعة البحر تشبيها به ومنه بحرث البعير شققت أذنه شقا واسعا ومنه سميت البحيرة قال تعالى : * ماجعل الله من بحيرة * وذلك ماكانوا يجعلونه بالناقة اذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها فيسيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها وسمّوا كل متوسع في شيء بحرا حتى قالوا فرس بحر باعتبار سعة جريه ، وللمتوسع في علمه بحر وقد تبحر أي : توسع في كذا ، والتبحر في العلم التوسع ، واعتبر من البحر تارة ملوحته فقيل ماء بحراني ، أي : ملح . وقال بعضهم : البحر يقال في الأصل للماء الملح دون العذب وقوله تعالى : * البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج " انما سمي العذب بحرا لكونه مع الملح كما يقال للشمس والقمر * قمران ، وقيل للسحاب الذى كثر ماؤه : نبات بحر ، وقوله تعالى : * ظهر الفساد في البر والبحر * قيل اراد في البوادى والارياف لا فيما بين الماء وقولهم لقيته : صحرة ، بحرة ، أي : ظاهرا .

---

(١) مفردات الراغب في غريب القرآن : ص ٣٧ ، ط/ الاخيرة .

١- سورة المائدة الآية ١٠٣

٢- سورة فاطر الآية ١٢

٣- سورة الروم الآية ٤١

حيث لا شيء يستره .

أقول وبالله التوفيق : أكثر مارأيت من المفسرين وكتب اللغة حاصل بينهم الاتفاق على هذه المادة أن اصلها التوسع وتستعمل في أشياء من ضمنها : شق اذن الدابة وهو : المطلب عندى بايراد هذه المادة ، قال ابو حيان : البحيرة فعيلة بمعنى مفعولة كالنطيحة بمعنى المنطوحة قال أبو عبيدة : هي الناقة اذا انتجت خمسة أبطن في آخرها ذكر شقوا أذنها وخلوا سبيلها ، لا تركب ولا تحلب ولا تطرد عن ماء ولا مرعى . وروى نحوه عن ابن عباس ، الا أنه لم يذكر عنه آخرها ذكر . وقال الشوكاني : والبحيرة فعلية بمعنى مفعولة فمرفها بما عرف به البحر وغيره . وبهذا القول ايضا قال ابن جرير الطبرى وفي الصحيح عن سعيد بن المسيب : البحيرة هي : التي يمنع درها فلا يحلبها أحد من الناس . وهكذا قال القرطبي في كلامه على هذه الآية فنقل كلام الطبرى بالحرف وأورد ماروواه سعيد بن المسيب في معنى البحيرة الا أن القرطبي قال : وقيل : البحيرة لغة هي : الناقة مشقوقة الأذن يقال : بحرت اذن الناقة أى : شققتها . شقا واسعا وهذا في رأيي راجع الى أصل المادة كما بينت آنفا .

(١) (٢) (٣) (٤)

---

(١) تفسير البحر المحيط لابي حيان : ٤/٢٨-٢٩ .
(٢) تفسير الشوكاني المسمى فتح القدير : ٢/٧٧ .
(٣) تفسير ابن جرير الطبرى : ٦/٣٣٧ ط / الثانية .
(٤) تفسير القرطبي : ٦/٣٣٥ .

قال الشاعر :

محرمـة لا يطعم الناس لحمهـــا

ولا نحن في شيء كذاك البحائـــر

أقول وبالله التوفيق : ظاهر كلام القرطبي انه جعل هذه الفعلة التي تفعل للناقة هي : أصل هذه المادة وليس كذلك بل الأصل هو : كما بين الراغب مفرداته ، وأبو حيان في البحر ، وابن جرير الطبرى فـــــي تفسيره وقد تقدم هذا كله قبل قليل . وقال في تفسيره : كانوا اذا نتجت (١) الناقة عشرة بطون شقوا أذنها نصفين طولا فهي محورة وذلك كله ضـــــلال

أقول وبالله التوفيق : اذا كان وقع بعض من الخلاف الطفيــــف في أصل هذه المادة ومشتقاتها فكذلك وقع الخلاف في مفردات هذه الآية الكريمة من سورة " المائدة " وأنا اتتبع ذلك وابين الراجح فيه عندى بعـــد الاطلاع على الاقوال وأدلتها من ذلك قوله " ماجعل الله " جعـــل هنا اكثر المتعرضين للآية على أنها بمعنى : سمى قال الطبرى : جعل هنا بمعنى : سمى ، كما قال تعالى : ﴿ انا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ ، أى : سميناه والمعنى في هذه الآية : ماسمى الله ولا سن ذلك حكمـــا ولا تعبد به شرعا بيد أنه قضى به علما وأوجده بقدرته خلقا فان الله خالق كل شيء من خير وشر ونفع وضر وطاعة ومعصية وهو قول القرطبي والشوكاني : قال عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره : " وجعل في هذه الآية لايتجه أن يكون بمعنى خلق ولا بمعنى صير وانما هي بمعنى : ماسن ولا شرع ،

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن : ٤٩٢/١ لعبد الرحمن الثعالبي

٥ ـ سورة الزخرف الآية ٣

(١) قال جار الله ابو محمود في كتابه الكشاف : " ماجعل الله بمعنى : ماشرع ذلك ولا أمر بالتحبير والتسيب وغير ذلك ولكنهم بتحريمهم ماحرموا على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون " قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : (٢)
فأما البحيرة فقال علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما هي : الناقة اذا انتجت خمسة أبطن ، قلت : قد تواترت أخبار المفسرين في تفاسيرهم على هذا المعنى . قال ابو حيان قال ابو عبيدة هي : الناقة اذا انتجت (٣)
خمسة أبطن ، وقال ابن جرير : البحيرة وهي : التي يمنع درها فلا يحلبها احد من الناس . (٤)

أقول وبالله التوفيق : الظاهر ان العرب كانوا يختلفون في الطريق التي كانوا يفعلون في هذه العادة السيئة التي جعلوها عبادة كالنذر في الاسلام والعتق فيه قال ابن جرير : وأما كيفية عمل القوم في ذلك فلا علم لنا به وقد وردت الاخبار بوصف عملهم ذلك على ماقد حكينا وغير ضائر الجهل بذلك اذا كان المراد من علمه المحتاج اليه موصلا الى حقيقته وهو ان القوم كانوا يحرمون من أنعامهم على انفسهم مالم يحرمه الله اتباعا منهم خطوات الشيطان فوبخهم الله تعالى بذلك وأخبرهم ان كل ذلك حلال ، فالحرام عندنا من كل شيء ماحرم الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم والحلال كذلك . وقد اختلف أقوال أهل العلم في المعنى " بالذين كفروا " في هذا الموضوع ، والمراد بقوله : * وأكثرهم لا يعقلون " * .

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ١/ ٦٨٥ .
(٢) تفسير ابن كثير : ١/ ٧٠ .
(٣) تفسير البحر المحيط لابي حيان : ٤/ ٢٨ - ٢٩ .
(٤) تفسير ابن جرير الطبري : ٦/ ٣٣٨ .

(١) قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك عندى بالصواب أن يقال ان المعنيين بقوله : * ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون * الذين بحروا البحائر وسيبوا السوائب ووصلوا الوصائل ، وحموا الحامي مثل عمرو بن لحي وأشكاله ممن سنوا لأهل الشرك السنن الرديئة وغيروا دين الله دين الحق . وأضافوا اليه تعالى انه هو الذى حرم ماحرموا وأحل ما أحلوا افتراء على الله الكذب وهم يعلمون واختلاقا عليه الافك وهم يعلمون فكذبهم الله تعالى في قيلهم ذلك،

(٢) أقول وبالله التوفيق : اذا كنت بينت جانبا من العادات الجاهلية التي اتخذها الكفار تشريعا يحلون به ماحرم الله ، ويحرمون ما أحلّ افتراء عليه وبالأخص مايتعلق " بالبحيرة من ذلك " فان هذه الآية الكريمة من سورة المائدة صدرت بذكر السائبة ، والوصيلة والحام فينبغي ايضاح ماقام به الكفار من عادات نحوهم فهم مثل البحيرة من ناحيتي الاعتقاد والعادة والان نجمل القول فيهم في هذا المقام حسب تعاريف العلماء .

(٣) قال ابو حيان : السائبة فاعلة من ساب اذا جرى على وجهه يقال : ساب الماء وسابت الحية . وقيل هي : المسيبة اسم الفاعل بمعنى المفعول نحو قولهم : عشية راضية أى : مرضية . قال أبوعبيدة : كان الرجل اذا قدم من سفرا ونذر نذرا أو شكر نعمة سيب بعيرا فكان

---

(١) المصدر السابق : ٧/٩٢.
(٢) ابن جرير الطبرى : ٧/٩٢.
(٣) البحر المحيط : لابي حيان : ٤/٢٩.

بمنزلة البحيرة في جميع ماحلوا لها ، وقد قال مجاهد : تلك البحيرة :

(١) ماانتجت السائبة قال الشافعي : كانوا يبحرون البحائر ويسيبون السوائب ويوصلون الوصيلة ويحمون الحامي على غير معان ، سمعت كثيرا من طوائفهم يحكون فيه فتجتمع حكاياتهم على أن ماحكوا منه عندهم من العلم العـام الذى لا يشكون فيه ولا يمكن في مثله الغلط لأن فيما ذكروا أنهم سمعوا عوامهم يحكون عن عوام من كان قبلهم فكان مما حكوا مجتمعين على حكايته أن قالوا : " البحيرة : الناقة تنتج بطونا فيشق مالكها اذنهـا ويخلي سبيلها ويحلب لبنها في الأبطح ولا يستجيزون الانتفاع بهـا ثم زاد بعضهم على بعض ، والسائبة العبد يعتقه الرجل عـنـد الحادث مثل البرء من المرض أو غيره من وجوه الشكر ويقول : قد أعتقتك سائبة ولا ولاء لنا عليك ولا ميراث يرجع منك ليكون أكمل لتبررنا فيـك وقال في أحكام القرآن : ولما كان العتق لا يقع على البهائم رد رسول الله صلى الله عليه وسلم ملك البحيرة والوصيلة والحام الى ملكه وأثبت العتق وجعل الولاء لمن أعتق ، والبحر أيضا : داء يصيب الابل من كثـرة شرب الماء ، ومنه قول الشاعر :

لاعلطنك وسما لا تفارقـه

كما يحـر بحمى الميسم البحـر

(٢) قال ابن جرير بنحو الذى قلنا في البحيرة جاء الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وساق بسنده عن أبي الأحوص عن أبيه قال : دخلت

---

(١) احكام القرآن للشافعي : ص ١٤٣/١

(٢) تفسير ابن جرير الطبري : ٨٦/٧ - ٨٧ .

على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : رأيت ابلك الست تنتجها مسلمة آذانها فتأخذ الموسى فتجدعها تقول هذه بحيرة وتشق آذانها تقول : هذه حرام ؟ قال : نعم ، قال : فان ساعد الله أشد وموسى الله أحد كل مالك لك حلال لا يحرم عليك منه شيء " ، قال الفخر الرازي : اعلم انه تعالى لما منع الناس من البحث عن امور ما كلفوا بالبحث عنها كذلك منعهم عن التزام أمور ماكلفوا التزامها ولما كان الكفار يحرمون على أنفسهم الانتفاع بهذه الحيوانات وان كانوا في غاية الاحتياج الى الانتفاع بها . بين تعالى ان ذلك باطل فقال : ﴿ ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ .

أقول وبالله التوفيق : قد تكلمت قبل قليل على معنى : ماجعل الله وانها بمعنى : ماشرع وتزييد ذلك وضوحا هنا ، قال الفخر (١) : اعلم انه يقال فعل ، وعمل ، وطفق ، وجعل ، وانشاء وأقبل وبعضها اعم من بعض وأكثرها عموما فعل لانه واقع على أعمال الجوارح وأعمال القلب أما انه واقع على اعمال الجوارح فظاهر وأما انه واقع على اعمال القلب فالدليل عليه قوله تعالى : ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا الى قوله تعالى : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ وأما عمل فانه أخص من " فعل " لأنه لا يقع الا على الجوارح ولا يقع على الهم ، والعزم ، والقصد ، والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم (٢) :

---

(١) كتاب : الأم للشافعي : ١٨١/٦ / ط ١

(٢) احكام القرآن للشافعي : ١٤٣/١ .

ح = سورة النحل الآية ٣٥

" نية المؤمن خير من عمله " جعل النية خير من العمل فلوكانت النية عملا لزم كون النية خيرا من نفسها ، وأما جعل فله وجوه :

أحدها : الحكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ﴾ . وثانيها : الخلق ومنه قوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ . وثالثها : بمعنى التصير ومنه قوله : ﴿ انا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى : ﴿ ماجعل الله ﴾ أى : ماحكم ولا شرع ولا أمر به ، وقد ذكر الله سبحانه هنا امورا :

الأولى البحيرة وبينت معناها وحكمها وأنها : الناقة تشق أذنها وتترك للطاغوت وهذا لا يعرف له وجه سوى الحرمة وانه من أعمال المشركين التي حرمها الله وحذر منها بالاضافة الى ذلك التحريم والتشنيع لا معنى لها كما أشار الى ذلك ابن جرير ، قال ابن حجر في الفتح : والفعل لا يتناول القول حقيقة ويتناوله مجازا .

أقول وبالله التوفيق : قول الفخر الرازى ان فعل تتناول فعل الجوارح والقلب ليس على اطلاقه كما اشرنا له آنفا .

الثاني : من هذه المسائل ، السائبة وقد بينتها لغة ومعنى ،

والثالث : الوصيلة وأكثر المفسرين على أنها الشاة تلد ذكرا وانثى قاله الزمخشرى (١) اذا ولدت الشاة انثى فهي لهم وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، ذكرا وانثى ، قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، هذا هو معنى الوصيلة والشائع بين المفسرين بيد انه روى عن ابن عباس ان الوصيلة في الابل ، وقال القرطبي : الوصيلة ، الشاة اذا تمت

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : جـ ١ / ٦٤٩

(٢) تفسير القرطبي : ٩/٥/٢ - ٣٣٦ .

١ = سورة الزخرف ١٩

عشرة ابطن ، وقال الراغب الأصفهاني في قول الله عز وجل " ولا وصيلة " (١)
هو ان احدهم كان اذا ولدت له شاة ذكرا وانثى قالوا وصلت أخاهـــا
فلا يذبحون أخاها من اجلها قال الحافظ ابن كثير : والوصيلة ، قال (٢)
علي بن أبي طلحة ت عن ابن عباس هي : الشاة اذا انتجت سبعة أبطن
نظروا الى السابع فان كان ذكرا وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا :

وصلته اخته فحرمته علينا . رواه ابن ابي حاتم ، وقال عبد الرزاق :
انبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب " ولا وصيلة " قال :
فالوصيلة من الابل ، وكذا روى عن الامام مالك بن أنس .

أقول وبالله التوفيق : هذه الخلافات لا تجني من تحقيقها كثير
فائدة لذلك نكتفي بعزو الاقوال فيها الى اصحابها : والاكثرون كما (٣)
قدمت على ان الوصيلة من الغنم كما قال الثعالبي في تفسير الجواهر
الحسان ، فقال : وعلى ان الوصيلة في الغنم جاءت أكثر الروايات ، (٤)
قال السيد قطب عليه رضوان الله وعلى اية حال هناك روايات شتى عـــن
تعريف هذه الانواع من الطقوس لا ترتفع على هذا المستوى من التصويـــر
ولا تزيد الاسباب معقوليته على هذه الاسباب وهي كما ترى أوهام مـــن

---

(١) مفردات الراغب في غريب القرآن ص ٥٢٥ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٢/١٠٨ .
(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن : ١/٤٩٢ .
(٤) في ظلال القرآن : ٧/٢٠-٢٦ .

ظلمات الوثنية المخيم ،وحين تكون الأوهام هي الحكم لا يكون هنـــاك حد ولا فاصل وسرعان ما تتفرغ الطقوس ويضاف اليها وينقص منهـــا بلا ضابط الا الأهواء والأوهام وهذا هو الذى كان في جاهلية العـــرب والذى يمكن ان يحدث في كل زمان ومكان حين ينحرف الضمير البشرى من التوحيد المطلق الذى لا منعرجات فيه ولا كلام ، والجاهلية فتـرة من الزمان ولكنها حالة في الوجدان ، فأما وجدانية واضحة تجمع كـــل خيوط المشاعر والافكار والاتجاهات والنشاط ، واما وثنية في صورة مـن الصور لا ضابط لها ولا حدود لأن العقل البشرى وحده لا يكفي اذا لم يكن الضابط الموزون في الضمير ، فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين اذا لم يكن هناك ذلك الضابط الموزون ، الى أن قال سيد قطب، اما الوصيلة فان بعض أهل اللغة ذكر أنها الانثى من الغنم اذا ولدت مع الذكـر .

أقول وبالله التوفيق : هذا يعزز الأقوال التي سبق ذكرهـــا واتفاقها على ان الوصيلة من الغنم ، وأرجو ان يكون هذا كافيا فـــي بيانها وتعريفها ومعناها والله الموفق .

أما الحام فهو من الابل بلا شك وهو أيضا من الأنعام التـــي حرمت ظهورها كما قال الفخر الرازى : وهو قول السدى ، وقـــال

(١) الراغب " ولا حام " قيل : هو الفحل اذا ضرب عشرة أبطن . كان

(٢) يقال : حمى ظهره فلا يركب ، وقال ابن كثير في تفسيره وقال علـي

---

(١) في ظلال القرآن : ٧ ٢٥ - ٢٦

(٢) المفردات في غريب القرآن للاصفهاني ص ١٢٣ .

(٣) تفسير الحافظ ابن كثير : ٢/١٠٩ .

ابن ابي طلحة عن ابن عباس ، وأما الحام فالفحل من الابل اذا ولد ولده ، قالوا : حمى ظهره فلا يحملون عليه شيئا ولا يجزون له وبرا ولا يمنعونه من ماء ولا حمى وان كان الحوض لغير صاحبه ، وقال ابن وهب سمعت مالكا يقول : اما الحام فمن الابل كان يضرب في الابل فاذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية ، وقال سيد قطب : الحام الفحل من الابل كان يضرب الضراب المعدود فاذا بلغ ذلك العدد يقال : حمى ظهره فيترك فيسمونه : الحامي ، قال الشاعر :

(١) حماها أبو قابوس في عز ملكه
كما قد حمى أولاد الفحل

وهذا أيضا قول الطبرى والشوكاني وغيرهما من المفسرين .

أقول وبالله التوفيق : بعد أن بينت معنى مفردات هذه الآية من قوله عز وجل : ﴿ ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ يجدر بنا ان نتعرض لمعرفة أول من اتخذ هذه الطريقة الفاسدة الذى تحمل وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة والعياذ بالله تعالى . وبعد معرفة ذلك والتأكد منه بما يدل عليه من نصوص محكمة نرجع بعون الله الى الآية أيضا لنعرف ماذا أخذ العلماء منها وما الذى استنتجوه من أحكام على ضوء ما نصت عليه تصريحا أو تلويحا ، أما المسألة الاولى التي هي :

(٢) أول من اتخذ هذه الفعلة الشنيعة فان العلماء اعطوا ذلك اهتماما

---

(١) تفسير القرطبي : ٦/٣٣٥-٣٣٦ .

(١) لكبر جريمته ، فقد روى الامام البخاري قال : حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا ابراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد ابن المسيب : قال البحيرة : التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء.
قال : وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت
(٢) عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبة في النار كان أول من سيب السوائب "
قال ابن كثير ورواه مسلم والنسائي من حديث ابراهيم بن سعد به ، ثم قال البخاري وقال لي أبو اليماني أخبرنا شعيب عن الزهري قال : سمعت سعيدا يخبر بهذا وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ، ورواه ابن الهاد ، عن ابن شهاب عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الحاكم : أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا حكاه أبو الحجاج المزي في الأطراف وسكت ولم ينبه عليه وفيما قاله الحاكم نظر فان الامام احمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد عن ابن الهاد عن الزهري نفسه والله أعلم ، ثم قال البخاري : حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني حدثنا حسان بن ابراهيم حدثنا يونس عن الزهري عن عروة ان عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت جهنم يحطم
(٣) بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه في النار ، وهو اول من سيب

---

(١) صحيح البخاري : ٦/٦٤٠.
(٢) تفسير ابن كثير : ٢/١٠٧
(٣) القصب بوزن قفل : اسم للأمعاء كلها .

السوائب ، قال ابن كثير تفرد به البخارى ، وقال ابن جرير : حدثنا هناد حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن اسحاق حدثني محمد بن ابراهيم ابن الحارث عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أكثم بن الجون " يا أكثم رأيت عمرو بن لحي ابن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل به منك ولا بك منه " فقال : أكثم أتخشى أن يضرني شبهه يارسول الله (١) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الا انك مؤمن وهو كافر انه أول من غير دين ابراهيم وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي " قال ابن كثير ثم رواه عن هناد عن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه أو مثله .

(٢) وقال الامام احمد : حدثنا عمرو بن مجمع حدثنا ابراهيم عن ابي الاحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ان أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر واني رأيته يجر أمعاءه في النار " تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وقال :

(٣) عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اني لأعرف أول من سيب السوائب وأول من غير دين ابراهيم عليه السلام قالوا : ومن هو يارسول الله ، قال : " رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم ألبانهما ثم شرب ألبانهما بعد ذلك فلقد رأيته في النار وهما يعضانه بأفواههما

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى : ٦/٣٣٨ .
(٢) مسند الامام احمد :
(٣) مصنف عبد الرزاق : ٩/٢٦ .

أ.ب.

انظر صحيح الجامع الصغير ٢/٦٩١

ويطآنه بأخفافهما ، فعمرو هذا هو : ابن لحى بن قمعة أحـــد (١)
رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم وكان أول من غير دين ابراهيم
الخليل فأدخل الأصنام الى الحجاز ودعا الرعاء الى عبادتها والتقـرب
بها وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها كما ذكره الله
تعالى في سورة " الانعام " قال تعالى : * وجعلوا لله مما ذرأ مـن
الحرث والأنعام نصيبا * (أ)

أقول وبالله التوفيق : هذه النصوص التي أوردت لبيان أول من
فعل هذه الفعلة تختلف مراتبها اختلافا كبيرا فبعضها ثابت في الصحيح
لا مطعن فيه ، والثاني منها ان لم ينهض الى درجة حديث البخـــارى
فعلى الأقل يقوى بعضها بعضا فتصبح لمجموعها دليلا قاطعا على أن
هذا الرجل هو أول من دعا الى هذه العبادة الوثنية الشنيعة ونضـــيف
هنا الى ذهن القارىء الكريم أن حديث البخارى في هذا الموضوع والـذى
تقدم تقريره وجاء فيه : " رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبة في النار (٢)
وكان أول من سيب السوائب وبحر البحائر " المرفوع منه قوله : "رأيت
عمروا بن عامر فقط " كما نص على ذلك ابن حجر في الفتح . وقد أشار
المناوى في فيض القدير شرح الجامع الصغير الى أن الحديث متفق عليه (٣)
من حديث ابي هريرة وان الامام أحمد اخرجه في مسنده كذلك .

والحديث أيضا له طريق أخرى من رواية عائشة في البخـــارى

---

(١) البخارى : ٤٦/٦ .
(٢) فتح البارى : ٢٨٤/٨
(٣) فيض القدير : ٩/٤ ط/ الاولى .

أ - سورة الأنعام الآية ١٣٦

الا أن روايتها في صحيح البخاري رأيتها بدون " كلمة " في " النار " وجميع تفسير الأربعة المذكورة في الآية عن سعيد بن المسيب وقع في رواية الاسماعيلي من طريق يعقوب بن ابراهيم بن سعد عن أبيه بهذا الاسناد الا انه بعد ايراد المرفوع قال وقال : سعيد بن المسيب : الوصيلة الناقة الى آخره " فأوضح أن التفسير جميعه موقوف وهذا هو المعتمد ، قال ابن حجر وهكذا أخرجه ابن مردويه من طريق يحيى ابن سعيد وعبيد الله بن زياد عن ابن شهاب مفصلا وقوله في المرفوع : " وهو اول من سيب السوائب " زاد في رواية ابي صالح عن أبي هريرة عند مسلم " وبحر البحيرة وغير دين اسماعيل " وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم مرسلا " أول من سيب السوائب عمرو بن لحي ، وأول من بحر البحائر رجل من بني مدلج جدع اذن ناقته وحرم شرب لبنها والأول أصح والله أعلم . (١)

أقول وبالله التوفيق : الأثر الذى نحن فيه رواه الطبراني باسنادين أولهما محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين المصرى ثقة وأبوه عبد الله بن عبد الحكم بن أعين الفقيه المصرى ثقة مترجم له في التهذيب ، وشعيب بن الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي المصرى ثقة وأبوه الليث بن سعد الامام الجليل القدر ، وابن الهاد هو يزيد بن الهاد منسوبا الى جده وهو : يزيد بن عبد الله بن اسامة ابن الهاد " ثقة .

---

(١) مصنف عبد الرزاق : ٩/ ٢٦ ط / الاولى .

الاسناد الثاني

يونس هو : يونس بن عبد الأعلى الصدفي " ثقة " وعبد الله يونس الكلاعي " ثقة " من شيوخ البخاري مترجم له في التهذيب ، وخبر أبي هريرة هذا من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن ابي هريرة رواه احمد في المسند رقم ٨٧٧٣ من طرق وأشار اليه البخاري في صحيحه ٤٦/٦ وذكره ابن حجر في الفتح ٢١٤/٨ ، وقد رواه قبل من طريق صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد ، ورواه احمد قبل ذلك منقطعا رقم ٧٦٩٦ من طريق عبد الرزاق عن معمر وعن الزهري عن أبي هريرة ، وأما مسلم فرواه في صحيحه ١٨٩/١٧ من طريق صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد وذكره ابن كثير : ٢٥٣/٣ في تفسيره وأشار الى ان ابن الهاد قد ثبت سماعه عن الزهري ولم يبين هو ما اراد ابو الحجاج بما قال ولم يفسر الحافظ في الفتح كلام المزي ولم يتطرق اليه ، وبما قدمته من الكلام على هذه الآثار ارجو ان اكون قد بينت وما فيه كفاية من النصوص المتعلقة بهذه الفعلة التي ضل فيها المشركون كغيرها من أفعالهم القبيحة الشنيعة واذا نظرنا قليلا الى هذه الافعال التي ظلوا عليها يرجون بها التقرب الى الباري جل وعلا وفكرنا مليا فلا نجد لها مبررا يحفز على فعلها سوى ما يمليه الشيطان على اوليائه ومن هذه الزاوية ندرك ان الله سبحانه وتعالى لا يعبد الا بما شرع وان العبادة لا تنفع الا اذا وافقت الشرع السماوي فلم يكن الأمر فيها متروكا للرأي ، ولا لما يصبوا اليه الانسان ولا ما يستحسنه فقد يرى

حسنا ماليس بالحسن والنص الشرعي هو الفصل في كل مايأتي الانسان وما يدع والتشريع قد تم والوحي انقطع كما هو معروف فلا يتطلع الانسان الى غير الموجود الا لغرض مشبوه والموجود فيه الكفاية التامة ،

(١) * اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا *

وبعد هذا النص القرآني يتضح أن من زاد أو استزاد فقد ساهم في التشويش على الاسلام وأهله ، نسأل الله العفو والعافية وأن نكون عند أوامره ونواهيه انه سميع مجيب .

والآن نبدأ في بيان النقطة الثانية التي استنتجها بعض العلماء من هذه الآية الكريمة والتي ذكرت في مطلعها اني سأتعرض لما دلت عليه الآية تصريحا أو تلويحا ، وسنناقش ماعزى الى الامام ابي حنيفة رضي الله عنه من تعلقه بهذه الآية في منع : الأحباس ورد الأوقاف بل نتتبع نسبة القول اليه لمعرفة حقيقته والله الموفق والهادى الى أقوم سبيل .

١- السورة المائدة الايه ٣

مناقشة استنتاج ابي حنفية من الآيـــة

(١) أقول وبالله التوفيق : ان الامام ابا حنيفة رضي الله عنه تعلـق بهذه الآية في منع الاحباس ورد الأوقاف بحجة ان الله تعالى عـــاب على العرب ما كانت تفعل من تسييب البهائم وحمايتها وحبس أنفاسهـــا عنها وقاس على البحيرة والسائبة ، والفرق بين ، ولو عمد رجل الـى ضيعة له فقال : هذه تكون حبسا لايجتنى ثمرها ، ولا تزرع أرضهـــا ولا ينتفع منها بنفع لجاز أن يشبه هذا ل بالبحيرة والسائبة وقد قـال علقمة لمن سأله عن هذه الأشياء ماتريد الا شيئا كان من عمل الجاهلية وقد ذهب وقال نحوه ابن زيد وجمهور العلماء على القول بجواز الاحبـاس والأوقاف ماعدا ابي حنيفة وأبي يوسف وزفر ، وهو قول شريح الا أن أبا يوسف رجع عن قول ابي حنيفة في ذلك لما حدثه ابن علية عن ابـــن عون عن نافع عن ابن عمر انه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يتصدق بسهمه من خيبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احبـس الاصل وسبل الثمرة" وبه يحتج كل من أجاز الاحباس وهو حديث صحيح قاله ابو عمر ، وأيضا فان المسألة اجماع من الصحابة وذلك أن أبا بكـر وعمر وعثمان وعليا وعائشة وفاطمة ، وعمرو بن العاص وابن الزبير وجابـــرا كلهم وقفوا الأوقاف بمكة والمدينة وهي معروفة مشهورة وروى أن ابا يوسف قال لمالك بحضرة الرشيد : ان الحبس لايجوز . فقال له مالك هـــذه أحباس رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبره وفدك ، وأحباس أصحابه ،

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٣٨/٦ / ط وزارة التعليم والتربية بمصر.

٢- صحيح الجامع الصغير ص ١/ ١١١ والبخاري ج ٢/ ١٤ والنسائي ج ٦/ ٢٢٠ وابن ماجه ج ٢/ ٨٠١ الحديث رقم ٢٣٩٧

وأما ما احتج به أبو حنيفة من الآية فلا حجة فيه لأن الله سبحانه انما عاب عليهم ان تصرفوا بعقولهم بغير شرع توجه اليهم أو تكليف فرض عليهم في قطع طريق الانتفاع واذهاب نعمة الله تعالى وازالة المصلحة التي للعباد في تلك الابل ، وبهذا فارقت هذه الأمور الاحباس والأوقاف وما احتج به ابو حنيفة وزفر ايضا ماروا ه عطاء عن ابن المسيب قال : سألت شريحا عن رجل جعل داره حبسا على الآخر من ولده فقال : لا حبس عن فرائض الله ، قالوا : فهذا شريح قاضي عمر وعثمان وعلي الخلفاء الراشدين حكم بذلك ، واحتج ايضا بما رواه ابن لهيعة عن أخيه عيسى عن عكرمة عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزلت سورة " النساء " وأنزل الله فيها الفرائض ينهي عن الحبس (١)

أقول وبالله التوفيق : الصدقة التي يمضيها المتصدق في حياته على ما أذن الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وعمل بها الأئمة الراشدون رضي الله عنهم ليس من الحبس عن فرائض الله ولا حجة في قول يخالف قول الرسول صلى الله عليه وسلم سواء كان مصدره شريحا أو غيره . بعد عمل الصحابة الذين هم الحجة على جميع الخلق .

وأما حديث ابن عباس فرواه ابن لهيعة ،وهو : رجل اختلط عقله في آخر عمره وأخوه غير معروف فلا حجة فيه ، قال ابن القصار : فان قيل كيف يجوز أن تخرج الأرض بالوقف عن مالكها لا الى ملك مالك ؟ قال الطحاوى يقال لهم : وما ينكر من هذا وقد اتفقت أنت وخصمك على الأرض يجعلها صاحبها مسجدا للمسلمين ويخلي بينهم وبينها وقد خرجت بذلك من ملك الى غير مالك ولكن الى الله تعالى وكذلك السقايات

---

(١) تفسير القرطبي : ٦/٣٣٩ .

والجسور ، والقناطر ، فما ألزمت مخالفك بحجتك عليه يلزمك بهذا كله والله أعلم ، وعتق السائبة كما نص على ذلك القرطبي وعزاه لمالك وأصحابه جائز وهو ان يقول السيد لعبده انت حر وينوى العتق ، أو يقول اعتقتك سائبة فالمشهور من مذهب مالك عند جماعة أصحابه ان ولاءه لجماعته المسلمين وعتقه نافذ هكذا رواه عنه ابن القاسم وابن عبد الحكم واشهب وغيرهم وبه قال ابن وهب ورواه عن مالك قال : لا يعتق أحد سائبة لان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الولاء وعن هبته قال ابن عبد البر : وهذا عند كل من ذهب مذهبه انما هو محمول على كراهية عتق السائبة . فان وقع نفذ وكان الحكم فيه ماذكرناه . وروى ابن وهب ايضا وابن القاسم عن مالك انه قال : انا اكره عتق السائبة وانهى عنه . فان وقع نفذ وكان ميراثا لجماعة المسلمين وعقله عليهم ، وقال أصبغ لا بأس بعتق السائبة ابتداء ، ذهب الى المشهور من مذهب مالك ، قال ابن نافع لا سائبة اليوم في الاسلام ومن اعتق سائبة كان ولاءه له " وبه قال الشافعي وابو حنيفة ومال اليه ابن العربي واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : " من اعتق سائبة فلا ولاء له " وبقوله : " انما الولاء لمن اعتق " نفى ان يكون الولاء لغير معتق . (١)

واحتجوا ايضا بقوله تعالى : ﴿ ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام " . وبحديث : " لا سائبة في الاسلام ، ولما رواه

---

(١) تفسير القرطبي : ٦/١/٢٠١ .

قيس بن هزيل بن شرحبيل قال رجل لعبد الله اني اعتقت غلاما لـــي سائبة فماذا ترى فيه ؟ فقال عبد الله : ان أهل الاسلام لا يسيبـــون انما كانت تسيب أهل الجاهلية انت وارثه وولي نعمته .

أقول وبالله التوفيق : بعد ان وقع موضوع الحبس في هذا البحث جيث جر له استنتاج ابي حنيفة من الآية التي نحن في الكلام عليهـــا وبما أني قد قدمت في أول هذا البحث اني سنتعرض لما دلت عليه الآية تصريحا او تلويحا وما استنتج منها من احكام وأناقش ذلك وأبدى فيه رأيي وبعد روس الاقلام الذى قدمت في أول الكلام على هذه الفقـــرة ايذانا بأن فيها خلافا يحتاج من الكتاب ادراك حقيقته والوقوف علـــى صحة عزوه لهذا الامام الجليل مع أن الثابت عند الجمهور هو مشروعيـــة الوقف وحديثه ثابت وصحيح وقول يخالف هذا يحتاج الى دليل كهذا أوأعلى منه على الاقل لا سيما ان كان من هذا الامام الجليل وعندئذ يجب البحث والتحقيق والتنقيح لنعرف مدى صحة عزو هذا القول اليه وصدره فيه وهذا يطلب مني اطلاعا واسعا وبحثا كبيرا في المراجع وتتبع الخلافات وسبب الخلاف وبالتالي ثمرته وسوف نسند الأقوال الى قائلها ونصحـــح عزوها ونترجم لما يحتاج ترجمة ليكون ذلك أشد تثبيتا وأقوى ثقة بأقواله وأبعد به عن الجهالة والله الموفق والهادى الى الصواب .

قال تعالى : * ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلـــــة ولا حام * هذه الآية من كتاب الله عز وجل هي التي استنتج منهـــا

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٤١/٦ .

ابو حنيفة رضي الله عنه منع الاحباس ورد الأوقاف ، وقد اختلف الفقهاء في مشروعية الوقف فمنهم من أجازه مطلقا ومنهم من منعه مطلقا وهنـــاك من أجازه في حال ومنعه في أخرى وأنا اتتبع ذلك وأبينه بحول الله فيمايلي :

" اختــلاف الفقهـــاء "

اختلف الفقهاء في مشروعية الوقف على أقوال ثلاثة وبينتهـــا قريبا ، والآن أتتبع الطوائف وبالاخص الحنفيـة لمعرفة أخبار الوقـــف عند فقهائهم لنعرف مايقولونه عن امامهم ابي حنيفة من نسبة المنـــع اليه ، أما الطوائف الثلاث : فالأولى رأيها الجواز المطلق علـــى وجه الاستحباب ، ذهب الجمهور من الفقهاء الشافعية (١) ، والمالكية (٢) والحنابلة (٣) ، والحنفية (٤) الا رواية عن أبي حنيفة وزفر (٥) الى جـــواز

---

(١) الام للامام الشافعي : ١/ ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ومختصر المزني بهامش الام : ١/ ١١٥ .

(٢) الخرشي على خليل : ٧/ ٧٨ ، ومنح الجليل للشيخ عليش : ٣/ ٣٤

(٣) المغني لابن قدامة بهامش الشرح الكبير : ٦/ ٨٥ والشرح الكبير ٦/ ٨٥ .

(٤) المبسوط : ١٢/ ٢٧ ووقف هلال ص ٦ ، والاسعاف : ص٣ .

(٥) زفر هو ابن الهذيل بن قيس ابوالهذيل العنبري البصري من أكابر أصحاب ابي حنيفة وأبرعهم في القياس أمام من أئمة المسلمين وعلم من أعلامهم ولي قضاء البصرة ولد سنة عشر ومائة وتوفي بالبصـرة سنة ثمان وخمسين ومائة انظر ترجمته في تاج التراجم ص ٢٨ ، والجواهر المضيئة : ١/ ٢٤٣ ، وانظر المحلى لابن حزم : ٩/ ١٧٥

الوقف في الدور والأرضين بما فيها من البناء والغرس ، وفي العبيد ، والسلاح والكراع والثياب والمصاحف وغيرها ، وقيد البعض الجواز بالسلاح والكراع فقط وأبطله فيما عدا ذلك ، وهذا الرأى منقول عن ابن مسعود وعلي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم .

الأدلـــــة :

استدل الفقهاء القائلون بالجواز مطلقا بجملة أدلة منها أدلـــة عامة تشمل الوقف وغيره ومنها أدلة خاصة بالوقف . أولا الادلة العامة : استدل الفقهاء على الصدقات عموما ومنها الوقف بما يلي : الكتاب :

(١) مثل قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ووجه

(٢) الاستدلال أن الصدقات مندوب اليها والوقف صدقة فهو مندوب اليه ،

(٣) وعن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحـــة :

---

(١) سورة آل عمران : الآية " ٩٢" .

(٢) انس بن مالك بن النضر الانصارى الخزرجي ابو حمزة خادم النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو ابن عشر وقيل ثمان سنين توفي سنة اثنتين وقيل احد وقيل ثلاث وتسعين وكان آخر من توفـى من الصحابة بالبصرة انظر ترجمته في الاصابة : ١/ ٧١ ، والاستيعاب : ١/ ٧١ ، واسد الغابة : ١/ ١٢٧ ،وتهذيـب التهذيب : ١/ ٣٧١ ،وتذكرة الحفاظ : ١/ ٤٤ .

(٣) ابو طلحة هو : زيد بن سهل بن الأسود بن حرام عمرو بن زيد مناة الانصارى الخزرجي النجارى ابو طلحة من أكابر الصحابــة وفضلائهم وشجعانهم شهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة والمشاهد كلها ولد سنة (٣٦) قبل الهجرة وتوفي سنـة ==

ان ربنا ليسألنا فاشهدك يارسول الله : اني جعلت ارضي لله ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلها في قرابتك ، في حسان بن ثابت ، وابي بن كعب ، وقال القرطبي في تفسير هذه الاية : ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه ، فان الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآيةغير ذلك ألا ترى أن ابا طلحة حين سمع الآية لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذى يريد الله أن يقف منه عباده بآية أخرى أو سنة مبينة لذلك فانهم يحبون اشياء كثيرة ، واستدلوا ايضا بما روى عن أبي هريرة (١) رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية اوعلم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه مسلم واللفظ له . وابن ماجه (٣) والترمذى ، (٢)

== اربع وقيل اثنتين وثلاثين وقيل سنة خمسين او احدى وخمسين ترجمته في الكتب السالفة الذكر اعني : الاصابة : ٥٦٦/١ ، والاستيعاب بهامش الاصابة : ص ٥٤٩ .

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى : ٨٥/١١ ، وسنن أبي داود : ١١٧/٣ ،والفتح الرباني : ١٧٧/١٥ ، وسنن ابن ماجه : ٨٨/١ ، وسنن الترمذى بشرح تحفة الاحوذى : ٣٩٨/٢ .

(٢) هو الامام ابو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى وقد اجمع العلماء على جلالته وامامته وعلو مرتبته وحذقته في الحديث وتقدمه فيه واكبر الادلة على ذلك كتابه الصحيح " توفي رحمه الله سنة ٢٦١ انظر ترجمته في خلاصة التهذيب ص ٣٢٠ ،ووفيات الاعيان : ٢٨٠/٤ وطبقات السيوطي ص ٢٦٠ .

(٣) ابن ماجه هو محمد بن يزيد بن ماجه القزويني أحد الاعلام ==

وابو داود واحمد ، ووجه الاستدلال انه نص على الصدقة الجارية مما لا ينقطع اجرها عن العبد ولا يمكن تصويرجريان الصدقة الا حبسا فهومندوب اليه .

قال النووي : مانصه : وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظم ثوابه " .

== وصاحب السنن والتفسير ثقة كبير متفق عليه في الحديث محتج به له معرفة وحفظ توفي سنة ٢٧٣ وانظر ترجمته في خلاصة التهذيب : ص ٣١٢ وتهذيب التهذيب : ٩/٥٣٠ ، وطبقات السيوطي : ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

الأدلـــة الخاصـــة بالوقف

استدل لرأى القائلين بجواز الوقف بمايلي :

(١) وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ثبت انه عليه الصـــلاة والسلام وقف في سبيل الله ارضا له ، فقد روى عن عمرو بن الحارث

---

(١) انظر البخارى بهامش الفتح : ٢٣١/٥ ، والسنن الكبرى : ١٦٠/٦ ، وسنن النسائي : ٢٢٩/٦ ، وسنن الدارقطني : ٥٠٢/٢ .

"" الأعلام في الحديث السابق ""

الترمذى هو محمد بن عيسى بن سورة السلمي ابو عيسى الترمذى الحافظ الضرير وصاحب الجامع الصحيح " في الحديث " وألف في تفسيره ايضا مات سنة ٢٧٩ ، انظر ترجمته في خلاصة التهذيب ص ٢٩٣ ،والأعلام : ٢١٣/٧ ، وطبقات السيوطي ص ٢٧٨

النسائي هو محمد بن شعيب بن علي بن سنان النسائي ابـــو عبد الرحمن القاضي الحافظ صاحب السنن وأحد الاعلام المبرزين والحافظ توفي في فلسطين ودفن ببيت المقدس وقيل بمكة سنة ٣٠٤ شهيدا رحمه الله " لانه مات من التعذيب " انظر ترجمته في خلاصة التهذيب ص ٦ ، وطبقات السيوطي : ٣٠٣ ، والبداية والنهاية : ١٢٣/١١ وتهذيب التهذيب : ٣٦/٢ ، وشذرات الذهب : ٢٣٩/٢ .

الدارقطني : هو الامام الكبير علي بن عمر الدارقطني (٣٠٦ - ٣٨٥) حافظ عصره الفذ في علم الحديث ومعرفة علله ورجاله وكان فقيها على مذهب الشافعي له مؤلفات منها" السنن ، والمختلــف والمؤتلف) انظر ترجمته في البداية والنهاية : ٣١٧/١١ وتاريخ بغداد ٣٤/١٢ ،وطبقات السيوطي : ص ٣٩٣ ،وشذرات الذهب : ١١٦/٣ ، والنجوم الزاهرة : ١٧٢/٤ .

ابن المصطلق انه قال : ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بغلتـه البيضاء وسلاحه وارضا تركها صدقة " رواه البخاري واللفظ له ، والبيهقي - والنسائي ، والدارقطني ، وروى عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل سبع حيطان له بالمدينة صدقـة على بني عبد المطلب وبني هاشم رواه البيهقي . (١)

وروى عن ابن طاوس عن ابيه انه قال اخبرني المدرى ان صدقـــة (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل منها أهله بالمعروف غير المنكـــر

----

(١) البيهقي هو : احمد بن الحسن بن علي البيهقي ابو بكـــر أحد اعلام الشافعية وامام من أئمة الحديث صاحب السنن الكبرى ولد في شعبان سنة اربع وثمانين وثلاثمائة وتوفي في العاشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وأربعمائة .

انظر ترجمته في الطبقات للسبكي : ٨/٤ ، وطبقـــات الأسنوى : ١٩٩/١ ، وطبقات الحسين : ص ٥٥ ،والبداية والنهاية : ٩٤/٢ ،

(٢) حجر المدرى : هو ابن قيس الهمذاني المدرى اليمنـي تابع ثقة وكان من خيار التابعين . وذكره ابن حبان فـــي الثقات .

انظر تهذيب التهذيب : ٢١٥/٢ .

رواه ابن ابي شيبة في مصنفه (١) ، وقد أخرج الشيخان ، واللفظ للبخاري (٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما . قال : أصاب عمر بخيبر أرضا فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه فكيف تأمرني به . قال : " ان شئت حبست أصلها وتصدقت بها " فتصدق عمر انه لا يباع اصلها ولا يوهب ولا يورث في الفقراء والقربى . والرقاب وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل لا جناح على من وليها ان يأكل منها غير متمول فيه " متفق عليه .

---

(١) ابن ابي شيبة هو : ابو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عثمان العبسي مولاهم الكوفي الحافظ المحدث الفقيه ، روى عنه البخاري ومسلم وابي داود وابن ماجه وابي زرعة وابي حاتم وغيرهم ومن تصانيفه : السنن في الفقه ، والمسند في الحديث ، توفي سنة خمس وثلاثين ومائتين . انظر ترجمته في طبقات السيوطي : ١٧٩ وخلاصة تهذيب الكمال : ١٧٩/١٠ ، ومعجم المؤلفين : ١٠٥/٦ .

(٢) انظر البخاري مع فتح الباري : ٥/ ٢٥٩- ٢٦٠ ومسلم بشرح النووي : ٨٥/١ - ٨٦ والسنن الكبرى للبيهقي : ١٥٨/٦ - ١٥٩ وسنن الدارقطني : ٥٠٣/٢ ، وتعليق المغني بهامش الدارقطني : ٥٠٤/٢ ، والمسند للامام احمد : ١٦٤/٧ و ٢٧٧/٦ ، والترمذي بهامش تحفة الأحوذي : ٣٩٧/٢ - ٣٩٨ وسنن أبي داود : ١١٦/٣ - ١٨٨ ، ونيل الأوطار : ١٨/٦ ، وسبل السلام : ٨٦/٣ .

(١) أما الحديث الذى جاء في مصنف ابن أبي شيبة فقد قال الزيلعي في نصب الراية مانصه : " وفي مصنف ابن ابي شيبة في بـــاب الاحاديث التي اعترض بها على أبي حنيفة حدثنا ابن عيينة عن ابن طاوس عن ابيه اخبرني حجر المدرى قال في صدقة النبي صلى الله عليه وسلـــم يأكل منها أهلها بالمعروف غير المنكر وايضا ماروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه انه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينـة

(٢) أمر بالمسجد وقال : " يابني النجار ثامنوني حائطكم هذا . فقالوا : لا والله لانطلب ثمنه الا الى الله رواه البخارى ، وماروى عن ابي هريرة

(٣) رضي الله عنه أنه قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب على الصدقات فمنع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس ، فقـــال النبي صلى الله عليه وسلم : " ماينقم ابن جميل الا ان كان فقيرا ماغناه الله

---

(١) نصب الراية للامام الزيلعي : ٤٧٩/٣ .

(٢) البخارى بهامش فتح البارى : ٢٦٣/٥ .

(٣) ابو هريرة ، هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، اختلف الناس في اسمه واسم ابيه وما اثبته هو المشهور صحابي جليل ، وهو أكثر الصحابة رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلـــم ، وأحفظهم لحديثه . قال الشعبي : ابو هريرة احفظ مـــن روى الحديث في الدنيا - توفي بالمدينة سنة سبع وقيـــل ثمان وقيل تسع وخمسين وهو ابن ثمان وسبعين ، انظر ترجمته في الاصابة والاستيعاب : ٢٠٢/٤ ، وأسد الغابـــة : ٣١٥/٥ .

أ = صحيح الجامع الصغير ٥/ ١٩٢

وأما خالد فانكم تظلمون خالدا . وقد احتبس ادراعه واعتده في سبيل الله ، وأما العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهي على ومثلها " رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم والبيهقي ، ووجه الاستدلال ان النبي صلى الله عليه وسلم أقر لخالد حبس اعتده فيكون النهي دليلا على صحة الوقف وجوازه ولو كان الحبس غير جائز لما أقر النبي صلى الله عليه وسلم خالدا على فعله .

أقول وبالله التوفيق : أوقاف الصحابة والتابعين مشهورة معروفة حتى الآن ، وجواز الوقف واستحبابه أشهر من أن يطلب له دليل بل هو من أجل أعمال البر وأحاديثه مابين متفق عليه وحسن ومشهور ، وبعد أن قدمت من الادلة الصريحة مايكفي لثبوته انتقل الى أدلة الاحناف لنرى ماقال فيه الامام الجليل ابو حنيفة رضي الله عنه ونتتبع ماعزى اليه من قول في منع الاحباس ورد الأوقاف علما بأن الذين عزو اليه القول بالمنع هم من أهل التحقيق والتنقيح وعلى رأسهم ابو عبد الله القرطبي في تفسيره جامع البيان .

" رأى الطائفة المانعة للوقف مطلقا "

وقد ذهب الى منع القاضي شريح وابو حنيفة في رواية عنه وهو قول عامة أهل الكوفة . (١)

---

(١) انظر وقف هلال : ص ٥ ، والمبسوط : ١٢/٢٩ حيث يقول : وسئل الشعبي عن الحبس فقال : جاء محمد صلى الله عليه وسلم ببيع الحبس وقال ابن مسعود وابن عباس لا حبس عن فرائض الله .

وقبل أن انقل أدلة هذه الطائفة وأقوالها لابد من تحرير الرواية في هذا الموضوع عن أبي حنيفة وما استند اليه من منع الوقف لأن هذه الرواية عنه فيها ارتباك بسبب عدم اتفاق فقهاء الحنفية على المراد بها عنده .

رأى ابي حنيفة في جواز اهل الوقف

انقسم الحنفية فيما يتعلق بالرواية عن أبي حنيفة الى ثلاث فرق :

الفرقة الاولى : صرحوا عنه بالبطلان . فقد صرح هلال (١) في وقفه مانصه : قلت : أرأيت رجلا قال أرضي هذه وسمى حدودها صدقة موقوفة ثم لم يزد على ذلك شيئا . قال ابو حنيفة رحمه الله : هذا كله باطل ولا يكون وقفا وله ان يحدث فيه مابدا له بعد ذلك . وهذا قول العامة من أهل الكوفة (٢) .

---

(١) هلال بن يحيى بن مسلم البصرى الرأى من أعيان الحنفية سمى هلالا الرأى لاشتهاره به وكان على مذهب الكوفيين ، ورأيهم ، توفي سنة ٢٤٥ ، انظر ترجمته في الجواهر المضيئة : ٢/٢٠٥ ، والاعلام : ٩/٩٥ .

(٢) وقف هلال : ص ٥ .

" الفرقة الثانية قالوا عنه أنه لا يجيز الوقف "

فقد ذكر محمد في الأصل قال : كان ابو حنيفة لا يجيز الوقف

(١) فأخذ بعض الناس بظاهر هذا اللفظ فقالوا : لا يجوز الوقف عنده

(٢) وجاء في التبيين : الوقف لا يجوز عند أبي حنيفة اصلا وهو : المذكور في الاصل - أى : مبسوط محمد ، وقال الخصاف : أخبرني ابـي

(٣) عن الحسن بن زياد قال ابو حنيفه رحمه الله لا يجيز الوقف الا ماكان على

(٤) طريق الوصايا وذكر الطحاوى في مختصره مانصه : " ولا يجوز تحبيس الرجل داره ولا ارضه ولا وقفه لهما ولا صدقته لهما وان جعل آخرهما الله عز وجل في قول ابي حنيفة رضي الله عنه الا أن يكون فعل ذلك في مرضه الذى مات فيه فيخرج مخرج الوصايا ويجوز لما تجوز الوصايا ، وقد روى عن محمد بن الحسن عن ابي حنيفة ان ذلك لا يجوز منه في مرضه كما لا يجـوز منه في صحته وانه لا يخرج مخرج الوصايا وهو الصحيح على أصوله .

---

(١) انظر حاشية ابن عابدين : ٣/٤٩٤ والاسعاف : ص ٣ والمبسوط : ١٢/٢٧ .

(٢) انظر تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق - ٣/٣٢٥ .

(٣) هو احمد بن عمرو ابو بكر الخصاف الشيباني فقيه حنفي ورع له عدة مصنفات منها : "كتاب الوصايا وكتاب الرضاع وكتاب آداب القاضي" وكتاب احكام الوقف " توفي سنة ٢٦١ انظر ترجمته في طبقات الحنفية : ١/٨٤ ، وتاج التراجم ص ٧ .

(٤) انظر مختصر الطحاوى تحقيق ابو الوفاء الافغاني : ص ١٣٦ .

" الفرقـــة الثالثـــة "

---

(١) قالوا : انه يجيزه ولكنه غير لازم عنده ، قال الدكتور محمـــد عبد الله الكبيسي " وجمهور أصحاب هذا القول ليس عندهم مايستدلون به على هذا الا تأويلهم لعدم الجواز بعدم اللزوم ، وهذا عند من أراد

(٢) التوفيق بين الروايتين . ومنهم من أطلق الجواز دون التأويل ، جاء في الدر المختار مانصه :

(٣) والأصـــح : أنه عنده جائز غير لازم كالعارية ، وقال فـــي الاسعاف وهو جائز عند علمائنا أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله ثم قال : وانما الخلاف بينهم في اللزوم وعدمه فعند ابي حنيفة رحمه الله يجـــوز جواز الاعارة ، وقال ابن عابدين في حاشيته على الدر والصحيح انه جائز

(٤) عند الكل وانما الخلاف بينهم في اللزوم وعدمه " وقال السرخسي :

---

(١) هو دكتور محاضر في جامعة بغداد وبحاثة معروف ومعاصـــر له كتاب احكام الوقف في الشريعة الاسلامية وهو كتاب نفيس يدل على غزارة علمه وادراكه للأصول والفروع جزاه الله خيرا علـــى خدمة الاسلام والمسلمين .

(٢) الدر المختار مع حاشية ابن عابدين : ٣/٤٩٤ .

(٣) انظر الاسعاف : ص ٣ .

(٤) انظر المبسوط : ١٢/٣٧ .

" وظــــن بعض أصحابنا انه غير جائز على قول ابي حنيفة واليه يشير في ظاهر الرواية ، فيقول : أما ابو حنيفة فكان لا يجيز ذلك ومراده : انه لا يجعله لازما ، فأما أصل الجواز فثابت عنده لأنه جعل الواقف حابسا للعين على ملكه صارفا للمنفعة الى الجهة التي سماها فيكون بمنزلـــة العارية ، والعارية جائزة غير لازمة .

وجاء في التبيين بعد ذكره لرأى ابي حنيفة في عدم الجواز كما (١) هو مذكور في الأصل . وقيل يجوز عنده الا أنه لا يلزم بمنزلة العارية . (٢) حتى يرجع فيه في أى وقت يشاء ويورث عنه اذا مات وهو الأصح " ، وقال في الهداية وهو في الشرع عند ابي حنيفة حبس العين على ملـــك الواقف والتصدق بالمنفعة بمنزلة العارية ثم قيل : المنفعة معدومـــة فالتصدق بالمعدوم لا يصح ، فلا يجوز الوقف اصلا عنده ، وهو الملفـــوظ في الأصل والأصح : انه جائز عنده الا أنه غير لازم بمنزلة العارية . قـــال الدكتور محمد عبيد في كتاب أحكام الوقف بعد أن ذكر أدلة الاقوال : ومن هذا يتبين ان من الفقهاء الاحناف من ذكر الروايتين عن الامـــــام ابي حنيفة ومنهم من ذكر رواية واحدة وهي : المذكورة في الاصل لمحمد ابن الحسن مكتفيا بتفسير كلمة " لا يجيز " بعدم اللزوم وهذا مافعلـــه الامام السرخسي كما رأينا غير أن ماذهب اليه السرخسي لم يسلم له وأقل مايقال فيه : أنه تحميل للنص مالا يحتمل لانه لم يقدم مايبرهن علـــى أن المراد بـ " لا يجيز " انه جائز غير لازم ، فاذا ماعلمنا ان الذى

---

(١) انظر تبيين الحقائق بشرح كنز الدقائق : ٣٢٥/٣ .

(٢) انظر الهداية بهامش فتح القدير : ٤٠/٥ .

عبر عن رأى ابي حنيفة بقوله : " لا يجيز " ماهو الا صاحبه محمد ابن الحسن الذى هو علم من أعلام اللغة وامام من أئمتها كان هذا مدعاة للتردد في قبول تأويل السرخسي ، واقتصاره على رواية واحدة وهي " الجواز غير اللازم " فليس مايمنع الامام محمد رحمه الله من التعبير عن رأى أبي حنيفة ، بغير " لا يجيز " فيما لو كان الأمر كما ذكره السرخسي من أنه يعني : " جائز غير لازم " ولا يعجزه ان يجد تعبيرا يدل على هذا المعنى مباشرة ويؤيد هذا أن هلال بن يحيى قد عبر عن هذا بقوله قال : أبو حنيفه رحمه الله : هذا كله باطل لا يجوز وهي مساوية في المعنى - للتعبير بـ " لا يجيز " . فما هو ياترى رأى السرخسي في تعبير هلال هذا وهل ينطبق عليه تأويله السابق بالجواز وعدم اللزوم ، اضف الى هذا ان هلالا رحمه الله هو صاحب ابي يوسف ومحمد صاحبي ابي حنيفة وقد روى روايته بالبطلان (١) وبهذا يكون هو ومحمد أقرب الى أبي حنيفة من الامام السرخسي الذى جاء بعدهما بقرون ولو فهم محمد وهلال من رأيي ابي حنيفة مافهمه السرخسي لما امتنع عليهما ذكره أما وقد اطلقا القول بالبطلان وعدم الجواز فلا يسعنا بعد ذلك أن نتقبل قول السرخسي وتفسيره لذلك وهو المتأخر .

وخلاصة الأمر :

أن كلام المتأخرين وانكارهم أن ابا حنيفة قد منع الوقف كلام يحتاج الى دليل وليس ذلك عندهم فيبقى القول : ان ابا حنيفة

---

(١) انظر وقف هلال : ص ٥ وكتاب الدكتور محمد عبيد في احكام الوقف : ص ١١٠ - ١١٩ .

قد منع الحبس في رواية عنه ولا يضير من ذلك القول بنفيه عند متأخري (١)

الحنفية وقد فطن ابن جزى الكلبي الى هذه الحقيقة فقال : التحبيس (٢)

وهو جائز عند الامامين الشافعي ومالك وغيرهما خلافا لأبي حنيفة

وقد رجع عن ذلك صاحبه ابو يوسف لما ناظره مالك .. وصار

المتأخرون من الحنفية ينكرون منع امامهم ويقولون : مذهبه انه جائز

ولكن لا يلزم " .

والذى يستقرىء كتب الحنفية يجد المتأخرين منهم معنيين كثيرا

بنفي المنع عن امامهم وان اعتدلوا (حاولوا تقريبه مما ذهب اليه جمهور

الفقهاء كما ذهب اليه الكساني وصاحب الاسعاف . فقد جاء في (٣)

البدائع مانصه : لا خلاف بين العلماء في حق وجوب التصدق بالفرع

---

(١) هو محمد بن احمد بن جزى الكلبي من أهل غرناطة كان فقيها مالكيا حافظا الّف كثيرا من الكتب في فنون شتى منها كتاب وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم ، وكتاب القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية ، وكتاب تقريب الأصول الى علم الوصول" والنور المبين في قواعد عقائد الدين ، وتوفي شهيدا عام ٧٤١ انظر ترجمته في الديباج ص ٢٩٥.

(٢) القوانين الفقهية ص ٣٦٩ .

(٣) بدائع الصنائع : ٨/٣٩٠٨

ما دام الواقف حيا حتى ان من وقف داره او ارضه يلزمه التصدق بغلة الدار والارض ويكون بمنزلة النذر بالتصدق بالغلة . ولا خلاف ايضا في حق زوال ملك الرقبة اذا اتصل به قضاء القاضي أو اضافة الى مابعد الموت . واختلفوا في جوازه مزيلا لملك الرقبة اذا لم توجد الاضافة الى مابعد الموت . . ولا اتصل به حكم حاكم . قال ابو حنيفه عليه رحمة الله : لا يجوز حتى كان للواقف بيع الموقوف وهبته واذا مات يصير ميراثا لورثته ، وقال ابو يوسف ومحمد وعامة العلماء رضي الله عنهم يجوز حتى لا يباع ولا يوهب ولا يورث . وقال صاحب الاسعاف فلو قال : أرضي هذه صدقة موقوفة موءبدة جاز لازما عند عامة العلماء وعند أبي حنيفة رحمه الله يكون نذرا بالصدقة بغلة الارض ويبقى ملكه على حالة فاذا مات تورث عنه وهكذا حاول هذان الفقيهان أن ينقلا الرواية عن أبي حنيفة من القول بالبطلان الى معالجة بعض الصور المحددة كما فعل صاحب الاسعاف فقد اقتصر على صيغة واحدة من الصيغ التي ينعقد بها الوقف وسكت عن سائرها مما يفهم منه : أن ابا حنيفة يقول بجواز الوقف حينئذ ، وقال ان الصدقة بهذه الصيغة تكون نذرا بالغلة لا بالعين أخذ من "كلمة موقوف" مع ان (١) هلال بن يحيى قال في كتابه مانصه : " أرأيت رجلا قال ارضي هذه - وسمى حدودها - صدقة موقوفة ثم لم يزد على ذلك شيئا : قال أبو حنيفة رحمه الله : هذا كله باطل لا يجوز ولا يكون وقفا وله أن يحدث فيه مابدا له بعد ذلك وهذا كله قول العامة من أهل الكوفة " . فمن أين جاء صاحب الاسعاف بهذا الفرق بين الصيغة التي ذكرها وبين الصيغ الأخرى ،كما أن عبارة صاحب البدائع : " لا خلاف بين العلماء " تشمل في عمومها أبا حنيفة أيضا بل انه صرح به كما أنه يوءخذ من عبارة صاحب البدائع أيضا ان وجوب الصدقة بالغلة لا يختص بصيغة معينة من الصيغ التي ينعقد بها الوقف لأنه عم ولم يخصص ، ثم جعله كالنذر على قول ابي حنيفة الا أن هذا كله لا يفيد في صرف الرواية عن ظاهر هذا الذى يفيد أنه يمنع الوقف أصلا ،ويوءيد هذا ماجاء في شرح الباجي لشرح الموطأ وحاشية الرهوني على شرح عبد الباقي لمتن خليل : من مناقشة مالك لابي يوسف في جواز الوقف بحضرة الرشيد واقتناع ابي يوسف بالحجة حتى قال : " كان أبو يوسف يقول أنها غير جائزة ، وأنا أقول أنها جائزة " فرجع في الحال عن قول

---

(١) انظر كتاب الوقف وبيان أحكامه للشيخ احمد بن ابراهيم ص: ٢٤-٢٧

(١) أبي حنيفة الى الجواز ، وقد علق الباجي على هذا بقوله : " وهذا
(٢) فضل أهل الدين والعلم في الرجوع الى الحق حين ظهر وتبين " وفي
آداب الشافعي ومناقبه ينقل ابن أبي حاتم عن محمد بن عبد الله بن
عبد الحكم قوله : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : اجتمع مالك
وأبو يوسف يعقوب عند أمير المؤمنين فتكلموا في الوقف وما يحبسه الانسان
فقال يعقوب : هذا باطل ، قال شريح جاء محمد صلى الله عليه وسلم
باطلاق الحبس " فقال مالك : انما جاء محمد باطلاق ماكانوا يحبسونه
لآلهتهم من البحيرة والسائبة . فأما الوقف فهذا وقف عمر بن الخطاب
رضي الله عنه حيث استأذن النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " حبس أصلها
وسبل ثمرها " وهذا وقف الزبير ، فأعجب الخليفة ذلك منه " .
(٣) وقد روى عن أبي يوسف انه قال : لو بلغ - يريد الدليل أبا حنيفة لرجع
أى : عن القول بعدم جواز الوقف ، وتخلص من هذا الى ان أبا حنيفة
لا يقول بجواز الوقف أصلا الا في حالتين قد بينتهما سابقا ولا مانع من
تكرار البيان ليستقر في ذهن القارئ وهما : اذا اتصل به حكم
(٤) به حاكم أو اذا اضافه الى مابعد الموت ، ففي هاتين الحالتين يقول ابو
حنيفة رحمه الله بجواز الوقف فيرتفع الخلاف بين الحنفية في هاتين
المسألتين وفي الحقيقة ان الحالتين السابقتين لا تخرجان على جواز
الوقف وعدم جوازه وانما تتخرجان على قاعدتين هما القاعدة الاولى ،

---

(١) انظر (المنتقى للباجي : ٦/١٢٢ وحاشية الرهوني على الزرقاني : ١٠/١٣٠ .
(٢) انظر آداب الشافعي ومناقبه للرازي : ص ١٩٧ - ١٩٩ ط السعادة
(٣) انظر المبسوط : ١٢/٢٨ ، والاسعاف : ص ٣٠ .
(٤) كتاب : احكام الوقف في الشريعة الاسلامية ص ١١٤

ان القضاء يرفع الخلاف فمتى قضى القاضي باللزوم لا يرد حكمه أحد ، فاللزوم : عرضي لا ذاتي ، القاعدة الثانية : أن كل تصرف مضاف الى مابعد الموت وصية أيا كانت التسمية التي تعطى له وعلى هذا تتخرج الحالة الثانية ويؤيد ماذهبنا اليه قول الدكتور محمدعبيد (١) ، من أن أبا حنيفة لا يقول بجواز الوقف الا في الحالتين السابقتين اللتين ذكرتهما . وماذكره الدكتور يؤيده ماقال الكمال بعن الهمام (٢) حيث يقول : " واذا لم يزل ملكه عند ابي حنيفة قبل الحكم يكون موجب القول المذكور : حبس العين على ملك الواقف ، والتصدق بالمنفعة ،وحقيقته ليس الا التصدق بالمنفعة ، ولفظ حبس الى آخره لا معنى له لأن له بيعه متى شاء وملكه مستمر فيه كما لو لم يتصدق بمنفعته ،فلم يحدث الواقف الا مشيئة التصدق بمنفعته وله ان يترك ذلك متى شاء وهذا القدر كان ثابتا له قبل الوقف بلا ذكر لفظ الوقف فلم يفد لفظ الوقف شيئا . وهذا و معنى ماذكره في المبسوط من قوله : كان ابو حنيفة لا يجيز الوقف وهو : ما اراد المصنف ـ صاحب الهداية ـ بقوله : " وهو الملفوظ في الأصل " يعني : المبسوط وحينئذ فقول من أخذ بظاهر هذا اللفظ ،فقال : الوقف عند أبي حنيفة : لا يجوز ـ صحيح لانه ظهر : انه لم يثبت به قبل الحكم حكم لم يكن ،واذا لم يكن له

----

(١) كتاب : احكام الوقف في الشريعة الاسلامية : ص ١١٤

(٢) انظر فتح القدير : ٥/٤٠ .

أثر زائد على ماكان قبله كان كالمعدوم والجواز والنفاذ والصحة فرع اعتبار الوجود .

أقول وبالله التوفيق : الصاق القول أو بعبارة اخرى نسبت هذا القول الى أبي حنيفة رحمه الله لا مناص منها حسب مارأيت في كتب الحنفية والله أعلم وأحكم . مهما كان النقل عنه فان الوقف قربة الى الله تعالى لا يمنع منه شرع ولا عقل وليست له صلة بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام . فان ماقصد بها أمر منعه الشرع بل الغاه لان الله لا يتقرب اليه الا بما شرع . أما الوقف وهو : حبس العين والمنفعة على جهة من جهات البر لا على معصية فقربة الى الله ومن الممكن للعقل السليم ان يدرك الفرق بين ما نفى الله مشروعيته وما اثبته . فالثاني الباعث اليه التقرب الى الله والتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم ولذلك ختم الله الآية بعد ذكر الاربعة الاصناف فقال : " ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون " اذ انه كي يصح العمل يجب ان يكون مشروعا وهم افتروا على الله كذبا وبهتانا ولا يقبل العمل الا اذا كانت النية خالصة لله اذ لو خلصوا لانقادوا . ولما عرضوا انفسهم لسخط الله وغضبه . وفي قوله " الكذب " يدل على شناعة مافعلوه من محض افتراء واختلاق . وزعموا من غير علم ان الله أمرهم بهذا وقد كذبهم الله في دعواهم وسلب عن أكثرهم العمل فقال : * وأكثرهم لا يعقلون * ومن المعلوم أن العقل الذى يخاطبه الاسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز المشتبهات ويوازن بين الأضداد وأنه العقل الذى يقابل الجمود والتعنت والضلال وليس بالعقل الذى يقابله الجنون فان الجنون مسقط للتكليف ،والمشركون من العرب نمدوا

على ماورثوه وتمسكوا فضلوا وأضلوا والعياذ بالله تعالى . وهنـــــا ننتهي بحث ماتسب لابي حنيفة رحمه الله من رد الاحباس ومنع الأوقاف بعد أن عن لنا في الموضوع وكان من ضمن ما استنتج من آية : * ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام * .

والله أسأل ان اكون قد أتيت فيه بما يعلم الجاهل ويذكـــــر العالم من غير تقصير مخل أو تطويل ممل .

ونبدأ بالنقطة الأخيرة مما كان عليه أهل الجاهلية من تطـــــير ونذر لغير الله وتشاؤم والله الموفق .

الفصل الثالث احطال تقاليد الجاهلية مراحل تحرير العقل وتثبيت مبادئ الاسلام

صلى ١

باب النذر لغير الله - والذبح لغير الله

(١) قال تعالى : ﴿ قل ان صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ ،

(٢) قال الحافظ بن كثير : يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر

(٣) المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه لا شريك له ،

(٣) وهذا كقوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أى : اخلص له العبادة : صلاتك وذبيحتك ، فان المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمر الله بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه . والاقبال بالقصد والنية والعزم على

(٤) الاخلاص لله تعالى : قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ صلاتي ونسكي ﴾ قال : النسك : الذبح في الحج والعمرة وقال النووى عن السدى عن سعيد بن جبير : " ونسكي " ذبحي ، وكذا قال الضحاك وقال غيره " ومحياى " : ومماتي " : أى : ما آتيه في حياتي وأموت عليه من الايمان والعمل الصالح لله رب العالمين خالصة لوجهه لا شريك له وبذلك من الاخلاص أمرت وأنا أول المسلمين : أى : من هذه الأمة : قال ابن كثير : وهو كما قال فان جميع الانبياء قبله كلهم كانت دعوتهم

---

(١) سورة الانعام : الآية " ١٦٤ " . ١٦٢

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ١٩٨ ، عيسى البابي الحلبي واولاده

(٣) سورة الكوثر : الآية " ٣ " .

(٤) سورة الانعام : الآية " ١٦٢ " .

الى الاسلام وهو عبادة الله وحده لاشريك له كما قال تعالى :

(١) ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أن لا اله الا أنا فاعبدون ﴾ وأخبر تعالى عن نوح انه عليه السلام قال لقومه :

٢ - ﴿ فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجرى الا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ .

أقول وبالله التوفيق : في الآية دلالة واضحة على أن الذبح لغير الله شرك كما هو مبين وفيها بيان العبادة وان التوحيد مناف للشرك مضاد له - وفي قوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال شيخ الاسلام : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن وقوة اليقين وطمأنينته القلب الى الله ، والى عبادته عكس حال أهل الكفر والنقرة وأهل الغنىعنالله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم الى ربهم يسألونه اياها والذين لا ينحرون له خوفا من الفقر ولهذا جمع بينهما في قوله : ﴿ قل ان صلاتي ونسكي ﴾ الاية . والنسك : الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه فانها أجل مايتقرب به الى الله فانه أتى فيهما بالفاء الدالة على السببية لان فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله من الكوثر ، وأجل العبادات البدنية الصلاة وأجل العبادات المالية : النحر ، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها كما عرفه ارباب القلوب الحية ومايجتمع له في النحر اذا قارنه الايمان والاخلاص

---

(١) سورة الأنبياء : الآية " ٢٥ ".

٢ = سورة يونس ٧٢

وقوة اليقين وحسن الظن أمر عجيب ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثير الصلاة كثير النحر ".

أقول وبالله التوفيق : هذا هو أصح الاقوال في معنى النحر ،

(١) وأما مارواه الحاكم عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ انا اعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الابتر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل " ماهذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ قال : انها ليست بنحيرة ولكن يأمرك اذا أحرمت للصلاة أن ترفع يدك اذا كبرت واذا رفعت رأسك من الركوع " .. الحديث . فهو حديث منكر جدا في اسناده اسرائيل ابن حاتم قال ابن حبان يروى عن مقاتل الموضوعات والأوابد والطامات من ذلك خبر يرويه عمر بن صبح عن مقاتل وظفر به اسرائيل فرواه عن مقاتل عن الأصبغ بن نباته عن علي لما نزلت : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ الحديث وقد جاء حديث آخر يضاد هذا المعنى ، من رواية علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) بأربع كلمات : " لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من آوى محدثا ، ولعن الله من غير منار الأرض " رواه مسلم ، ورواه الامام احمد .

---

(١) المستدرك على الصحيحين : ٥٣٨/٢ مطابع النصر الحديثة الرياض .

(٢) رواه الامام مسلم بن الحجاج من طرق ورواه الامام احمد عن أبي الطفيل .

١- مسلم ٨٦/١٣ ٨٥ واحمد ج١ ص ١٠٨ - ١١٨ - ١٥٢

أقول وبالله التوفيق : اللعنة : هي الطرد والبعد من رحمة الله أعاذنا الله ، واللعين الملعون من حقت عليه اللعنة أو دعي عليه بها ، قال أبو السعادات : أصل اللعنة : الطرد والابعاد من الله ومن الخلق السب والدعاء ، والذبح لغير الله ، قال النووي : المراد به ان يذبح باسم غير الله كمن يذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو عيسى عليهما السلام . أو للكعبة ونحو ذلك وكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلما أو نصرانيا أو يهوديا نص عليه الشافعي فان قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له كان ذلك كفرا فان كان الذابح مسلما قبل ذلك وصار بالذبح مرتدا - قال شيخ الاسلام ان الله سبحانه يلعن من يستحق اللعنة من عباده بالقول كما يصلي سبحانه على من يستحق الصلاة من عباده ، قال تعالى : ﴿ هو الذى يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ (١) وقال : ﴿ ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ﴾ وقال جل ذكره ﴿ ملعونين أينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ وقال : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ (٢) أصل الاهلال : رفع الصوت والاعلام فالمقصود بما أهل به لغير الله ما أعلن عنه انه منذور به لغير الله سواء كان هذا الاهلال والاعلام قبل الذبح والعبرة بالاهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله وكذلك أيضا ماسمى من الطعام والشراب أو غيرهما نذرا وقربة لغير الله .

---

(١) سورة الأحزاب : الآيات : " ٤٣ - ٦١ " .

(٢) سورة النحل : الآية " ١١٥ " .

والحديث فيه جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين . وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان أحدهما انه جائز اختاره ابن الجوزى وغيره ، والثاني لا يجوز اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الاسلام . (١)

أقول وبالله التوفيق : قوله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله أكل الربا " الحديث فيه دليل على جواز لعن أنواع الفساق -

والمعروف عن الامام احمد كراهية لعن المعين كالحجاج وأمثاله يقول كما قال تعالى : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ (٢) وأما ما يخص الذبح والتقرب فان الله سبحانه وتعالى لا يرضى من عبده أن يجعل دونه صغيرا أو كبيرا سواء خف ذلك في نظر العبد أم عظم وهذا المعنى متمثل في حديث طارق بن شهاب الذى جاء فيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب " قالوا : وكيف ذلك يارسول الله - عليه الصلاة والسلام - قال : " مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب اليه شيئا فقالوا لاحدهما : قرب قال : ما عندى شيء ،قالوا : قرب ولو ذبابا فقرب ذبابا فخلوا سبيله ،فدخل النار ، وقالوا للاخر : قرب ، قال : ماكنت لأقرب لاحد شيئا دون الله عز وجل فضربوا عنقه ،فدخل الجنة " رواه احمد . هذا الحديث ذكره المصنف ابي : صاحب تيسير العزيز الحميد معزوا لاحمد وقد عزاه اليه ابن القيم كذلك مع اني لم أجده في مسنده فلعله في غيره من كتبه . وقوله دخل الجنة رجل في

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ١٩٣ وفتح المجيد بشرح كتاب التوحيد : ص ١٤٥ .

(٢) سورة هود : الآية " ١٩ ".

ذباب أي : من أجل ذباب وقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر العجيب لأنهم قد علموا ان الجنة لا يدخلها أحد الا بالأعمال الصالحة كما قال تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ (١) وان النار لا يدخلها أحد الا بالاعمال السيئة فكانهم تقالوا ذلك وتعجبوه واحتقروه ، فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيما يستحق هذا عليه الجنة ، ويستحق هذا (٢) الآخر عليه النار ، ولعل هذين الرجلين من بني اسرائيل فان النبي صلى الله عليه وسلم يحدثهم عن بني اسرائيل كثيرا ، وحديث طارق (٣) هذا فيه بيان عظم الشرك ولو في شيء قليل وانه يوجب النار ، الا ترى الى هذا لما قرب الى الصنم أتفه الاشياء ، وأصغر الحيوانات وهو : الذبابة كان جزاؤه النار لاشراكه في عبادة الله اذ الذبح على سبيل القربة والتعظيم عبادة وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴾ وفيه الحذر من الذنوب وان كان صغيرة في الحسبان كما قال أنس : انكم لتعملون اعمالا هي أدق في عيونكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات (٤) ويلاحظ في هذا الحديث أن الرجل دخل النار بسبب لم يقصده

---

(١) سورة المائدة : الآية " ٧٦ ".

(٢) تيسير العزيز الحميد : ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٣) طارق ، هو : طارق بن شهاب البجلي الاحمس أبو عبد الله رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو رجل ويقال انه لم يسمع منه شيئا قال البغوي : ونزل الكوفة - قال ابو حاتم ليست له صحبة والحديث الذى رواه مرسل وقال ابو داود رأى ==

ع = سورة المائدة الآية ٧٢

بل أراد التخلص من الناس وشرهم ، وفيه ان الرجل مسلم لأنـــه قال : دخل النار في ذبابة ، وفيه ايضا ان عمل القلب هو : المقصود الاعظم حتى عند عبدة الأوثان ، والرجل الآخر يدل وضعه على فضيلـة التوحيد والاخلاص وفيه معرفة قدر الشرك عند المؤمنين وقدره في قلوبهم كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبهم مع انهم لم يطلبوا الا العمل الظاهر وفيه شاهد للحديث الصحيح " الجنة أقرب الى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك " وفيه التنبيه على سعة مغفرة الله وشدة عقوبتـه وان الاعمال بالخواتم .

نسأل الله سبحانه حسن الخاتمة .

أقول وبالله التوفيـق : التشنيع في الذبح لغير الله يتناول المكان حتى ان الطاعة لا تفعل في مكان المعصية كما بين حديث ثابت (١) ابن الضحاك قال : نذر رجل ان ينحر ابلا ببوانة فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "

== النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه شيئا ، قال الحافظ : اذا ثبت أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم فهو صحابي علـى الراجح واذا ثبت انه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابـي وهو : مقبول على الراجح ، وقد أخرج له النسائي عدة أحاديث وذلك مصير منه الى اثبات صحبته وكانت وفاته علـى ماجزم به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين .

(١) هو ثابت بن الضحاك بن خليفة الاشهلي صحابي مشهـور روى عنه ابو قلابة وغيره ومات سنة اربع وستين .

احمد ١ / ٤١٧

" هل كان فيه وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا ، قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بنذرك ، فانه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما يملك ابن آدم " رواه ابو داود واسناده على شرطهما .(١)

بوانة : بضم الباء وقيل بفتحها ، قال البغوى : موضع في أسفل مكة دون يلملم ، قال ابو السعادات : هضبة من وراء ينبع ، والحديث يؤخذ منه المنع من الوفاء بالنذر اذا كان في المكان وثن ولو بعد زواله ، قال شيخ الاسلام : العيد : اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد - اما بعود - السنة أو بعود الاسبوع أو الشهر او نحو ذلك والمراد هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية ، فالعيد يجمع أمورا ، منها : يوم عائد كيوم الفطر، ويوم الجمعة ومنها أعمال تتبع ذلك من العادات والعبادات وقد يختص العيد بمكان بعينه . وقد يكون مطلقا وكل من هذه الامور قد يسمى عيدا ، فالزمان كقوله صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة " ان هذا يوم قد جعله الله عيدا للمسلمين " والاجتماع والاعمال كقول ابن عباس : " شهدت العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمكان كقوله صلى الله عليه وسلم : " لا تتخذوا قبرى عيدا " . وقد يكون لفظ العيد اسما لمجموع اليوم والعمل فيه وهو : الغالب كقول النبي صلى الله عليه وسلم : " دعهما يا أبا بكر فان لكل قوم عيدا " .

---

(١) ابو داود : ١٤١/٩ .

أ -

وفي الحديث استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ، ويدل الحديث كذلك على سد الذريعة وترك مشابهة المشركين ، والمنع مما هو وسيلة الى ذلك . وقوله * أوف بنذرك " هذا يدل على أن الذبح لله في مكان يذبح فيه المشركون لغير الله ، أي : في محل اعيادهم معصية لان قوله " فاوف بنذرك " تعقيب بالحكم بالفاء وذلك يدل على ان الوصف سبب الحكم فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين . فلما قالوا : لا ، قال : " أوف بنذرك " وهذا يقتضي ان كون البقعة مكانا لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم مانع من الذبح بها ولو نذره قاله شيخ الاسلام ، وقوله " فانه لا وفاء لنذر في معصية الله " فيه دليل على ان هذا نذر معصية لووجد في المكان بعض الموانع وماكان من نذر معصية فلا يجوز الوفاء به باجماع العلماء ، واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين على قولين هما روايتان عن أحمد ، احدهما تجب وهو المذهب ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس وبه قال أبو حنيفة واصحابه كحديث عائشة رضي الله عنها (١) مرفوعا " لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين " رواه أحمد وأصحاب السنن . واحتج به احمد واسحاق .

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث لا يصح لان الزهري لم يسمع هذا الحديث من ابي سلمة وقال غيره : لم يسمعه الزهري من ابي سلمة ، وانما سمعه من سليمان بن ارقم وسليمان متروك ، وقال مثل هذا ابو داود بعد اخراجه له .

ا : البخاري ص ١٥٢ / ٨ دار المعرفة بيروت

والثاني : لا كفارة عليه ، وروى ذلك عن مسروق وغيره لحديث الباب ولم يذكر فيه كفارة ، وجوابه انه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم والمطلق يحمل على المقيد .

أقول وبالله التوفيق : الحديث على أية حال دليل من قال بوجوب الكفارة في نذر المعصية . وقد جاء في حديث عمران بن حصين الذى أخرجه النسائي مرفوعا بلفظ : " النذر نذران فمن كان نذر في طاعة فذلك لله فيه الوفاء ، ومن كان نذر في معصية فذلك للشيطان ولا وفاء فيه ويكفره ما يكفر اليمين الا أن هذا الحديث ضعيف كما قال الحافظ ، وكذلك حديث عائشة في هذا الباب الذى تقدم والذى رواه ابن شهاب عن أبي سلمة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين "

(١)

(٢)

(٣) قال المباركفورى في تحفة الأحوذى : قا هذا حديث لا يصح لان الزهرى لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة . قال الحافظ في التلخيص : رواه احمد واصحاب السنن وهو منقطع لم يسمعه الزهرى من أبي سلمة . وقال النووى : في الروضة حديث : " لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين " ضعيف باتفاق المحدثين ، قال الحافظ قد صححه الطحاوى وأبو علي بن السكن فأين الاتفاق .

---

(١) سنن النسائي : ٢٧/٧ .
(٢) تحفة الاحوذى : ١٢١/٥ ، والتلخيص : ١٧٨/٤
(٣) تلخيص الحبير في تخريج احاديث الرافعي الكبير : ١٧٨/٤
(٤) ابن السكن سعيد بن عثمان بن السكن البغدادى ابو علي من حفاظ الحديث نزل بمصر وتوفي بها قال ابن ناصر الدين كان أحد الاعلام الحفاظ والمصنفين الايقاظ رحل وجمع وصنف له الصحيح المنتقى في الحديث " الاعلام : ١٥١/٢ ، والتبيان لابن ناصر الدين وتهذيب ابن عساكر ١٥٤/٦ ، وتذكرة الحفاظ : ١٤٠/٣ والرسالة المستطرفة ص ٢٠ .

أقول وبالله التوفيق : النذر غير مرغب فيه ولم يكن عند العلماء من أعمال البر المحببة الا أن الله سبحانه مدح الوافين به فقـــال :

﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ﴾ والوفاء به لازم اذا كان في طاعة الله لقوله صلى الله عليه وسلم : " من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يفعل " وهذا حديث صحيح أخرجه محمد بن نعيم عن مالك وفيه دليل على ان من نذر طاعة يلزمه الوفاء وان لم يكن معلقا ، وان من نذر معصية فلا يلزمه الوفاء به بل لا يجوز له الوفاء به ولا تلزمه به الكفارة اذ لو كانت فيه كفارة لا شبه ان يمين وهو قول الاكثرين (١) (٢)

اما ما أشرت اليه قريبا من عدم استحباب النذر عند العلماء فذلك لكثرة الاحاديث في هذا المجال الدالة على التنفير منه منها حديث أبـــي هريرة رضي الله عنه : " ان النذر لا يقرب من ابن آدم شيئا لـــم يكن الله قدره له ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل مالم يكن البخيل يريد أن يخرجه " قال البغوى : هذا حديث متفـــق على صحته ، وهو كذلك . وجاء ايضا في صحيح مسلم من حديث أبـــي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تنذروا فان النـــــذر لا يغني من القدر شيئا " وانما يستخرج به من البخيل " متفق عليه من رواية ابن عمر . (٣) (٤)

---

(١) الموطأ : ٢/٤٧٦ .
(٢) البخاري : ١١/٥١٩ .
(٣) شرح السنة للبغوى ١٠/٢٢
(٤) مسلم والبخاري : "١٦٤٠" و "١٦٣٩" ١١/٤٣٧/٥٠٩ .

قال البغوى : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم كرهوا النذر في الجملة وان كان في الوفاء به أجر، اذا كان طاعة . (١)

(٢) قال ابو سليمان الخطابي : معنى نهيه صلى الله عليه وسلم عن النذر انما هو التأكيد لامره والتحذير من التهاون به بعد ايجابه ، ولو كان معناه الزجر عنه حتى لا يفعله لكان في ذلك ابطال حكمه واسقاط لزوم الوفاء به اذ صار معصية . وانما وجه الحديث انه اعلمهم ان ذلك الأمر لا يجلب لهم في العاجل نفعا ولا يصرف عنهم ضرا ولا ترد شيئا قضاه الله يقول فلان ، تنذرون على انكم تدركون بالنذر شيئا لم يقدره الله لكم أو تصرفون أنفسكم شيئا جرى القضاء به عليكم واذا فعلتم ذلك فاخرجوا عنه بالوفاء . فان الذى نذرتموه لازم لكم ، هذا معنى الحديث ووجهه ،

---

(١) شرح السنة للبغوى : ٢٢/١٠

(٢) الخطابي هو : سليمان الخطابي الفقيه محدث من أهل بست من بلاد " كابل " من نسل زيد بن الخطاب أخي عمر ابن الخطاب له معالم السنن ، وبيان اعجاز القرآن ، توفي في سبت ، الاعلام : ٣٠٤/٢ ، تحفة ذوى الارب : ١٥٤ ، والوفيات : ١٦٦/٦ ، ومجلة المجتمع العلمي : ٢٤١/١٥ ، وانباء الرواة : ١٢٥/١ ، والبغدادى في خزانة الادب ٢٢٨/١ وقال : مات سنة ٣٨٦ ويتيمة الدهر : ١٣١/٤ .

وقد أجمع المسلمون على وجوب الوفاء بالنذر اذا لم يكن معصية ويؤكده قوله " وانما يستخرج به من البخيل " فثبت بذلك وجوب استخراجه من ماله ، وفي قوله : " ان النذر لا يقرب من ابن آدم شيئا لم يكن الله قدره له " استدلال لمن قال ان النذر انما يلزم اذا كان معلقا بشيء مثل أن يقول : ان شفا الله مريضي فلله عليّ ان اعتق رقبة . وان قدم غائبي او سلم مالي فلله عليّ أن اتصدق بكذا ، واليه ذهب بعض أهل العلم حتى قال بعض أهل اللغة : النذر : وعد على شرط ، فكل ناذر واعد وليس كل واعد ناذرا ، وذهب آخرون الى أن النذر يلزم وان لم يكن معلقا بشيء وهو : مذهب أبي حنيفة وأظهر قولي الشافعي ولو قال على المشي الى بيت الله الحرام ولم يقل نذرا فعليه المشي ، أفتى به سعيد بن المسيب . (١) أقول وبالله التوفيق : أصح ما مر في الموضوع من الاقوال القول بوجوب الوفاء بالنذر الحلال وعدم ذلك في النذر الحرام كما نص عليه السياق " من نذر ان يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه " وهذا حديث ثابت ونص في الموضوع ونكتفي به عن الدخول والخوض في الخلافات الفقهية والله الموفق والهادي الى سواء السبيل .

وبهذه الكلمة نكون قد أنهيت الكلام على النذر والذبح لغير الله بصفة موجزة ولله الحمد ، ونبدأ بالكلام على الاستعاذة بغير الله والاستغاثة بغيره اعاذنا الله من اللجوء الا اليه .

---

(١) شرح السنن : للبغوي ٢٣/١٠ .

" الاستعاذة والاستغاثة بغير الله والتطير والتشاؤم "

---

(١) قال تعالى : ﴿ وانه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ .

أقول وبالله التوفيق : الاستعاذة الالتجاء والاعتصام ، والتحرز وحقيقتها : الهرب من شيء تخافه الى من يعصمك منه ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا وملجأ ، فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه الى ربه ومالكه وفر اليه والقى نفسه بين يديه . واعتصم به

(٢) واستجار به والتجأ اليه ، قال صاحب تيسير العزيز الحميد : وهذا تمثيل وتفهيم والا فما يقوم بالقلب من الالتجاء الى الله والاعتصام به ، والافتقار اليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة هذا معنى كلام

(٣) ابن القيم ، وقال ابن كثير : الاستعاذة هي : الالتجاء والالصاق بجانبه من شر كل ذى شر ، والعياذ يكون لدفع الشر واللياذ لطلب الخير وهذا معنى كلام غيرهما من العلماء فتبين بهذا ان الاستعاذة بالله عبادة لله ولهذا أمر الله بالاستعاذة به في غير آية وتواترت السنن

(٤) عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال تعالى : ﴿ واما ينزعنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم ﴾ .

---

(١) سورة الجن : الآية "٦" .

(٢) تيسير العزيز الحميد : ص ٢١٠

(٣) تفسير ابن كثير :

(٤) سورة فصلت : الآية "٣٦" .

وقال جل ذكره ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين (١)
وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وقال أيضاً: ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم ﴾ (٢).

أقول وبالله التوفيق : النصوص بهذا الصدد كثيرة جداً ومتواترة على معنى واحد وهو : اللجوء اليه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وقال : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ الى غير هذا من الآيات المتناثرة في القرآن الكريم . والله سبحانه وتعالى هو ربنا وخالقنا ورازقنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه ولا ملجأ لنا منه الا اليه ، ولا معبود غيره فلا يدعي ولا يخاف ولا يرجى غيره ولا يذل ولا يخضع لغيره ولا يتوكل الا عليه لأن من تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه اما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك فهو ربك ولا رب لك سواه وتكون مملوكه وعبده الحق فهو ملك الناس حقا وكلهم عبيده ومماليكه أو يكون معبودك والهك الذى لا تستغني عنه طرفة عين بل حاجتك اليه أعظم من حاجتك الى حياتك وروحك فهو اله الحق اله الناس فمن كان ربهم ومليكهم والههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجأوا الى غير حماه فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي امورهم جميعا بربوبيته وملكه والهيته لهم فكيف لا يلتجيء العبد عند النوازل ونزول عدوه به الى ربه وملكه

---

(١) سورة المؤمنون : آية " ٩٩ ".
(٢) سورة غافر : الآية " ٦ ".
١- سورة الفلق ١
٢- سورة الناس ١

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم باقرارهم بهذا التوحيد على توحيد الالوهية هذا معنى كلام ابن القيم فاذا تحقق العبد بهذه الصفات للرب والملك والاله وامتثل أمر الله واستعاذ به فلا ريب ان هذه عبادة من أجل العبادات بل من حقائق توحيد الالهية فان استعاذ بغيره فهو عائذ لذلك الغير كما ان من صلى لله وصلى لغير الله يكون عابدا لغير الله كذلك في الاستعاذة ولا فرق الا ان المخلوق يطلب منه مالا يقدر عليه الا الله فلا يستعاذ فيه الا بالله كالدعاء فان الاستعاذة من أنواعه وأما قوله تعالى : ﴿ وانه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ (١) قال ابن كثير أي : كنا نرى ان لنا فضلا على الانس لانهم كانوا يعوذون بنا اذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البراري وغيرها كما كانت عادة العرب في جاليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم شيء يسوءهم كما كان احدهم يدخل بلاد اعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته فلما رأت الجن أن الانس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رق رهقا أي : خوفا " . وارهابا وذعرا حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم (٢) كما قال قتادة فزادوهم رهقا " أي : اثما وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة . (٣) وقال الشوكاني : قال الحسن وابن زهير وغيرهما

---

(١) سورة الجن : الآية " ٦ " .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤٣٨/٤

(٣) تفسير الشوكاني : ٣٠٥/٥ .

كان العرب اذا نزل الرجل بواد قال : اعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه فيبيت في جواره حتى يصبح فنزلت هذه الآية ، قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ثم من بني حنيفة ثم فشى ذلك في العرب ، فلما جاء الاسلام عاذوا بالله وتركوهم وقال في قوله : " فزادوهم رهقا " أى : زاد رجال الجن من تعوذ بهم من رجال الانس رهقا : أى سفها وطغيانا أو تكبرا وعتوا ، أو زاد المستعيذون من رجال الانس من استعاذوا بهم من رجال الجن رهقا " لان المستعاذ بهم كانوا يقولون : سدنا الجن والانس وبالأول قال (١) مجاهد وقتادة وبالثاني قال ابو العالية والربيع وابن زيد ، والرهق في كلام العرب : الاثم وغشيان المحارم ورجل رهيق اذا كان كذلك ومنه قوله تعالى : * ترهقهم ذلة * أى : تغشاهم ، ومنه قول الأعشى:

لا شيء ينفعني من دون رأيتها

هل يشتفي عاشق مالم يصب رهقا

يعني : اثما وقيل الرهق الخوف أى : الجن زادت الانس بهذا التعوذ بهم خوفا منهم . وقيل كان الرجل من الانس يقول : أعوذ بفلان من سادات العرب من جن هذا الوادى ويؤيد هذا ماقيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجن فيكون قوله " برجال " وصفا لمن يستعيذون به من رجال انس أى : يعوذون بهم من شر الجن . وهذا فيه بعد كما قال الشوكاني في فتح القدير واطلاق لفظ رجال على الجن على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من اطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة .

---

(١) تفسير الكشاف : ٤/٦٢٤ .

(١) وقد أخرج ابن كثير بسنده قال : وقال ابن ابي حاتم حدثنا ابو سعيد ابن يحيى بن سعيد القطان حدثنا وهب بن جرير حدثنا ابي حدثنا

(٢) الزبير بن حرب عن عكرمة قال : كان الجن يفرقون بين الانس كما يفرق الانس منهم أو اشد. فكان الانس اذا نزلوا واديا هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادى . فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الانس فزادوهم رهقا " أى : اثما وكذا قال

(٣) قتادة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابي حدثنا فروة بن المغراء الكندى حدثنا القاسم بن مالك يعني : المزني عن عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي السائب الانصارى ، قال : خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ماذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فآوانا المبيت الى راع غنم فلما انتصف الليل جاء ذيب فأخذ حملا من الغنم فوثب الراعي فقال : ياعامر الوادى جارك ، فنادى مناد لانراه

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤٢٩/٤.

(٢) تفسير ابن كثير : ٤٢٩/٤ عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس ثقة عالم ثبت عالم بالتفسير ، ع التقريب ، ٣٠/٢ .

(٣) فروة بن أبي المغراء الكندى بفتح الميم والمد واسم ابيه معد يكرب الكندى يكنى ابا القاسم كوفي صدوق من العاشرة مات سنة ٢٥ ، خ ـ ت التقريب : ٢٠٨/٢ .

يقول : ياسرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة وأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بمكة :

﴿ وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ ثم قال : وروى عن عبيد بن عمير (١) ومجاهد وأبي العالية والحسن وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي نحوه وقد يكون هذا الذيب الذى أخذ الحمل وهو : ولد الشاة كان جنيا حتى يرهب الأنس وتخاف منه ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه والله أعلم .

أقول وبالله التوفيق : هكذا تسعى شياطين الجن وشياطين الأنس فالغرض الأول عندهم اضلال ابن آدم واخراجه عن طريق الحق والصواب في كل شيء يمن له حتى يظل حائرا ومتبعا غير سبيل المؤمنين والعياذ بالله تعالى ، وهنا تدرك ان الاستغاثة والعياذة لا يكونان الا بالله الواحد القهار القادر على كشف الضر واحلال النفع مكانه لأنه هو غ الحاضر القادر وهذه هي الصفات التي تنفع المضطر المضور ، والقدرة والكرم وهي : صفات من صفات البارى جل وعلا ، وهذه زاوية ينظر منها الموحدون ويخافون أشد الخوف من كل رغبة

---

(١) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي ابو عاصم المكي ولد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله مسلم ، وعده غيره في كبار التابعين وكان قاضي أهل مكة مجمع على ثقته ، مات قبل ابن عمر . / ع / التقريب : ١/ ٥٤٤ .

(١) أو رهبة تصرف عن الله تعالى والالتجاء اليه في كل مرغوب ومرهوب ، وقد جاء في حديث ابن عمر عند ابي داود والنسائي بسند صحيح قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سأل بالله فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع اليهم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا انكم قد كافأتموه" رواه ابو داود والنسائي بسند صحيح . وظاهر الحديث وجوب اعطائه ماسأل مالم يسأل اثما او قطيعة رحم وقد جاء الوعيد على ذلك في عدة

(٢) احاديث منها حديث أبي موسى مرفوعا : "ملعون من سأل بوجه الله ، ملعون من يسأل بوجهه ثم يمنع سائله مالم يسأل هجرا" رواه الطبراني ورجال اسناده رجال الصحيح الا شيخه يحيى بن عثمان بن صالح والأكثرون على توثيقه قوله : "فأعيذوه" أي : من سألكم أن تدفعوا عنه شركم أو شر غيركم بالله كقوله : "بالله عليكم ان تدفعوا عني شر فلان ونحو ذلك فأعيذوه اى : امنعوه مما استعاذ منه وكفوه عنه لتعظيم اسم الله تعالى ولهذا قالت الجوينية للنبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله منك قال : "لقد عذت بمعاذ الحقي بأهلك" .

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : ص٥٩١ .

(٢) هو: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بفتح المهملة وتشديد الضاد أبو موسى الاشعرى صحابي جليل مشهور أمره عمر ثم عثمان وهو احد الحكمين بصفين واستقضاه الحجاج على المدينة سنة ٧٣ ومات سنة ست وسبعين / م ٠ ع التقريب: ١/٤٤١.

ح٣ ابو داود ج٥/٢٢٤، ٢٢٥ ولفظه
واخرجه النسائي بكامله جه/٨٥

ولفظ أبي داود : " من استعاذكم بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله

فأعطوه " وهذه الأحاديث دالة على اجابة من سأل بالله أو أقسم بـــــه

(١) ولكن قال شيخ الاسلام : انما تجب على معين ، فلا تجب على سائـــل

يقسم على الناس ، وظاهر كلام الفقهاء ان ذلك مستحب كابرار القســم

والأول أصح . أقول : هذا العموم يحتاج الى تفصيل يجب بحسب ماورد

في الكتاب والسنة فيجب اذا سأل السائل ماله فيه حق كبيت المال ان

يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوبا وكذلك اذا ســـأل

المحتاج من في ماله فضل فيجب ان يعطى على حسب حاله ومسألته .

خصوصا اذا سأل من لا فضل عنده ، فيستحب أن يعطيه على قدر حـــال

(٢) المسؤول مالا يضر به ولا يضر عائلته وان كان مضطرا وجب أن يعطيـــه

مايدفع ضرورته ، ومقام الانفاق كما قال صاحب فتح المجيد من أشـــــرف

مقامات الدين وتتفاوت الناس فيه بحسب ماجبلوا عليه من الكرم والجود

وضدهما من البخل والشح فالأول محمود في الكتاب والسنة والثاني مذموم

فيهما وقد حث الله تعالى عباده على الانفاق لعظم نفعه وتعديه وكثـرة

(٣) ثوابه ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم

وما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ . وقال

(٤) تعالى : ﴿ وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ وذلك الانفاق مـــــن

(٥) خصال البر المذكورة في قوله : ﴿ ليس البر ان تولوا وجوهـكم قبـــل

المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتـاب

والنبيين ﴾ .

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : ص ٥٩٢ .
(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : ص ٤١٤ .
(٣) سورة البقرة : الآية " ٢٦٧ ".
(٤) سورة الحديد : الآية " ٧ "
(٥) سورة البقرة : الآية " ١٧٧ ".

١: أبو داود ح ٥٠٩٦ ... ج ٢ ص ٩٩

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء نصحا للأمة وحثا لهم على ماينفعهم عاجلا وآجلا وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار بقوله جل ذكره : ﴿ يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خاصة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾ . (١)

أقول وبالله التوفيق : الآيات والأحاديث التي تحض على الانفاق كثيرة جدا وثابتة ثبوت التواتر ولا سبيل لحصرها في هذا المقام ويكفي فيه ما اوردته من نصوص محكمة بالاضافة الى قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ والله ما ان لي مثل احد ذهبا يبيت عندي منه الا درهما ارصده لدين " والله أسأل ان يجعلنا من الذين يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن الذين يطعمون الطعام على حبه ، ويطعمونه ابتغاء رضوانه يدخر ذلك ليوم تشخص فيه الابصار انه سميع مجيب . ونكتفي بهذا القدر مما كان عليه أهل الجاهلية الأولى فيما يخص معتقداتهم من ناحية الذبح لغير الله والنذر لغيره والاستعاذة والاستغاثة ونبدأ بالكلام على النقطة الاخيرة من هذا الفصل وهي التطير والتشاؤم ومعتقدهم في هذا الصدد والله الموفق والهادي الى سواء السبيل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

٢ ملحق ٨

الطـــــيرة

(١) الطيرة : مصدر تطير يتطير ، والطيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن : اسم مصدر من تطير طيرة كما يقال ، تخير خيرة ، ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرهما . وتطير فلان وأطير أصله التفاؤل بالطير ثم يستعمل في كل مايتفاءل به ويتشاءم ، وأصله : التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما وكان ذلك يصد الكفار عن مقاصدهم فنفاه الشارع وأبطله وأخبرا انه لا تأثير له في جلب النفع ولا دفع الضر ، قال المدائني : سألت رؤبة بن العجاج (٢) قلت : ما السانح ؟ قال : ماولاك ميامنه قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسرة ، والذى يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح والذى يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد ، ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب لكونها من القاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكرها العلماء تمشيا مع مهمتهم الواجب عليهم القيام بها كي يحذر الناس من الشرك وما يؤدى اليه ويبينوا للناس معنى النصوص المتعلقة بهذا

---

(١) مفردات الراغب الاصفهاني : ص ٣١٠ وفتح المجيد ص ٢٦٢

(٢) رؤبة : بضم أوله وسكون الواو وبعدها موحدة ابن العجاج الراجز المشهور التميمي ثم السعدى لين الحديث فصيح مات بالبادية سنة خمس وأربعين . خت / التقريب: ١ / ٢٥٣ .

(١) الشأن الخطير قال تعالى : * الا ان ماطائرهم عند الله ولكن أكثرهم
أ ـ لا يعلمون * وقال جل ذكره : * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل
أنتم قوم مسرفون * ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله * فاذا
(٢) جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه *
فيقولون : هذا بسبب موسى واصحابه .

المعنى : ان آل فرعون كانوا اذا اصابتهم الحسنة أى : الخصبة والسعة والعافية كما فسره مجاهد وغيره قالوا : لنا هذه ،أى : نحن الجديرون والحقيقيون به ، ونحن أهله . وان تصبهم سيئة أى : بلاء وقحط تطيروا بموسى ومن معه يقولون أصابنا هذا بشؤمهم ، فقال تعالى : * الا انما طائرهم عند الله * قال ابن عباس : طائرهم : ماقضى عليهم وقدر لهم " ، وفي رواية : " شؤمهم عند الله " ومن قبله أى : انما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم رسوله ولكن أكثرهم لا يعلمون " أى : ان أكثرهم جهال لا يدرون ، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أن ليس فيما جاء به موسى عليه السلام الا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به
(٣) واتبعه وقوله : قالوا طائركم معكم ـ الآية ، المعنى والله أعلم : حظكم ومانابكم من شر معكم سبب افعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وعدوانكم فطائر الباغي الظالم معه

---

(١) سورة الاعراف : الآية " ١٣١ ".
(٢) فتح المجيد : ص ٢٦٣ وتيسير العزيز الحميد : ص ٣٦٩
(٣) سورة يس : الآية " ١٨-١٩ "
أ - سورة يس الآية ١٩

وهو عند الله كما قال تعالى : ﴿ وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ (١)

ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مايقتضي الطيرة ، لأنه خير محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه . وحكمة لا عيب فيها ورحمة لا جور فيها فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا لأن الطيرة انما تكون بالشر لا بالخير المحض والحكمة والرحمة بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي ينالونها منه باعمالهم - ويحتمل ان يكون " طائركم معكم " أى : راجع اليكم ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : " اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليهم " ذكره ابن القيم ، وقوله " أئن ذكرتم " أى : من أجل انا ذكرناكم وامرناكم بتوحيد الله واخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا بل انتم قوم مسرفون . وقال قتادة رح : ائن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ؟ (٢)

وقال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ﴿ الا انما طائر آل فرعون (٣) وغيرهم وذلك انصباؤهم من الرخاء والخصب وغير ذلك من أنصباء الخير والشر عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون " ان ذلك كذلك فلجهلهم بذلك كانوا يتطيرون بموسى ومن معه .

---

(١) سورة النساء : الآية " ٧٨ ".

(٢) قتادة بن دعامة الدوسي أبو الخطاب البصري : ثقة ثبت يقال ولد اكمه وهو رأس الطبقة الرابعة مات سنة بضع عشرة / ع التقريب: ٢ / ١٢٣ .

(٣) تيسير العزيز الحميد : ص ٣٧٠ .

ا - الـمسلم جـ ٧ ص ٩

أقول وبالله التوفيق : هذه هي الاعمال التي درج عليها المشركون واستمروا عليها وبنوا معتقداتهم عليها وهي من الشرك البواح والشرع جاء محذرا منها وبينا ان النفع والضر من تلقاء خالقنا والغير ليس له نفع ولا ضرر .. فقد ثبت في البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لاعدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر " وزاد مسلم " ولا نوء ولا غول " قال ابو السعادات : العدوى اسم من الاعداء كالدعوى والبقوى من الاعداء والابقاء يقال : أعداه الداء يعديه اعداء وهو ان يصيبه مثل مايصاحب الداء وذلك ان يكون ببعير جرب مثلا يتقي مخالطته بابل أخرى حذار ان يتعدى مابه من الجرب اليها فيصيبها ما أصابه وفي بعض روايات هذا الحديث فقال اعرابي : يارسول الله فما بال الابل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها ؟ قال : " فمن أعدى الأول " وفي رواية في مسلم أن ابا هريرة كان يحدث بحديث " لاعدوى " ويحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : " لا يورد ممرض على مصح " ثم ان ابا هريرة اقتصر على حديث " لايورد ممرض على مصح " وأمسك عن حديث " لاعدوى " فراجعوه فيه فقالوا : سمعناك تحدثه فأبى ان يعترف به ، قال أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة : فلا أدري أنسي أبو هريرة أم نسخ أحد القولين ، وقد روى حديث لاعدوى جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك وجابر بن عبد الله والسائب بن يزيد وعمر وغيرهم فنسيان أبي هريرة له لايضر . وفي بعض روايات هذا الحديث " وفر من المجذوم كما تفر من الأسد " وقد اختلف العلماء في

(١) البخاري جـ١١ ص٢١٥ - ٢١٦ والحديث ثابت عند الشيخين وغيرهما وله طرق تختلف اختلافا بسيطا وهو من حديث ابي هريرة

ذلك اختلافا كثيرا فردت طائفة حديث " لا عدوى " بأن أبا هريرة رجع عنه ، قالوا : والاخبار الدالة على الاجتناب أكثر فالمصير اليها أولى . قال صاحب تيسير العزيز الحميد : وهذا ليس بشيء لان حديث " لا عدوى " قد رواه جماعة كما تقدم وعكست طائفة هذا القول ورجحوا حديث " لا عدوى " زيفوا ماسواه من الاخبار وأعلوا بعضها بالشذوذ كحديث فر من المجذوم فرارك من الأسد " وبأن عائشة أنكرت كما روى ابن جرير عنها أن امرأة سألتها عنه فقالت : ماقال ذلك ولكنه قال " لا عدوى " وقال : " فمن أعدى الأول " قالت : وكان لي مولى به هذا الداء فكان يأكل في صحافنا ويشرب في أقداحي وينام على فراشي وهذا ايضا ليس بشيء فان الاحاديث في الاجتناب ثابتة . وحملت طائفة أخرى الاثبات والنفي على حالتين مختلفتين فحيث جاء لا عدوى كان للمخاطب بذلك من قوى يقينه ، وتوكله بحيث لا يستطيع ان يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى كما يستطيع التطير الذى يقع في نفس كل واحدة ولكن قوى اليقين لا يتأثر به وهذا كما ان قوة الطبيعة تدفع العلة وتبطلها وحيث جاء الاثبات كان المراد به ضعيف الايمان والتوكل .

أقول وبالله التوفيق : هذه أقوال اصحابها لم يعززوا ماقالوا بأدلة من كتاب ولا سنة ولكنها مجرد آراء ومحاولة للجمع بين الأدلة والجمع بين الأدلة احكم وأسلم لان فيه عدم تعطيل النصين واعمالهما ـ لكن يشترط امكان الجمع وعدم التناقض والتكلف كما هو معروف في بابه فالجمع (١)

---

(١) نشر البنود شرح مراقي السعود : ٢٦٩/٥

أ- انظر ص ٢٠٥ من هذه الرسالة الأصل

واجب متى ما أمكن " وقد قال مالك لما سئل عن حديث " فر من المجذوم " ماسمعت فيه بكراهية وما أرى ماجاء من ذلك الا مخافة ان يقع في نفس المؤمن شيء ، ومعنى هذا انه نفى العدوى أصلا وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة لئلا يحدث للمخاطب شيء من ذلك فيظن انه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التي نفاها الشارع والى هذا ذهب ابو عبيد وابن جرير والطحاوى وذكره القاضي أبو يعلى عن أحمد ، وأحسن من هذه الطريقة التي ذكرت آنفا ماذكره البيهقي وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم ان قوله " لا عدوى " على الوجه الذى كانوا يعتقدون في الجاهلية من اضافة الفعل الى غير الله تعالى وان هذه الأمراض تعدى بطبعها والا فقد جعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببا لحدوث ذلك ولهذا قال : " فر من المجذوم فرارك من الأسد " وقال : " لا يورد (١) ممرض على مصح " وقال في الطاعون : " من سمع به بأرض فلا يقدم عليه " وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال : " فمن أعدى الأول " يشير الى ان الاول انما جرب بقضاء الله وقدره فكذلك الثاني ومابعده ، وروى الامام احمد والترمذى عن ابن مسعود مرفوعا " لا يعدى شيء قالها ثلاث فقال اعرابي : يارسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الابل العظيمة فتجرب كلها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فمن أجرب الأول لاعدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها " . فأخبر عليه السلام

---

(١) تيسير العزيز الحميد : ص ٣٧٤ .

م = هذا اخر ... حديث متفق عليه اخرجه البخاري ج١٠/ ٢١٢ - ٢٠٩ ... ومسلم ٤/ ١٨٩

ان كل ذلك بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ (١)

وأما امره بالفرار من المجذوم ، ونهيه عن ايراد الممرض على المصح وعن الدخول الى موضع الطاعون فانه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها اسبابا للهلاك والأذى والعبد مأمور باتقاء اسباب الشر اذا كان في عافية فكما أنه يؤمر ان لا يلقي نفسه في الماء او في النار أو تحت الهدم او نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذي فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم وقدوم بلد الطاعون فان هذه اسباب للمرض والتلف والله سبحانه هو خالق الاسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره . واما اذا قوى التوكل على الله والايمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الاسباب اعتمادا على الله ورجاء منه ان لا يحصل به ضرر ففي هذه الحال يجوز مباشرة ذلك لا سيما اذا كانت فيه مصلحة عامة او خاصة وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه ابو داود والترمذي ان النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال : " كل باسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه " وقد أخذ به الامام احمد وروى ذلك عن ابنه وسلمان رضي الله عنهم ،وقوله : "ولا طيرة" قال ابن القيم : هذا يحتمل ان يكون نفيا وان نكون نهيا أى : لا تطيروا ولكن قوله في الحديث : " ولا عدوى ولا صفر ولا هامة " يدل على ان (٢)

---

(١) سورة الحديد : الآية " ٢٢ "

(٢) د = ابو داود ح ٢٩٢٥ والترمذي رقم ١٨١٨ وهو من حديث جابر بن عبد الله

المراد النفي وابطال هذه الامور التي كانت الجاهلية تعانيها والنفي في هذا ابلغ من النهي لان النهي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنفي انما يدل على المنع منه . وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ومنا أناس يتطيرون : فقال : " ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصرفنكم " فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير انما هو في نفسه ، وعقيدته ، لا في المتطير به فوهمه وخوفه واشراكه هو الذى يطيره ويصده لا مارآه وسمعه فأوضح صلى الله عليه وسلم لامته الامر وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا ان الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة ولا نصبها سببا لما يخافونه ، ويحذرونه ، ولتطمئن نفوسهم وتسكن الى وحدانية الله تعالى التي ارسل بها رسله ونزل بها كتبه وخلق لاجلها السموات والارض . وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع صلى الله عليه وسلم علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقى فيها علق منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله قطع هاجس الطيرة ، من قبل استقرارها ، قال عكرمة : كنا جلوسا عند ابن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال ابن عباس : لا خير ولا شر فبادره ابن عباس بالانكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر .

أقول وبالله التوفيق : قد بينت ان هذه الأمور مما كان عليه أهل الجاهلية يتشاءمون بهذه الاشياء ، والاسلام جاء مانعا لها ومحذرا منها والآيات في الحث على التوكل والاعتماد على الله لا تحصى ،

١- مسلم ج٧ ص٢

قال تعالى : * وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين * ، وقال : * ومن يتوكل على الله فهو حسبه * ، وقال أيضا : * قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا * الى غير ذلك من الآيات كما أن الاحاديث ثابتة أيضا في هذا المعنى ولا يشكل عليه مارواه ابن حبان في صحيحه مرفوعا : " لا طيرة والطيرة على من تطير " فظاهر هذا المعنى انها تكون سببا لوقوع الشر بالمتطير ، وجواب ذلك أن المراد به من تطير تطيرا منهيا عنه وهو ان يعتمد على مايسمعه ويراه حتى يمنعه مما يريده من حاجته فانه قد يصيبه مايكرهه عقوبة له ، فأما من توكل على الله ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفا ورجاء وقطعه عن الالتفات الى غير الله وقال وفعل ما أمر به فانه لايضره ذلك وأما من اتقى اسباب الضرر بعد انعقادها بالاسباب المنهي عنها فانه لا ينفعه ذلك غالبا كمن ردته الطيرة عن حاجته خشية ان يصيبه ماتطير به ، فانه كثيرا مايصاب بما يخشاه .

أقول وبالله التوفيق : على اية حال جاءت نصوص ظن بعض الناس على انها تدل على جواز التطير منها قوله صلى الله عليه وسلم : " الشؤم في ثلاث في المرأة والفرس والدار " وفي رواية : " لاعدوى ولا طيرة ، والشؤم في ثلاث . الحديث ، وفي حديث آخر " ان كان ففي الفرس والمرأة والمسكن " رواهما البخارى ، فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك وقالت : كذب والذى أنزل الفرقان على أبي القاسم من حدث بهما

---

١ - موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان ص ١/٣٤٦ ٢

٢ - البخاري حـ ٧/٣٤ ومسلم رقم ٢٢٢٥ وابي داود رقم ٥/٢٧ ٢

(هامش مخطوط: ١ - ، ٢ -)

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " كان أهل الجاهليـــة يقولون : ان الطيرة في المرأة والدار والدابة " ثم قرأت عائشـــــة ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ﴾ رواه احمد وابن خزيمة والحاكـــم وقال الخطابي وابن قتيبة : هذا مستثنى من الطيرة

أى : الطيرة منهى عنها الا أن يكون له دار يكره سكناها أو امـــــرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميـــع بالبيع ونحوه ولا يقيـــم على الكراهة والتأذى به فانه شوم . وقالت طائفة انه صلى الله عليه وسلم لم يجزم بالشوم في هذه الثلاثة : بل علقه بالشرط كما ثبـــــــت ذلك في الصحيح ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد بمفردهـــا قالوا : والراوى غلط ـ وأنا اقول : والله أعلم والحمد لله ان مايدأتــه كملاثـــم الصلاة على النبي وآله وصحبه الفضلاء وأرجو ان اكون قد أتيت بما يعلم الجاهل ويذكر العالم بدون تقصير مخل أو تطويـــل ممل . والله حسبي ونعم الوكيل .

المراجـــع العامــــة

١ -	تفسير الطبرى	أبو جعفر محمد بن جرير
٢ -	تفسير القرطبي	محمد بن احمد القرطبي
٣ -	تفسير الفخر الرازى	الامام الفخر الرازى
٤ -	تفسير ابن كثير	اسماعيل بن عمر بن كثير
٥ -	تفسير فتح القدير	الامام الشوكاني
٦ -	تفسير البحر المحيط	ابو حيان
٧ -	تفسير الكشاف	جار الله ابو محمود
٨ -	تفسير المنار	الشيخ محمد عبده
٩ -	تفسير الصاوى	محمد الصاوى
١٠ -	زاد المسير في علم التفسير	ابو الفرج جمال الدين
١١ -	تفسير القرآن الكريم	الامام النسفي
١٢ -	تفسير القرآن	احمد مصطفى المراغي
١٣ -	الفتوحات الالهية	سليمان بن عمر الجمل
١٤ -	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي
١٥ -	تفسير القرآن الكريم	محمود محمد حمزة
١٦ -	تفسير روح المعاني	للشيخ اسماعيل الألوسي
١٧ -	محاسن التأويل	محمد جمال الدين
١٨ -	فتح البيان في مقاصد القرآن	صديق حسن خان
١٩ -	التسهيل لعلوم التنزيل	محمد بن احمد بن جزى الكلبي
٢٠ -	تفسير القرآن المشتمل على عجائب بدائع الأكوان	الشيخ طنطاوى جوهرى

٢١ - في ظلال القرآن — سيد قطب

٢٢ - المحرر الوجيز في تحرير الكتاب العزيز — عبد الحق بن عطية

٢٣ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن — عبد الرحمن الثعالبي

٢٤ - معاني القرآن — يحيى بن زياد الفراء

٢٥ - احكام القرآن — محمد بن ادريس الشافعي

٢٦ - احكام القرآن — ابو بكر الجصاص

٢٧ - مفردات القرآن — الراغب الاصفهاني

٢٨ - لباب التأويل في معاني التنزيل — علاء الدين علي بن محمد

٢٩ - البرهان في علوم القرآن — محمد بن عبد الله الزركشي

٣٠ - أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن — محمد الامين الشنقيطي

٣١ - الجامع المسند الصحيح — محمد بن اسماعيل البخاري

٣٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري — الامام ابن حجر العسقلاني

٣٣ - الجامع الصحيح — مسلم بن الحجاج القشيري

٣٤ - مكمل اكمال الاكمال شرح صحيح مسلم — محمد بن محمد بن يوسف السنوسي

٣٥ - النووي شرح صحيح مسلم — الامام النووي

٣٦ - الموطأ — الامام مالك

٣٧ - المنتقى شرح الموطأ — سليمان بن خلف الباجي

٣٨ - سنن النسائي — احمد بن شعيب بن علي

٣٩ - سنن ابن ماجه — عبد الله بن احمد بن يزيد القزويني

٤٠ - سنن الدارقطني — علي بن محمد الدارقطني

٤١ - جامع الترمذي — ابو عيسى الترمذي

٤٢ - تحفة الأحوذي — المباركفوري

٤٣ - السنن الكبرى — ابو بكر احمد بن الحسين

٤٤ - السنن — ابو داود

٤٥ - المسند — الامام احمد بن حنبل

٤٦ - الفتح الرباني — احمد بن عبد الرحمن البنا

٤٧ - مجمع الزوائد — الهيثمي

٤٨ - صحيح ابن خزيمة — محمد بن اسحاق بن خزيمة أبو بكر

٤٩ - مسند الطيالسي — علي بن عمر بن احمد بن مهدى

٥٠ - المصنف — عبد الرزاق

٥١ - نيل الأوطار — الشوكاني

٥٢ - شرح السنة — البغوى

٥٣ - المستدرك على الصحيحين — محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم

٥٤ - بلوغ المرام بشرح سبل السلام — الصنعاني

٥٥ - سبل الهدى والرشاد في هدى خير العباد — محمد بن يوسف الصالحي

٥٦ - تلخيص الحبير في تخريج احاديث الرافعي الكبير : — ابن حجر العسقلاني

٥٧ - نصب الراية في تخريج احاديث الهداية — الامام الزيلعي

٥٨ - توضيح الأفكار — الصنعاني

٥٩ - الرفع والتكميل في الجرح والتعديل — عبد الحق اللكنوى

٦٠ - فيض القدير شرح الجامع الصغير — عبد الروءف المناوى

٦١ - رياض الصالحين — الامام النووى

٦٢ - المغني بهامش الشرح الكبير — ابن قدامة

٦٣ - تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق — عثمان بن علي الزيلعي

٦٤ - حاشية ابن عابد ين	محمد امين المعروف بابن عابد ين
٦٥ - الهداية بهامش فتح القدير	كمال الدين محمد بن عبد الواحد
٦٦ - كتاب الوقف وبيان احكامه	الشيخ احمد بن ابراهيم
٦٧ - بدائع الصنائع	علاء الدين ابي بكر
٦٨ - المبسوط	السرجسي
٦٩ - مواهب الجليل شرح مختصر الخليل	محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي
٧٠ - الخرشي شرح خليل	الخرشي
٧١ - الجواهر المضيئة	محي الدين أبي محمد عبد القادر
٧٢ - الخطاب شرح مختصر خليل	محمد بن محمد الحطاب
٧٣ - البرهان في اصول الفقه	الجويني
٧٤ - اعلام الموقعين	ابن قيم الجوزية
٧٥ - تذكرة الحفاظ	شمس الدين ابي عبد الله الذهبي
٧٦ - شذرات الذهب	عبد الحي بن العماد الحنبلي
٧٧ - طبقات الشافعية الكبرى	تاج الدين ابي نصر عبد الوهاب
٧٨ - خلاصة تهذيب الكمال	صفي الدين احمد بن عبد الله الخزرجي
٧٩ - معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة
٨٠ - الديباج المذهب في أعيان المذهب	ابن فرحون المالكي
٨١ - آداب الشافعي ومناقبه	الرازى
٨٢ - خزانة الأدب	عبد القادر البغدادى
٨٣ - أسد الغابة	عز الدين ابي الحسن الجوزى
٨٤ - صفوة الصفوة	عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزى

٨٥ - تاريخ بغداد — احمد بن علي الخطيب

٨٦ - جوامع السيرة — ابو محمد علي بن حزم

٨٧ - الاستيعاب — أبو عمر يوسف بن عبد البر

٨٨ - أنساب الاشراف — احمد بن يحيى المعروف بالبلاذوري

٨٩ - كتاب الطبقات — ابو عمر خليفة خياط

٩٠ - السيرة النبوية — محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار

٩١ - البداية والنهاية — اسماعيل بن عمر بن كثير

٩٢ - تهذيب التهذيب — ابن حجر العسقلاني

٩٣ - الاعلام — خير الدين الزركلي

٩٤ - تقريب التهذيب — ابن حجر العسقلاني

٩٥ - اخبار القضاة — محمد بن خلف بن حيان

٩٦ - النجوم الزاهرة — جمال الدين ابي المحاسن

٩٧ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان — ابو محمد عبد الله بن سعد بن علي

٩٨ - وفياة الأعيان — احمد بن محمد بن خلكان

٩٩ - معرفة القراء الكبار — شمس الدين ابي عبد الله الذهبي

١٠٠ - تحفة الاشراف — جمال الدين ابي الحجاج

١٠١ - تاريخ الاسلام — الحافظ الذهبي

١٠٢ - مفتاح دار السعادة — محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزيه

١٠٣ - النور المبين في قواعد الدين — ابن جوزى

١٠٤ - تقريب الوصول الى علم الأصول — ابن جوزى

١٠٥ - انباء الرواة على انباه النحاة — جمال الدين أبي الحسين

١٠٦ - اضواء علم الاسلام — محمود احمد مهدى

الكتاب	المؤلف
١٠٧ - العقائد الاسلامية	السيد سابق
١٠٨ - عظمة الاسلام	احمد عطية
١٠٩ - سماحة الاسلام	د . المرجون رضي الله عنه
١١٠ - كتاب الخراج	ابو يوسف
١١١ - مع الله دراسات في الدعوة والدعاة	محمد الغزالي
١١٢ - علم الاجتماع	عبد الرحمن النحلاوى
١١٣ - التفكير فريضة اسلامية	محمود العقاد
١١٤ - المستصفى	الامام الغزالي
١١٥ - الباعث الحثيث في علوم الحديث	ابن كثير
١١٦ - نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر	ابن حجر
١١٧ - جامع بيان العلم وفضله	ابن عبد البر
١١٨ - تطور نمو الاطفال	د . ابراهيم حافظ
١١٩ - الفكر الاسلامي الحديث	محمد الباهي
١٢٠ - مشكلات نمو الاطفال	اسحاق رمزى
١٢١ - خلاصة علم النفس	احمد فؤاد
١٢٢ - علم الاجتماع ومدارسه	د . مصطفى خشاب
١٢٣ - مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون
١٢٤ - افكار ورجال	ترجمة محمود محمود
١٢٥ - الصراع بين الفكرة الاسلامية والقانونية	الندوى
١٢٦ - لسان العرب	ابن منظور
١٢٧ - الفلك الحديث	عبد اللطيف ابو الوفاء

١٢٨ - الفلك العام   حلمي عبد الرحمن

١٢٩ - الصحاح   الجوهرى

١٣٠ - العدالة الاجتماعية   سيد قطب

١٣١ - بين الجاهلية والاسلام   محمد مهدى شمس الدين

١٣٢ - المجتمع الانساني في ظل الاسلام   محمد ابو زهرة

١٣٣ - فرقان الفرقان بين صفات الخالق وصفات الاكوان :

١٣٤ - العقيدة الاسلامية   كمال محمد عيسى

١٣٥ - الفوائد   ابن القيم

١٣٦ - كتاب الشريعة   الآجرى

١٣٧ - كتاب النبوات   ابن تيمية

١٣٨ - الارشاد الى قواطع الادلة في اصول الاعتقاد :   الجويني

١٣٩ - عقيدة المسلم   محمد الغزالي

١٤٠ - نشر البنود على مراقي السعود   سيدى عبد الله الشنقيطي

١٤١ - كتاب الزهد   الامام احمد

فهرست الموضوعـــات